العِقْدُ الفَرِيدُ

تأليف

الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي

المتوفى سنة ٣٢٨ هـ

بتحقيق

محمد سعيد العريان

الجزء الثامن

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى

[الطبعة الثانية]

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

١٣٧٢ — ١٩٥٣

كتاب الفريدة الثانية
فى الطعام والشراب

لابن عبد ربه قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه : قد مضى قولنا فى بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان والنتف .

ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه فى الطعام والشراب اللذين بهما تنمو الفِراسة ٥ وهما قوام الأبدان ، وعليهما بقاء الأرواح .

ــ قال المسيح عليه الصلاة والسلام فى الماء : هذا أبى . وفى الخبز : هذا أمى . يريد أنهما يغذيان الأبدان كما يغذيها الأبوان .

وهذا الكتاب جزآن : جزء فى الطعام ، وجزء فى الشراب .

فالذى فى الطعام منهما متقصٍّ جميعَ ما يتم ويتصرف به أغذية الطعام من ١٠ المنافع والمضار ، وتعاهُد الأبدان بما يصلحها من ذلك فى أوقاته وضروب حالاته ، واختلاف الأغذية مع اختلاف الأزمنة بما لا يخلى المعدة وما لا يكظُّها ، فقد جعل الله لكل شىء قدرا .

والذى فى الشراب منهما مشتملٌ على صنوف الأشربة ، وما اختلف الناس فيه من الأنبذة ، ومحمود ذلك ومذمومه ؛ فإنا نجد النبيذ قد أجازه قوم صالحون ، ١٥ وقد وضعنا لكل شىء من ذلك بابا فيحتاط كل رجل لنفسه بمبلغ تحصيله ، ومنتهى نظره ؛ فإن الرائد لا يكذب أهلَه .

أطعمة العرب

الوشيقة من اللحم : وهو أن يغلى إغلاءة ثم يرفع ؛ يقال منه : وشّقت

أشُقُّ وشقا . قال الحسن بن هانئ :

حتى رفعْنا قِدْرَنا بضِرامِها * واللّحمُ بين مُوَذَّمٍ ومُوَشَّقِ

والصفيف مثله ، ويقال هو القديد ، يقال : صَفَفْتُه أَصُفّه صفًّا .

والرَّبيكة : شيء يطبخ من بُرّ وتمر ، ويقال منه : ربَكته أربُكه ربكا .

٥ والبَسيسة : كلُّ شيء خلطتَه بغيره ، مثل السويق بالأقِط ، ثم تلتّه بالسمن أو بالزيت ؛ أو مثل الشعير بالنوى للإبل ، يقال : بسستُه أَبُسُّه بَسًّا .

والعَبيثة (بالعين غير معجمة) طعامٌ يطبخ ويجعل فيه جراد ؛ وهو الغثيمة أيضا .

والبَغيث والغَليث : الطعام المخلوط بالشعير ؛ فإذا كان فيه الزُّؤان فهو المغلوث .

١٠ والبكيلة ، والبَكالة جميعاً : وهى الدقيق يخلط بالسويق ثم يبل بماء أو بسمن أو زيت ، يقال : بكَلته أبكُله بكلا .

والفريقة : شيء يعمل من اللبن .

فإذا قطعت اللحم صغارا قلت : كتَّفته تكتيفا .

أبو زيد قال : إذا جعلت اللحم على الجمر قلت : حسحسته ، وهو أن تَقْشِرَ

١٥ عنه الرماد بعد أن يخرج من الجمر ؛ فإذا أدخلته النار ولم تبالغ فى طبخه قلت : ضهَّبْته وهو مُضَهَّب .

والمَضيرة : سميت بذلك لأنها طبخت باللبن الماضر ، وهو الحامض . والهريسة ، لأنها تهرس . والعصيدة ، لأنها تعصد . واللفيتة لأنها تلفت .

والفالوذ ـ وهو السِّرطراط ، ومن أسماء الفالوذ أيضا : السريط ـ لأنه

٢٠ يُسترط ، مثل يُزدرد ؛ ويقال : لا تكن حلوا فتُسترط ، ولا مُرًّا فتُعقِى . يقال : أعقى الشيء : اشتدت مرارته .

الرغيدة : اللبن الحليب يُغلى ثم يذَرّ عليه الدقيق حتى يختلط فيُلعَق لعقا .

الحريرة : الحساء من الدسم والدقيق .

والسخينة : حساء كانت تعمله قريش فى الجاهلية فسميت به ، قال حسان :

زعمتْ سخينة أنْ ستغْلِب رَبَّها * وليُغلبَنّ مُغالب الغـلّابِ

والعَـكِيس : الدقيق يُصب عليه المـاء ثم يُشرب . قال منظور الأسدى :

ولمـا سقَيْناها العَـكِيسَ تمذَّحت * خواصرُها وآزداد رشْحًا وريدها

أسمـاء الطعام

٥

الوليمة : طعام العرس . والنَّقيعة : طعام الإملاك . والإعذار : طعام الختان والخُرس : طعام الولادة . والعقيقة : طعام سابع الولادة . والنقيعة : طعام يصنع عند قدوم الرجل من سفره ، ويقال : أنقعت إنقاعا . والوكيرة : طعام يُصنع عند البناء يبنيه الرجل فى داره . والمـأدبة : كل طعام يصنع لدعوة ، يقال : آدبت أودب إيدابا ، وأدَبْت أدبا ؛ قال طرفة : ١٠

نحن فى المَشْتاة نَدعو الجفَلى * لا ترى الآدِبَ فينا يَنتقِرْ

الآدِب : صاحب المـأدبة . والجفلى : دعوة العامة . والنَّقَرى : دعوة الخاصة .

والسُّلفة : طعام يُعلل به قبل الغداء .

والقَفِىّ : الطعام الذى يكرَّم به الرجل ، يقال منه : قفوته فأنا أقفوه قفوا ؛ والقَفاوة : ما يُرفع من المرق للإنسان ، قال الشاعر : ١٥

ونُقْفِى وليد الحىّ إن كان جائعا * ونُحْسِبُه إن كان ليس بجائع

صفة الطعام وفضـــله

للنبى صلى الله عليه وسلم - قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أكرموا الخبز ، فإن الله سخر له السموات والأرض ، وكلوا سَقَط المـائدة » .

للحسن البصرى وقال الحسن البصرى : ليس فى الطعام سرَفٌ . وتلا قوله تعالى : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ جُناحٌ فيما طَعِموا ﴾ . ٢٠

للأصمعى وقال الأصمعى : الكبادات أربع : العصيدة ، والهريسة ، والحيس ، والتَّمِيذ .

لأبي حاتم

أبو حاتم : والسويق طعام المسافر ، والعجلان ، والمريض ، والنُّفساء ، وطعام من لا يشتهي الطعام .

لأبي صوارة

أبو خالد عن الأصمعي قال : قال أبو صوارة : الأرز الأبيض بالسمن المسلي والسكر الطَّبرْزذ ، ليس من طعام أهل الدنيا !

لربيعة بن أبي عبد الرحمن

٥ وقال مالك بن أنس عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن : أكل الخبيص يزيد في الدماغ .

الحسن وفرقد

وقال الحسن لفرقد : بلغني أنك لا تأكل الفالوذج . قال : يا أبا سعد ، أخاف أن لا أؤدي شكره ! قال : يا لُكَع ! وهل تؤدي شكر الماء البارد في الصيف والحار في الشتاء ؟ أما سمعت قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا

١٠ من طيبات ما رزقْناكم ﴾ .

الحسن

وسمع الحسن رجلا يعيب الفالوذج ، فقال : لُباب البُرّ بلعاب النحل بخالص السمن ؛ ما عاب هذا مسلم !

لرجل في مجلس الأحنف

وقال رجل في مجلس الأحنف : ما شيء أبغض إليّ من الزُّبد والكمأة . فقال الأحنف : رُبّ مَلوم لا ذنب له .

لشريح

١٥ وقيل لشريح القاضي : أيهما أطيب ، اللوزينق أو الجوزينق ؟ فقال : لا أحكم على غائب .

ولد لعبد الرحمن بن أبي ليلى مولود فصنع الأخبصة ، ودعا الناس ، وفيهم مُساور الورّاق ، فلما أكلوا قال مساور الورّاق :

مَن لم يُدسِّمْ بالثريد سِبالَنا * بعد الخبيص فلا هَناهُ الفارسُ

ابن مصقلة

٢٠ الرقاشي قال : أخبرنا أبو هفان أن رقبة بن مصقلة طرح نفسه بقرب حماد الراوية في المسجد ، فقال له حماد : مالك ؟ قال صريع فالوذج . قال له حماد : عند من ؟ فطالما كنت صريع سمك مملوح خبيث ! قال : عند من حكم في الفُرقة وفصل في الجماعة . قال : وما أكلت عنده ؟ قال : أتانا بالأبيض المنضود ، والملوّز

المعقود ، والذليل الرعديد ، والماضى المودود .

طعام عبدالأعلى

محمد بن سلام الجمحى قال : قال بلال بن أبى بردة وهو أمير على البصرة للجارود بن أبى سَبُرة الهذلى : أتحضر طعام هذا الشيخ ؟ يعنى عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر ؟ قال : نعم . قال : فصفه لى . قال : نأتيه فنجده مُتصبّحا — يعنى نائما — فنجلس حتى يستيقظ ، فيأذن لنا فنساقطه الحديث ؛ فإن حدثْناه أحسن الاستماع ، وإن حدثنا أحسن الحديث ؛ ثم يدعو بمائدته ، وقد تقدم إلى جواريه وأمهات أولاده أن لا تلطفه واحدة منهن إلا إذا وُضعت مائدته ؛ ثم يقبل خبازه فيمثل بين يديه ، فيقول : ما عندك اليوم ؟ فيقول : عندى كذا ، عندى كذا ... فيعدد كل ما عنده ، ويصفه ؛ يريد بذلك أن يحبس كلُّ رجل نفسه وشهوته على ما يريد من الطعام ، وتقبل الألطاف من ههنا وههنا ، وتوضع على المائدة ؛ ثم يؤتى بثريدة شهباء من الفلفل ، رقطاء من الحمص ، ذات حِفافين من العُراق ؛ فنأكل معه ، حتى إذا ظن أن القوم قد كادوا يمتلئون ، جثا على ركبتيه ثم استأنف الأكل معهم . فقال [ابن] أبى بردة : لله درُّ عبد الأعلى ، ما أربط جأشه على وقع الأضراس .

وحضر أعرابىٌّ طعام عبد الأعلى ، فلما وقف الخباز بين يديه ووصف ما عنده قال : أصلحك الله ، أتأمر غلامك يسقينى ماء ، فقد شبعت من وصف هذا الخباز !

وقال له عبد الأعلى يوما : ما تقول يا أعرابى ، لو أمرت الطباخ فعمل لون كذا ، ولون كذا ؟ قال : أصلحك الله ، لو كانت هذه الصفة فى القرآن لكانت موضع سجود .

الفرزدق وابن الحصين

أبو عبيدة قال : مر الفرزدق بيحيى [بن الحصين] بن المنذر الرقاشى فقال له : هل لك أبا فراس فى جدْى رضيع ، ونبيذ من شراب الزبيب ؟ قال : وهل يأبى هذا إلا ابن المراغة .

الأحوص وجرير

وقال الأحوص لجرير لما قدم المدينة : ماذا ترى أن نُعِدّ لك ؟ قال : شواء وطلاء وغناء . قال : قد أُعِدّ لك .

لمساور

وقال مساور الورّاق فى وصف الطعام :

اْسمع بنَعْتى للملوك ولاتكن * فيما سمعْتَ كَميّتِ الأحياء
٥ إنّ الملوك لهم طعامٌ طيّبٌ * يستأثرون به على الفقراء
إنى نَعَتُّ لذيذ عيشى كلّــه * والعيْش ليس لذيذُهُ بسواء
ثم اختصَصْت من اللذيذ وعيْشه * صفة الطعامِ لشهوةِ الحلواء
فبدأتُ بالعسلِ الشديد بياضه * شهْدٌ تَباكرُه بمــاءِ سمـاء
إنى سمعت لقوْل ربك فيهما * جَمَعْتَ بين مُباركٍ وشفاء
١٠ أيامَ أنت هناك بين عِصابةٍ * حضروا ليومِ تنعّمٍ أكفاء
لاينطِقون إذا جلسْت إليهم * فيما يكون بلفظةٍ عَوراء
مُتنَسّمين رياح كلّ هبوبة * بين النخيل بغــرْفة فيْحاء
فقعَدْتُ ثم دعوتُ لى بمبَذْرقٍ * مُتشمّر يسعى بغـير رِداء
قد لَفّ كُمّيْه على عضلاتِه * قلِصِ القميصِ مُشمّرٍ سَعّاء
١٥ فأتى بخُبْزٍ كالملاء مُنقّط * فبناه فوق أعاونِ الشّيزاء
حتى مَلاها ثم تَرْجَم عندها * بالفارســيّة داعيا بوَحاء
فإذا القِصاعُ من الخَلَنْج لديهم * تبدو جوانبُها مع الوُصَفاء
اْرفع وضعْ وهنا وهاك وهٰهنا * قَصْف الملوك ونَهمة القرّاء
يُؤْتوْن ثَمّ بِلَونٍ كلّ طريفةٍ * قد خالفَتْه موائد الخلفــاء
٢٠ من كلّ فَرْنِىّ[1] وجَدْىٍ راضع * ودجاجــةٍ مَرْبُوبة عَشْواء
ومَصُوصٍ دُرّاجٍ كثير طيّب * ونواهِض يؤتى بهن شِواء

---

(١) فى بعض الأصول : « من كل ذى قرن » .

وثَريدةٍ ملبومة قد سُقِّفتْ * من فوقها بأطايب الأعضاء
وتزيّنت بتوابل معـــلومة * وخُبيِّصات كالجُمان نقاء
هذا الثَّريد وما سواه تعلُّلٌ * ذهب الثريد بِنَهْمتى وهوائى
ولقدكلِفتُ بنعْتِ جَدْى راضع * قد صُنْتُه شهرين بين وِعاء
قد نال من لبن كثير طيّب * حتى تفتّق من رضاع الشّاء ٥
من كلّ أحمرَ لا يَقَرُّ إذاآرتوى * من بين رقص دائم ونُزاء
مُتمكِّنِ الجنبيْن صافٍ لونه * عَبْلِ القوائم من غذاء رَخاء
فإذا مرِضت فداوِنى بلحومها * إنى وجدت لحومهُن دوائى
ودَع الطبيب ولا تثق بدوائه * ما حالفتْك رواضِع الأجداء
إنّ الطبيبَ إذا حَباك بشربة * تركَتْك بين مَخافة ورجاء ١٠
وإذا تنطّع فى دواءِ صديقِهِ * لم يعْـــدُ ما فى جُونةِ الرَّقّاء
نَعَتَ الطبيبُ هَليلَجاً وبليلجاً * ونعتُّ غيرهما من الأدْواء
رُطب المُشان مُجزّعاً يُوتى بها * والرازِقىَّ فـاهما بســـواء
وبَنانياً زُرْقاً كأنّ بُطونَهـا * قطَعُ الثُّلوج نقيّـة الأمعـاء
ليست بآكلةِ الحشيش ولاالتى * يبتاعُها الخنّـاق فى الظلْماء ١٥

باب آداب الأكل والطعام

النبي صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم : «الأكل فى السوق دَناءة» .

وقال صلى الله عليه وسلم : «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ويشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله» .

وقال صلى الله عليه وسلم : «سَمُّوا إذا أكلتمَ ، واَحمَدوا إذا فرَغتم» . وكان ٢٠ يلعق أصابعه بعد الطعام .

وقال صلى الله عليه وسلم : «الوضوء قبل الطعام ينفى الفقر ، وبعدالطعام ينفى اللمم» .

ومن الأدب في الوضوء أن يبدأ صاحبُ البيت فيغسلَ يده قبل الطعام ويتقدّم أصحابَه إلى الطعام .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « طعام الاثنين كافي الثلاثة ، وطعام الثلاثة كافي الأربعة » .

٥ وقال صلى الله عليه وسلم : « أملكوا العجين فإنه أحد الرَّيعين » .

فرقد — وكان فرقد يقول لأصحابه : إذا أكلتم فشدُّا الأُزُرَ على أوساطكم ، وصغّروا اللقم ، وشدّدُوا المضغ ، ومصوا الماء [مَصًّا] ، ولا يَحل أحدُكم إزارَه فيتسع معاه ، وليأكل كلُّ واحد من بين يديه .

لابن هبيرة — وقالوا : كان ابن هبيرة يباكر الغداء ؛ فسئل عن ذلك ، فقال : إن فيه ثلاثَ ١٠ خصال : أما الواحدة فإنه ينشف المِرَّة ، والثانية أنه يطيِّب النكهة والثالثة : أنه يعين على المروءة . قيل : وكيف يعين على المروءة ؟ قال : إذا خرجت من بيتي وقد تغديت لم أتطلع إلى طعامِ أحدٍ من الناس .

البطنة وقولهم فيها

لبعضهم — قالوا : البِطنة تُذهب الفطنة .

١٥ لمسلمة — وقال مسلمة بن عبد الملك لملك الروم : ما تعُدُّون الأحمق فيكم ؟ قال الذي يملأ بطنه من كل ما وجد .

معاوية وأبو بكرة — وحضر أبو بكرة سفرةَ معاوية ، ومعه ولده عبد الرحمن ، فرآه يلتقم لَقما شديداً ؛ فلما كان بالعشي راح إليه أبو بكرة ، فقال له معاوية : ما فعل ابنك التلقامة ؟ قال : اعتل ، قال : مثله لا يعدم العلة .

٢٠ أبو الأسود ورجل شره — ورأى أبو الأسود الدؤلي رجلا يلقم لقما منكرا ، فقال [له] : كيف اسمك ؟ قال : لقمان . قال : صدق الذي سماك !

أعرابي وسمين — ورأى أعرابيٌّ رجلا سمينا ، فقال له : أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك !

وقعد أعرابي على مائدة المغيرة ، فجعل ينهش ويتعرّق ، فقال المغيرة : يا غلام

ناوله سكينا ، قال الأعرابى : كل امرئ سِكينه فى رأسه .

لأعرابى

قال أعرابىٌّ : كنت أشتهى ثريدة دكناء من الفلفل ، رقطاء من الحمص ، ذات حِفافين [من اللحم ، لها جناحان] من العُراق ؛ فأضربُ فيها كما يضرب ولىُّ السوء فى مال اليتيم !

٥ وقال أعرابى :

ألا ليتَ لى خُبزاً تَسرْبَلَ رائباً * وخَيْلاً من البَرْنِىِّ فُرسانُها الزُّبْدُ

فأطلُبَ فيها بينَهُنَّ شَهـــادةً * بموتٍ كريمٍ لا يُعدُّ له لَحْدُ

واصطحب شيخ وحدثٌ من الأعراب فى سفر ، وكان لهما قرص فى كل يوم وكان الشيخ مخلع الأضراس ، وكان الحدَثُ يبطش بالقرص ويقعد ١٠ يشكو العشق ، والشيخ يتضوّرُ جوعا ؛ وكان الحدَث يسمى جعفرا ، فقال الشيخ فيه :

لقد رابَنى من جعفرٍ أنّ جَعْفَراً * يَطيشُ بقُرْصِى ثمّ يَبكى على جُمْلِ

فقلْتُ له لو مَسّكَ الحُبُّ لم تبِتْ * بَطيناً ونسّاكَ الهوى شِدّةَ الأكلِ

للأصمعى

الأصمعى قال : تقول العرب فى الرجل الأكول : إنه بَرَمٌ قَرُون .

١٥ البرم : الذى يأكل مع الجماعة ولا يجعل شيئا . والقَرُون : الذى يأكل تمرتين تمرتين ويأكل أصحابه تمرة تمرة . وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن القِرَان .

عبد الله بن الزبير

وكان عبد الله بن الزبير : إذا قدم التمر إلى أصحابه [قال] : قال عبد الله بن عمر : إياكم والقران ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عنه .

لميسرة

٢٠ وقيل لميسرة الأكول : كم تأكل كلَّ يوم ؟ قال : من مالى أو من مال غيرى ؟ قيل له : من مالك . قال : مكُّوك . قيل : فمن مال غيرك ؟ قال : اخبزوا واطرحوا !

لعراقى فى قينة

وقال رجل من العراق فى قينة حفص الكاتب :

قَيْنَةُ حفصٍ ويلَها * فيها خِصالٌ عشَرَهْ

أوّلُها أنّ لهـــا * وجْها قبيحَ المنْظَرَهْ

ودارُها فى وهْـدَةٍ * أوْسَعُ منها القنْطرهْ

تأكلُ فى قعدَتِهـا * ثوْراً وتَخرى بقرَهْ

قال تأبّط شرًا : ما أحببت شيئا قطُّ حبى ثلاثة : أكل اللحم ، وركوب اللحم، ٥ وحكّ اللحم باللحم

هلال بن الأسعر — وقال أبو اليقظان : كان هلال بن الأسعر التيمى أكولا ، فيزعمون أنه أكل فصيلا وأكلت امرأته فصيلا ؛ فلما أراد أن يجامعها لم يصل إليها ، فقالت له : وكيف تصل إلىّ وبينى وبينك بعيران !

الواثق — وكان الواثق ، واسمه هارون بن محمد بن هارون ، أكولا ، وكان مفتونا بحب ١٠ الباذنجان ، وكان يأكل فى أكلة واحدة أربعين باذنجانة ؛ فأوصى إليه أبوه ، وكان ولىّ عهده : ويلك ! متى رأيتَ خليفة أعمى ؟ فقال للرسول : أعْلِم أمير المؤمنين أنى تصدقت بعينىّ جميعا على الباذنجان !

نهم سليمان بن عبد الملك — وكان سليمان بن عبد الملك من الأكلة ، حدث عنه العتبى عن أبيه عن الشمرد وكيل عمرو بن العاص قال : لما قدم سليمان الطائف ، دخل هو وعمر ١٥ ابن عبد العزيز وأيوبُ ابنه بستانا لعمرو بن العاص ، فجال فيه ساعة ، ثم قال : ناهيكم بمـالكم هذا مالا ! ثم ألقى صدره على غُصن ، وقال : ويلك ياشمَردل ! ماعندك شىء تطعِمُنى ؟ قال : بلى ، إن عندى جديا كانت تغدو عليه بقرة وتروح أخرى . قال : عجل به . فأتيتُه به كأنه عُكة سمن ، فأكله وما دعا عُمَرَ ولا ابنَه ، حتى إذا بقى الفخذ قال : هلم أبا حفص . قال : إنى صائم . فأتى عليه ، ثم قال : ٢٠ ويلك يا شمردل ! ماعندك شىء تطعمنى ؟ قال : بلى والله ، عندى خمس دجاجات هنديات كأنهن رِئلانُ النعام . قال : فأتيته بهن ، فكان يأخذ برجلى الدجاجة فيلقى عظامها نقية ، حتى أتى عليهن ؛ ثم قال : يا شمردل ، ما عندك شىء تطعمنى ؟ قلت : بلى والله ، إن عندى حريرة كأنها قراضة الذهب . فقال : عجل بها . فأتيته

بِعُسٍّ يشيب فيه الرأس ، فجعل يلاقيها بيده ويشرب ؛ فلما فرغ تجشأ ، فكأنما صاح فى جُب ، ثم قال : يا غلام ، أفرغت من غدائى ؟ قال : نعم قال : وماهو ؟ قال : ثمانون قدرا . قال : ائتنى بها قِدرا قدرا . قال : فأكثرُ ما أكل من كل قدر ثلاثُ لقم ، وأقلُّ ما أكل لقمة ؛ ثم مسح يده واستلقى على فراشه ، ثم أذن للناس ووضعت المائدة وقعد فأكل مع الناس ، فما أنكرتُ من أكله شيئا . ٥

نهم مزرد

وقال الأصمعى : كنت يوما عند هارون الرشيد ، فقُدمت إليه فالوذجة ، فقال : يا أصمعى ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين . قال : حدثنى بحديث مُزَرِّد أخى الشماخ . قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، إن مزردا كان رجلا جَشِعا نَهِما ، وكانت أمه تؤثر عيالها بالزاد عليه ؛ وكان ذلك مما يَضُرُّ به ويُحفِظه ؛ فذهبت يوما فى بعض حقوق أهلها ، وخلفت مزردا فى بيتها ورحلها ، فدخل الخيمة ، فأخذ صاعين ١٠ من دقيق ، وصاعا من عجوة ، وصاعا من سمن ؛ فضرب بعضه ببعض فأكله ، ثم أنشأ يقول :

ولما مضتْ أُمّى تزورُ عِيالها * أغرتُ على العِكْمِ الذى كان يُمنع

خلطتُ بصاعَىْ حِنْطةٍ صاعَ عجوةٍ * إلى صاعِ سمنٍ فوقهُ يتريَّع

ودَبَّلتُ أمثالَ الأثافى كأنها * رُءوسُ رِخالٍ[1] قُطِّعتْ لا تجمَّع ١٥

وقلتُ لبطنى : أبشِرِ اليوم إنه * حِمى أُمِّنا مما تُفيدُ وتَجْمَع

فإن كنتَ مصفوراً فهذا دواؤُه * وإن كنتَ غرْثانا فذا يومَ تشبعُ

قال : فاستضحك هارون حتى أمسك بطنه واستلقى على ظهره ، ثم قعد فمدّ يده وقال : خذ ، فذا يوم تشبع يا أصمعى !

حميد الأرقط

وقال حميد الأرقط ــ وهو الذى هجا الأضياف ــ يصف أكلَ الضيف : ٢٠

ما بينَ لُقْمتِهِ الأولى إذا انحدَرتْ * وبين أُخرى تليها قِيدُ أُظْفور

(١) فى بعض الأصول : «رءوس نقاد» .

وقال أيضا :

تجهّز كفّاه ويحدر حلقه * إلى الزّوْر ما ضمّت عليه الأنامل
أتانا وما ساواه سَحْبانُ وائلٍ * بياناً وعِلما بالذى هو قائل
فما زال عنه اللّقمُ حتى كأنه * من العِيّ لمّا أن تكلّم باقل

٥ وقال :

لا أُبغض الضيفَ ما بى جُلّ مأكله * إلا تنفُّجَه حولى إذا قعدا
ما زال ينفخُ جنبيه وحبْوتَه * حتى أقول لعلّ الضيفَ قد ولدا

وقال :

لا مرحباً بوجوه القوم إذ نزلوا * دُسْمَ العمائم تحكيها الشياطينُ
ألقيْتُ جُلّتنا شطرين بينهمُ * كأن أظفارَهم فيها السكاكين
١٠ فأصبحوا والنّوى عالى مُعرّسهمْ * وليس كلّ النوَى تُلقى المساكين

موت سليمان بن عبد الملك

أبو الحسن المدائنى قال : أقبل نصرانى إلى سليمان بن عبد الملك ، وهو بدابق ، بسلّين ، أحدهما مملوء بيضا ، والآخر مملوء تينا ، فقال : أقشروا . فجعل يأكل بيضة وتينة حتى فرغ من السلين ؛ ثم أتوْه بقصعة مملوءة مُخّا بسكر ؛ ١٥ فأكله ، فأتخم ومرض فمات .

عيب الحمية

والأكَلة كلهم يعيبون الحِمية ، ويقولون ، الحمية إحدى العلتين .

وقالوا : من احتمى فهو على يقين من المكروه وهو فى شك من العافية !

وقالوا : الحمية للصحيح ضارّة وللعليل نافعة .

الحمية وقولهم فيها

لبقراط

٢٠ قيل لبقراط : مالك تُقل الأكلَ جدا ؟

قال : إنى إنما آكل لأحيا ، وغيرى يحيا ليأكل !

للأطباء

وأجمعت الأطباء على أن رأس الداء كلّه إدخال الطعام على الطعام .

وقالوا : احذروا إدخال اللحم على اللحم ؛ فإنه ربما قتل السباع فى القفر .
وأكثر العلل كلها إنما يتولد من فضول الطعام .

النبى صلى الله عليه وسلم

والحمية مأخوذة عن النبى صلى الله عليه وسلم : رأى صهيباً يأكل تمراً وبه رمد ، فقال «أتأكل تمراً وأنت أرمد ؟» .

٥ ودخل علىّ على رضى الله عنه وهو عليل ، وبيده عنقود عنب ، فنزعه من يده .

وقال عليه الصلاة والسلام «لا تُكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب ، فإن الله يطعمهم ويسقيهم» .

لابن كلدة

وقيل للحارث بن كلدة طبيب العرب : ما أفضل الدواء ؟

١٠ قال : الأزْم .

يريد قلة الأكل ، ومنه قيل للحمية : الأزمة ، وللكثير أزمات .

لبعضهم

وقيل لآخر : ما أفضل الدواء ؟

قال : أن ترفع يدك عن الطعام وأنت تشتهيه .

لابن جندب

أبو الأشهب عن أبى الحسن قال : قيل لسمُرة بن جندب : إن ابنك[1] إذا
١٥ أكل طعاما كظَّه حتى كاد أن يقتله .

قال : لو مات ما صليتُ عليه !

عبد الملك ومدعو إلى غدائه

ودعا عبد الملك بن مروان رجلا إلى الغداء ، فقال : ما فىَّ فضلٌ يا أمير المؤمنين .

قال : لا خير فى الرجل يأكل حتى لا يكون فيه فضل !

٢٠ فقال : يا أمير المؤمنين ، عندى مستزاد ، ولكن أكره أن أصير إلى الحال التى استقبحها أمير المؤمنين .

---

(١) فى بعض الأصول : «قيل للمنذر بن جندب» وفى بعضها : «قيل لسمرة ... إن أباك» .

الأحنف

وقال الأحنف بن قيس : جنِّبوا مجالسنا ذكرَ النساء والطعام ، فإنى أُبغض الرجل يكون وصّافا لبطنه وفرْجه .

لبعض الحكماء

وقيل لبعض الحكماء : أى الطعام أطيب ؟

قال : الجوع ؛ ما ألقيتَ إليه من شىء قَبِله .

شامى ومدينى

٥ وقال رجل من أهل الشام لرجل من أهل المدينة : عجبتُ منكم أن فقهاءكم أظرف من فقهائنا ، ومجانينكم أظرف من مجانيننا !

قال : أو تدرى من أين ذلك ؟

قال : لا أدرى .

قال : من الجوع ، ألا ترى أن العود إنما صفا صوته لمّا خلا جوفه !

الثورى فى ابنه

١٠ وقال الجاحظ : كان أبو عثمان الثورى يُجلس ابنه معه ويقول له : إياك يا بنىّ ونهم الصبيان ، وأخلاق النوائح ، ونهش الأعراب ؛ وكُلْ مما يَليك ، واعلم أنه إذا كان فى الطعام لقمةٌ كريمة ، أو مضغةٌ شهيّة ، أو شىء مستطرف ، فإنما ذلك للشيخ المعظَّم ، أو للصبى المدلَّل ، ولستَ بواحد منهما ، وقد قالوا : مُدمن اللحم كمدمن الخمر .

١٥ أى بنىّ ، عوّد نفسك الأثرة ، ومجاهدة الهوى والشهوة ، ولا تنهش نهش السباع ، ولا تخضم خضم البراذين ، ولا تُدمن الأكل إدمان النعاج ، ولا تلقَّم لقم الجِمال ؛ فإن الله جعلك إنساناً فلا تجعل نفسك بهيمة ، واحذر سرعة الكِظّة ؛ وسَرَف البِطنة ؛ فقد قال بعض الحكماء : إذا كنت نَهِما فعُدَّ نفسك من الزَّمْنى ؛ واعلم أن الشِّبَع داعية البَشَم ، والبشم داعية السقم ، والسقم داعية

٢٠ الموت ؛ ومن مات هذه المِيتة فقد مات مِيتة لئيمة ، لأنه قاتل نفسه ، وقاتل نفسه ألأم من قاتل غيره .

أى بنىّ ، والله ما أدّى حقّ الركوع والسجود ذو كِظة ، ولا خشع لله ذو بِطنة ، والصوم مَصَحّة ، والوَجبات عيش الصالحين .

أى بنىّ ، لأمرٍ ما طالت أعمارُ الهند ، وصحتْ أبدان العرب ؛ ولله درّ الحارث بن كلدة إذ زعم أن الدواء هو الأزْم ، فالداء كله من فضول الطعام ؛ فكيف لا ترغب فى شىء يجمع لك صحة البدن ، وذكاء الذهن ، وصلاح الدين والدنيا ، والقرب من عيش الملائكة !

٥ أى بنى ، لِمَ صار الضب أطول عمرا ؟ إلا لأنه يتبلّغ بالنسيم ؛ ولِمَ قال الرسول عليه الصلاة والسلام : إن الصوم وِجاء ؟ إلا لأنه جعله حجابا دون الشهوات ؛ فافهم تأديب الله عز وجل ، وتأديب رسوله عليه الصلاة والسلام .

أى بنى ، قد بلغتُ تسعين عاما ما نفضتْ لى سنّ ، ولا انتشر لى عصب ، ولا عرفت ذَنين أنف ، ولا سيلان عين ، ولا سَلس بول ؛ ما لذلك علة ١٠ إلا التخفيف من الزاد ؛ فإن كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة ، وإن كنت تحب الموت فلا أبعد الله غيرك !

سياسة الأبدان بما يصلحها

الحجاج وطبيبه

قال الحجاج بن يوسف للباذون طبيبه : صف لى صفة آخذ بها فى نفسى ولا أعدوها .

١٥ قال له : لا تتزوج من النساء إلا شابة ، ولا تأكل من اللحم إلا فتيًّا ، ولا تأكله حتى يُنعِمَ طبخه ، ولا تشرب دواء إلا من علة ، ولا تأكل من الفاكهة إلا نضيجَها ، ولا تأكل طعاما إلا أجدْت مضغه ، وكلْ ما أحببت من الطعام واشرب عليه ، فإذا شربت فلا تأكل ولا تحبس الغائط ولا البول ، وإذا أكلت بالنهار فنَم ، وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة .

٢٠ وسُئل يهود خيبر : بم صَحَحتم على وباء خيبر ؟

قالوا : بأكل الثوم ، وشرب الخمر ، وسُكنى اليفاع ، وتجنّب بطون الأودية والخروج من خيبر عند طلوع النجم وعند سقوطه .

وقال قيصر لقسّ بن ساعدة : صف لى مقدار الأطعمة .

فقال : الإمساك عن غاية الإكثار ، والبُقْيا على البدن عند الشهوة . قال : فما أفضل الحكمة ؟ قال : معرفة الإنسان قدره . قال : فما أفضل العقل ؟ قال : وقوف الإنسان عند علمه .

عبد الملك وأبو الزعيزعة

وسأل عبد الملك بن مروان أبا المفوز[1] : هل أتخمتَ قط ؟ قال : لا . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنا إذا طبخنا أنضجنا ، وإذا مضغنا دققنا ، ولا نَكِظّ المعدة ولا نُخليها .

لبزرجمهر

وقيل لبزرجمهر : أى وقت فيه الطعام أصلح ؟ قال : أما لمَنْ قدر فإذا جاع ، و [أما] لمن لم يقدر فإذا وَجد !

وقال : أربع تهدم العمر وربما قتلن : الحمّام على البِطنة . والمجامعة على الامتلاء ، وأكلُ القديد الجافّ ، وشربُ الماء البارد على الريق .

لإبرهيم النظام

وقال إبراهيم النظام : ثلاثة أشياء تُفْسد العقل : طولُ النظر فى المرآة ، والاستغراق فى الضحك ، ودوام النظر فى البحر .

هارون والأطباء

الأصمعى قال : جمع هارون من الأطباء أربعة : عراقيا ، وروميا ، وهنديا ، ويونانيا ؛ فقال : ليصفْ لى كلُّ واحد منكم الدواء الذى لا داء معه . فقال العراقى : الدواء الذى لا داء معه حبُّ الرشاد الأبيض . وقال الهندى : الهليلج الأسود . وقال الرومى : الماء الحار ، وقال اليونانى وكان أطبّهم : حب الرشاد الأبيض يولد الرطوبة ، والماء الحار يرخى المعدة ، والهليلج الأسود يُرِقّ المعدة ؛ لكن الدواء الذى لا داء معه : أن تقعد على الطعام وأنت تشتهيه .

تدبير الصحة

ثم نذكر بعد هذا من وصف الطعام وحالاته ، ومايدخل على الناس من

(١) كذا بالأصل ، وفى عيون الأخبار : أبا الزعيرة ، وروى ناشره عن الطبرى . أبا الزعيزعة ، وعن ابن الأثير : أبا الزعيرية ، فلا ندرى أى ذلك الصواب !

ضروب آفاته ، بابا فى تدبير الصحة التى لا تقوم الأبدان إلا به ، ولا تتمنّى النفوسُ إلا عليه . وقد قال الشافعى : العلم علمان : علم الأديان ، وعلم الأبدان ؛ ولم نجد بدًّا — إذ كانت جملة هذه المطاعم التى بهـا نمو الغراسة ، وعليها مدار الأغذية تضرُّ فى حالة وتنفع فى أخرى — من ذكر ما ينفع منها ومقدارِ نفعه ، وما يضرُّ منها ومبلغ ضرِّه ؛ وأن نحكم على كل ضرب منها بالأغلب عليه من طبائعه . ٥

وقلما نجد شيئا ينفع فى حالة إلا وهو ضار فى الأخرى ؛ ألا ترى أن الغيث الذى جعله الله رحمة لخلقه ، وحياةً لأرضه ، قد يكون منـه السيول المهلكة ، والخراب المخيف ؟ وأن الرياح التى سخرها الله مبشراتٍ بين يدى رحمته ، قد أهلك بها قوما وانتقم من قوم ؟ وفى هذا المعنى قال حبيب الطائى : ١٠

ولم تَر نفعًا عند مَن ليس ضائرًا * ولم تَر ضرًّا عند مَن ليس يَنفعُ

قال خالد بن صفوان [يومًا] لخادمه : أطعِمنا جُبْنا ، فإنه يشهِّى الطعام ، ويَهيج المعدة ، وهو حمض العرب . قال : ما عنـدنا منه شىء . فقال : لا بأس عليك ، فإنه يقدح الأسنان ، ويشد البطن .

ولمـا كانت أبدان الناس دائبة التحلل ، لمـا فيها من الحرارة الغريزية من داخل ، وحرارة الهواء المحيط بهـا من خارج ـ احتاجت إلى أن يُخلَف عليها ما تحلل ، واضطرت لذلك إلى الأطعمة والأشربة ، وجُعلت فيها قوةُ الشهوة ليُعلَم بها وقتُ الحاجة منها إليها ، ومقدارُ ما يُتناول منها ، والنوع الذى يُحتاج إليه ؛ ولأنه لا يَخلف الشىء الذى يتحلل ولا يقوم مقامه إلا مثلُه ، وليس تستطيع القوةُ التى تُحيل الطعامَ والشراب فى بدن الإنسان أن تحيل إلا ما شاكل البدنَ وقاربه ؛ فإذا كان هـذا هكذا فلا بد لمن أراد حفظ الصحة أن يقصد لوجهين : أحدهما أن يُدخل على البدن الأغذية الموافقة لمـا يتحلل منه ، والأخرى أن ينفى عنه ما يتولد فيه من فضول الأغذية . ١٥ ٢٠

ما يصلح لكل طبيعة من الأغذية

وينبغى لك أن تعرف اختلاف طبائع الأبدان وحالاتها ، لتعرف بذلك موافقة كلّ نوع من الأطعمة لكل صنف من الناس ؛ وذلك أن الأغذية مختلفة ؛ منها معتدلة ، كالتى يتولد منها الدم الخالص النقىّ ؛ ومنها غير معتدلة ، كالتى يتولد منها البلغم والمِرَّة الصفراء والسوداء والرياح الغليظة ؛ ومنها لطيفة ومنها غليظة ؛ ومنها ما يتولد عنه كَيموس لزج وكيموس غير لزج ؛ ومنها ماله خاصة منفعة أو مضرة فى بعض الأعضاء دون بعض .

وكذلك الأبدان أيضاً ، منها معتدل مستولٍ عليه فى طبيعته الدمُ الخالص النقى ، ومنها غير معتدل يغلب عليه البلغم أو إحدى المِرّتين ، ومنها متخلخل سريع التحلل ، ومنها مستحصف عسر التحلل ، ومنها ما يكون فى بعض أعضائها دون بعض ؛ فقد يجب متى كان المستولى على البدن الدم النقى أن تكون أغذيته قصداً فى قَدْرها ، معتدلة فى طبائعها ؛ ومتى كان الغالب عليه البلغم ، فيجب أن تكون مُسخنة ، أو يغتذى بما يزيد فى الحرارة ويقمع فى الرطوبة ؛ ومتى كان الغالب عليه المِرّةُ السوداء فينبغى له أن يغتذى بالأغذية الحارة الرطبة ؛ ومتى كان الغالب عليه المرة الصفراء فيغتذى بالأغذية الباردة الرطبة ، ومتى كان بدنه مستحصفاً ، عسر التحلل فينبغى أن يغتذى بأغذية يسيرة لطيفة جافة ، ومتى كان متخلخلا فينبغى له أن يغتذى بأغذية لزجة ، لكثرة ما يتحلل من البدن .

فهذا التدبير ينبغى أن يُلتزم ، مالم يكن فى بعض أعضاء البدن ألم ، فينبغى أن يُستعمل النظرُ فى الأغذية الموافقة للعضو الألِم ؛ لأنا ربما اضطررنا إلى استعمال ما يوافق العضو الألم ، وإن كان مخالفا لسائر البدن ؛ كما أنه لو كانت الكبد باردة ضيقة المجارى ، احتجنا إلى استعمال الأغذية اللطيفة وتجنُّب الأغذية الغليظة ، وإن كان سائرُ البدن غير محتاج إليها لضَعف أو نحافة ؛ لئلا تُحدث الغليظة فى الكبد سددا ؛ وربما كانت الكبد حارة ، فنحذر الأغذية الحلوة وإن احتاج إليها

[البدن] لسرعة استحالتها إلى المرة الصفراء ، وربما كانت المعدة ضعيفة ، فتحتاج إلى مايقوّيها من الأغذية ؛ وربما كان يُولد الطعام فيها بلغما ، فتحتاج إلى مايجلوه ويقطعه ؛ وربما كان يتولد فيها المرة الصفراء سريعا ، فتحتاج إلى مايقمع الصفراء وإلى تجنُّب الأشياء المولدة لها ؛ وربما كان الطعام يبق على رأس المعدة طافيا ، فيستعمل الأغذية الغليظة الراسبة ، ليثقل بثقلها إلى أسفل المعدة ؛ وتأمره بحركة ٥ يسيرة بعد الطعام ، لينحط الطعام عن رأس المعدة . وربما كان فضل الطعام بطىء الانحدار عن المعدة والأمعاء ، فتحتاج إلى ما يحدره ويُلين البطن ؛ وربما كان رأس المعدة حارا قابلا للحار ، فيتجنب الأغذية الحارة وإن احتاج إليها سائر البدن .

الحركة والنوم مع الطعام ١٠

وينبغى ألا تقتصر على ما ذكرنا دون النظر فى مقدار الحركة قبل الطعام ، والنوم بعده ؛ فمتى كانت الحركة قبل الطعام كثيرة غذيناه بأغذية غليظة لزجة إلى اليبس بما هى بطيئة التحلل ، ولم نأمره بالحِمية لقلة الحاجة إليها ، ومتى لم تكن قبل الطعام حركة ، أو كانت يسيرة ، فينبغى أن لا يقتصر على الحمية بقلة الطعام ولطافته ، دون أن يستعين على تخفيف ما يتولد فى البدن من الفضول باستفراغ ١٥ الأدوية المسهلة ، وبالحمّام ، وبإخراج الدم ؛ ومتى كانت الحركة كافية استعملنا الأغذية المعتدلة فى كثرتها ، وقدر لطافتها وغلظها ؛ ومتى كان النوم بعد الطعام كثيرا احتجنا إلى استعمال أغذية كثيرة غزيرة بالغذاء ، لطول الليل وكثرة النوم ؛ ومتى كان النوم قليلا احتجنا إلى الطعام القليل الخفيف اللطيف ، كالذى يُغتذَى به فى الصَيف ، لقصر الليل وقلة النوم . ٢٠

تقدير الطعام وما يقدم منه وما يؤخر

ويجب فى الطعام أن يقدر فيه أربعة أنحاء :

أولها : ملاءمة الطعام لبدن المغتذِى به فى الوقت الذى يغتذى به فيه ،

كما ذكرنا أيضاً أنه متى كان الغالب على البدن الحرارة احتاج إلى الأغذية الباردة ، ومتى كان الغالب عليه البرد احتاج إلى الأغذية الحارة ، ومتى كان معتدلا احتاج إلى الأغذية المعتدله المشاكلة له .

والنحو الثانى : تقدير الطعام ، بأن يكون على مقدار قوة الهضم ؛ لأنه وإن كان فى نفسه محمودا ، وكان ملائمـا للبدن ، وكان أكثر من قدر احتمال قوة الهضم ، ولم يستحكم هضمه ، تولّد منه غذاء ردىء .

والنحو الثالث : تقديم ما ينبغى أن يقدم من الطعام ، وتأخير ما ينبغى أن يؤخر منه ؛ ومثل ذلك أنه ربمـا جمع الإنسان فى أكلة واحدة طعاما يُلين البطن وطعاما يحبسه ، فإن هو قدم الملين وأتبعه الآخر ، سهل انحدار الطعام منه : ومتى قدم الطعام الحابس وأتبعه الملين ، لم ينحدر وفسدا جميعا . وذلك أن الملين حال فيما بينه وبين نزول الطعـام الحابس ، فبقى فى المعـدة بعد انهضامه ، ففسـد به الطعام الآخر . ومتى كان الطعام الملين قبل الحـابس انحدر الملين بعد انهضامه ، وسهل الطريق لانحدار الحابس . وكذلك أيضا لو جمع أحد فى أكلة واحدة طعاما سريع الانهضام وآخر بطىء الانهضام ، فينبغى له أن يقدّم البطىء الانهضام ويُتبعه السريع الانهضام ، ليصير البطىء الانهضام فى قعر المعدة . لأن قعر المعدة أسخن ، وهو أقوى على الهضم ، لكثرة ما فيه من أجزاء اللحم المخالطة له ، وأعلى المعدة عصبي بارد لطيف ضعيف الهضم ، ولذلك إذا طفا الطعام على رأس المعدة لم ينهضم .

والنحو الرابع : أن يتناول الطعام الثانى بعد انحدار الأول وقد قدم قبله حركة كافية وأتبعه بنوم كاف ، استمراءه ؛ ومن أخـذ الطعام وقد بقى فى معـدته أو أمعائه بقية من الطعام الأول غير منهضمة ، فسد الطعام الثـانى ببقية الأول .

باب الحركة والنوم مع الطعام

ومن أكل الطعام بعد حركة كافية وأخذه على حاجة من البدن إليه ، وافى الطعام الحركة الغريزية قد اشتعلت . ومن تناول طعاما من غير حركة وأخذه مع غير حاجة من البدن إليه ، وافى الطعام الحركة الغريزية خامدة بمنزلة النار الكامنة فى الزناد . ومن أتبع الطعام بنوم ، بطنت الحرارة الغريزية فيه فاجتمعت فى باطن البدن فهضمت طعامه . ومن أتبع الطعام بحركة ، انحدر عن معدته غير منهضم وانبث فى العروق غير مستحكم ، فأحدث سدداً وعللا فى الكبد والكلى وسائر الأعضاء .

وربما كانت الأطعمة لضعف المعدة تطفو فيها وتصير فى أعلاها ، فلا تأمره بالنوم حتى ينحدر الطعام عن المعدة بعض الانحدار ويصير فى قعر المعدة . وربما أمرنا بحركة يسيرة كما ذكرنا آنفا ، لانحدار الطعام عن المعدة بعض الانحدار .

وإن أكثر الشرابَ منع الطعام من الانهضام ، لأنه يحول فيما بين جرم المعدة وبين الطعام ، وإذا لم تلق المعدة الطعام لم تحِله إلى مشاكلة البدن وموافقته ، فيبقى فيها غير منهضم . فيجب لذلك على من أخذ الطعام أن يتناول معه من الشراب ما يسكن به حرّ العطش ويصبر على قدر احتماله من العطش ، ويصبر حتى ينهضم ، ثم يتناول بعد ذلك من الشراب ما أحب ، فإنه بعد ذلك يعين على انحدار الطعام وترقيقه لتنفيذه فى المجارى الدّقاق .

ويجب أيضاً أن يكون أخذه للطعام فى وقت حركة الشهوة ؛ وذلك أنه إذا تحركت الشهوة ولم يبادر بأخذ الطعام ، اجتذبت المعدة من فضول البدن ما إذا صار فى المعدة أبطل الشهوة ، وأفسد الطعام إذا خالطه .

الأوقات التى يصلح فيها الطعام

أجود الأوقات كلها للطعام الأوقات الباردة . لجمعها الحرارة فى باطن البدن

فأما الأوقات الحارة فينبغى أن يجتنب أخذ الطعام فيها ، لأن حرارة الهواء تجذب الحرارة الباطنة الغريزية إلى ظاهر البدن ويخلو منها باطنه ، فتضعف الحرارة فى باطنه عن هضمه . فلذلك كانت القدماء تفضل العشاء على الغداء لمّا يلحق العشاء من اجتماع الحرارة على باطن البدن ، لبرد الليل والنوم ، ولأن الحرارة فى النوم
٥ تبطؤ ، ويسخن باطن البدن ويبرد ظاهره . واليقظة على خلاف ذلك ، لأن الحرارة تنتشر فى ظاهر البدن وتضعف فى باطنه . والذى يحتاج إلى كثرة الغذاء من الناس من كان الغالب على بدنه الحرارة ، وكانت معدته لحرارتها سريعة الانهضام ، وكانت كبده لحرارتها سريعة التوليد للمرة الصفراء ؛ فلذلك يحتاج إلى الأطعمة الغليظة البطيئة الانهضام ويستمرئها ، ويستمرئ لحم البقر ولا يستمرئ
١٠ لحم الدجاج وما أشبهه من الأطعمة الخفيفة .

ولا يصلح شىء من هذه إلا فى وقت تحرّك الشهوة ، فإنه أفضل وقت يؤخذ فيه الطعام ؛ وللعادة فى هذا حظ عظيم . ألا ترى أنه من اعتاد الغداء فتركه واقتصر على العشاء عَظُم ضرر ذلك عليه ؟ ومن كانت عادته أكلة واحدة فجعلها أكلتين لم يستمرئ طعامه ، ومن كانت عادته أن يجعل طعامه فى وقت من الأوقات
١٥ فنقله إلى غير ذلك الوقت أضر ذلك به ، وإن كان قد نقله إلى وقت محمود ؛ فيجب لذلك أن يتبع العادة إذا تقادمت فطالت ، وإن كانت ليست بصواب ، إذا لم يجد شيئاً اضطره إلى نقله ؛ لأن العادة طبيعة ثانية كما ذكر الحكيم أبقراط ، فإن حدث شىء يدعوه إلى الانتقال عنها فأوفق الأمور فى ذلك أن ينقل عنها قليلا قليلا .

٢٠ وللشهوة أيضا فى استمراء الطعام أعظم الحظ ؛ لأنها دليل على الموافقة والملاءمة ، فمتى كان طعامان متساويان فى الجودة ، وكانت شهوة المحتاج إليهما إلى أحدهما أميل ، رأينا إيثار المشتهى على الآخر ، لأنه أوفق للطبيعة ، وأسهل عليها فى الاستمراء . ومتى كان أحدهما أجود من الآخر ، وكانت شهوة المحتاج إليهما أميل إلى أردئهما . اخترناه على الأجود إذا لم تخف منه ضررا لكثير ما ينال

منه من المنفعة ، لقبول المعدة له واستمرائها إياه .

فقد بان أنه يُحتاج فى حال الأغذية وجَودة تخير الأطعمة إلى معرفة اختلاف الطبائع وحالاتها ؛ فقد بينت اختلاف طبائع الأبدان وحالاتها ، ومايجب على كل واحدة منها من أنواع الأطعمة والأشربة ؛ وبقى أن نبين اختلاف قوى الأطعمة والأشربة . وأن أصف أنواع الأغذية وأسمّى ما فى كل صنف منها إن شاء الله تعالى . ٥

الأطعمة اللطيفة

هى التى يتولد منها دم لطيف ، فنها لباب خبز الحنطة ، والحب المقشور ، ولحم الفراريج ، ولحم الشّواج والطّيهوج والحجَل ، وفراخ الحجل ، وأجنحة الطيور ، ومالان لحمه من صغار السمك ولم تكن فيه لزوجة ، والقرع ، ١٠ والماش ؛ وما أشبه .

وهذا الجنس من الأطعمة نافع لمن ليست له حركة وكانت الحرارة الغريزية فى بدنه ضعيفة ولم يأمن أن يتولد فى بدنه كَيموس غليظ ، أو يتولد فى كبده أو طحاله سدد ، أو فى كلاه ، أو فى صدره ، أو فى دماغه ، أو فى شىء من مفاصله من البلغم . ١٥

الاطعمة اللطيفة فى نفسها الملطفة لغيرها

هى التى يكون ما يتولد منها لطيفا ، ويلطِّف ما يلقاه من الكيموس اللزج الغليظ فى البدن .

وهذا الجنس من الأطعمة أربعة أصناف : صنف منها حلو لطيف لما فيه من قوة الجلاء ، مثل : ماء الشعير ، والبطيخ ، والتين اليابس ، والجوز ، والعسل ٢٠ والفستق وما يعمل منه من الناطف .

وهذا الجنس فى منفعته من جنس الأول من الأطعمة اللطيفة ، إلا أنه

أبلغ فى تلطيف البدن .

والصنف الثانى حار : حرِّيف ، كالحُرف ، والثوم ، والكراث ، والكرفس والكرنب ، والصّعتر ، والنعنع ، والرازيانج ، والشراب الأصفر اللطيف العتيق الحار .

وهذا كله نافع لمن احتاج إلى فتح السدد التى فى الكبد ، والطحال ، والصدر والدماغ ، وتقطيع البلغم وترقيقه .

ولا ينبغى لأحد أن يكثر استعماله ، لأنه يرقق الدم أولا ويصيره مائيا ، فيقل لذلك غذاء البدن ويضعف ، ثم إنه يُسخن البدن سخونة مفرطة ، فيصير أكثره مِرة صفراء ، ثم إنه بعد ذلك إذا تمادى مستعمله فى استعماله حلل لطيف الدم وترك غليظه ، فصار أكثره مرة سوداء ، وربما تولد من ذلك حجارة فى الكلى ؛ ومضرة هذا الصنف أشد ما تكون على من كانت المرة الصفراء غالبة عليه .

والصنف الثالث : يذهب ويلطف بملوحته ، كالمُرى وما لان لحمه وقل شحمه من السمك إذا ملح ، والسلق ، وماء الجبن ، وكلّ ما جعل فيه من الأطعمة الملح ، والمرى ، البورق .

ومنافع هذا الصنف ومضاره قريبة من منافع الأشياء الحريفة ومضارها ، إلا أن هذا الصنف فى تنقية المعدة والأمعاء وتليين الطبيعة أبلغ .

والصنف الرابع : يقطع ويلطف بحموضته ، كالخل ، والسكنجبين ، وحُماض الأترجّ ، وماء الرمان الحامض ، وكل ما يتخذ بها من الأطعمة .

وهذا الصنف نافع لمن كانت معدته وسائر بدنه حاراً إذا تولد فيه بلغم من غلظ ما يتناول من الأغذية ومن كثرتها .

الاطعمة الغليظة فى نفسها الملطفة لغيرها

منها : البصل ، والجزر ، والفجل ، والسلجم ، وما أشبه ذلك .

فهذه الأطعمة فى نفسها غليظة وتلطِّف ما تلق من الشيء الغليظ بما فيها من الحدّة والحرافة ؛ وهى تولد كيموساً غليظا ، ومتى ماطبخ شيء منها أو شوى ذهب عنه قوة الحرافة والتقطيع ، وبقى جرمه غليظا رديئا ؛ وقد يُتداول للمنفعة بتقطيع هذه الأطعمة وتلطيفها ، ويسلم من غلظ جرمها ، على إحدى ثلاث جهات : إما أن تطبخ فتلطف ، كالذى يفعل بالبصل ؛ وإما أن تعصر أو تطبخ ثم يستعمل ماؤها ؛ وإما أن تؤكل نيئة فتقطع البلغم ، كالذى يفعل بهما جميعا .

الاطعمة الغليظة

الغالب على الأطعمة الغليظة كلها اليبس واللزوجة ؛ فنها شيء يكون اليبس واللزوجة من طبعه ، ومنها ما يكتسب اليبسَ من غيره .

فالذى يكون اليبس من طبعه : العدس ، ولحم الأرانب ، والبلوط ، والشاه بلوط ، والكمأة ، والباقلى المقلوّ ؛ هذه كلها غليظة ، لأن اليبس فى طبائعها .

وأما الذى يكتسب اليبس من غيره ، فالكبود ، والبيض المسلوق ، والمشوى وما قلى ، واللبن المطبوخ طبخا كثيراً ، والضروع ، وعصير العنب المطبوخ ، لاسيما إن كان العصير غليظا ؛ فهذه كلها غليظة ، لأن الحرارة بالطبخ أحدثت لها يبسا وانعقادا .

وأما لحوم الإبل ، ولحوم التيوس ، ولحوم البقر ، والكروش ، والأمعاء ، فإنها غليظة بصلابتها ؛ وكذلك الترمس ، وثمر الصنوبر ، والسلجم ، واللوبيا ، وما خُبز على الفرن ؛ فإن ظاهره غليظ ، لما أحدثت به النار من اليبس ؛ وباطنه غليظ ، لما فيه من اللزوجة ؛ وكذلك كل مالم يُجَد عجنُه أو خبزه أو إنضاجه من خبز التنور ، وكل ما خبز على الطابق بدهن أو غيره ، والفطير ، والشهد ، واللبن ،

والأدمغة ؛ فإنها كلها غليظة ، لِلُزُوجة فيها طبيعية .

وأما الفالوذج فإنه غليظ لِلُزُوجته والانعقادِ الحادث له من الطبخ .

وأما الباذنجان فإنه غليظ لليبس واللُّزُوجة فى طبعه .

وأما الخبز فإنه غليظ لاجتماع الحالات الثلاث فيه .

٥ فأما السمكُ الصلب اللزج فإنه غليظ لاجتماع الصلابة واللزوجة فيه .

وأما الآذان والشِّفاه وأطراف العضو ، فإنها تولد كيموسا لزجا ليس بالغليظ وقد تولّد ما يعرض من الأغذية الباردة عن هضمها وتلطيفها ، كالذى يعرض من أكل الفاكهة قبل نضجها ، ومن أكل الخيار والقثاء ، وشحم الأترج واللبن الحامض .

١٠ فهذه الأطعمة الغليظة كلها إن صادفت بدنا حاراً كثيرَ التعب قليلَ الطعام كثير النوم بعيد الطعام انهضمت وغذت البدن غِذاء كثيرا نافعا ، وقوّته تقوية كثيرة .

وأحْمَدُ ماتستعمل هذه الأغذية فى الشتاء ، لاجتماع الحرارة فى باطن البدن وطولِ النوم ؛ ومتى أحس أحد فى نومه نقصانا بيِّنا وأكلها من يجد الحرارة فى ١٥ بدنه قليلة ولاسيما فى معدته ، ومَن تعبه قليل ونومه بعد الطعام قليل ـ لم يستحكم انهضامها ، وتولد منها فى البدن كيموس غليظ حار يابس ، يتولد منه سدة فى الكبد والطحال ؛ فلذلك ينبغى لمن أكل طعاما غليظا من غير حاجة إليه لِعلة أو شهوة أن يُقِلّ منه ولا يُعَوّده ، ولا يدمِنه .

وما كان من الأطعمة الغليظة له مع غلظه لُزُوجة ، فهو أغذاها للبدن ؛ فإن لم ٢٠ ينهضم فهو أكثرها توليداً للسدد .

الأطعمة المتوسطة بين اللطيفة والغليظة

تصلح لمن كان بدنه معتدلا صحيحا ، ولم يكن تعبه كثيرا ؛ وأجود الأغذية له المتوسطة ، لأنها لا تنهكه ولا تضعفه كاللطيفة ، ولا تولد خاما ولا سُددا كالغليظة

وهى كل ما أحكم صنعه من الخبز ، ولحوم البقر ، والدجاج ، والجداء ، والحولية من المعز .

وأما لحوم الخرفان والضأن كلها فرطبة لزجة .

وأما لحم فراخ الحمام والقطا فهو يولد دما سخنا وأغلظ من الدم المعتدل .

وأما فراخ الوراشين فإنها مثل فراخ الحمام والقطا والإوز ، فأجنحتها معتدلة وسائر البدن كثير الفضول . ٥

وكل ما كثرت حركته من الطير وكان مرعاه فى موضع جيد الغذاء صافى الهواء ، كان أجودَ غِذاء وألطف ؛ وكل ما كان على خلاف ذلك فهو أردأ غذاء وأوسخ .

وكل مالم يستحكم نضجه من البيض ، وخاصة ما أُلقى على الماء الحار وأُخذ من قبل أن يشتد ، فهو معتدل . ١٠

وكل ما كان من لحم السمك ليس بصلب ولا كثير اللزوجة والزهومة ، وما كان مرعاه نقيا من الأوساخ والحمأة ، فهو معتدل جيِّد الغذاء .

ومن الفواكه التين والعنب إذا استحكم نضجهما على الشجر وأسرعت الانحدار إلى الجوف ،كان ما يتولد منها معتدلا ، فإن لم تسرع الانحدار فلا خير فيها . ١٥

ومن البقول الهندبا ، والخس ، والهليون .

ومن الأشربة كلها ما كان لونه ياقوتيا صافيا ولم يكن عتيقا جدا .

الأطعمة الحارّة

يحتاج إليها من كان الغالب عليه البرودة ، فى الأوقات والبلاد الباردَين ؛ وينبغى أن يتجنبها من كان حارّ البدن ، وفى الأوقات الحارّة والبلاد الحارة . ٢٠

منها : الحنطة المطبوخة ، والخبز المتخذ من الحنطة ، والحمص ، والحلبة ، والسمسم ، والشهدانج ، والعنب الحلو ، والكرفس ، والجرجير ، والفجل ،

والسلجم ، والخردل ، والثوم ، والبصل ، والكراث ، والخمر العتيق .

وأسخن الأشربة الحارّة العتيق الأصفر .

الأطعمة الباردة

ينبغي أن يستعملها من كان حارّ البدن ، وفي الأوقات الحارّة والبلد الحارّ .

٥ وهي : الشعير وما يتخذ منه ، والجاورس ، والدُّخْن ، والقرع ، والبطيخ ، والخيار ، والقثاء ، والإجاص ، والخوخ ، والجمّار ، وما بين الحموضة والعفوصة ، من العنب ، والزبيب ، والطلع ، والبلح ، والخس ، والهندبا ، والبقلة الحمقاء ، والخشخاش ، والتفاح ، والكمثرى ، والرمان .

فما كان من الرمان عفصا فهو بارد غليظ ، وما كان حامضاً فهو

١٠ بارد لطيف .

فأما الخل فهو بارد لطيف ، وهو ضارّ بالعصب .

وما كان أيضاً من الشراب عفصا فهو أقل حرارة ، وما كان من ذلك حديثاً غليظا فهو بارد .

الأطعْمة اليابسة

١٥ يحتاج إلى الأطعمة اليابسة من كان الغالب على بدنه الرطوبة ، وفي الأوقات الرطبة والبلد الرطب .

منها العدس ، والكرنب ، والسويق ، وكل ما يشوى ويطبخ ويقلى ، وكل ما أكثر فيه السَّذاب والمُرِي والخل والإبزار والخردل ، ولحم المُسِنّ من جميع الحيوان .

الأطعمة الرطبة

يحتاج إلى الأطعمة الرطبة من أفرط عليه اليبس ، وفى الأوقات اليابسة والبلاد اليابسة .

وهى : الشعير ، والقرع ، والبطيخ ، والقثاء ، والخيار ، والجوز الرطب ، والعنب ، والنبق ، والإجاص ، والتوت ، والجمار ، والخس ، والبقلة اليمانية ، والقطف ، والباقلى الرطب ، والحمص الرطب ، واللوبيا الرطبة وكل ما يطبخ بالماء ويسلق به وتقل فيه الإبزار والخل والمرى والسذاب ، وجميع لحوم صغار الحيوان .

الأطعمة القليلة الفضول

أجنحة الطيور ، وأكارع المواشى ورقابها ، ما يربى فى البرّ من الحيوان فى المواضع الجافة .

الأطعمة الكثيرة الفضول

منها لحم الأوز خلا الأجنحة ، والأكباد كلها من جميع الحيوان ، والنخاع ، والدماغ ، والطيور التى فى الفيافى والآجام ، والحمص الطرى ، والباقلّى الطرى ، ولحم الضأن ، ولحم المراضع من كل الحيوان ، ولحم كل ساكن غير سريع النهوض ، وما كان من السمك على ما ذكرنا صَلْباً لزِجا .

الأطعمة التى غذاؤها كثير

كل ما غلظ من الأطعمة إذا انهضم غذى غذاء كثيرا ، وكل ما كان له فضول كان غذاؤه كثيرا .

وقد يحتاج إلى الأطعمة الكثيرة الغذاء من احتاج إلى أن يأخذ طعاما قليلا

يغذّى غذاء كثيرا ، كالناقه والمسافر ، وكالذى يثقل معدته الكثير من الطعام وبدنه يحتاج إلى غذاء كثير .

فمن ذلك لحم البقر ، والأدمغة ، والأفئدة ، وحواصل الطير كلها ، والسمك الغليظ اللوح ، والسميذ ، والباقلى ، والحمص ، واللوبيا ، والترمس ، والعدس ، والتمر ، والبلّوط ، والشاه بلّوط ، والسَّلْجم ، تغذو غذاء كثيرا لغلظها ـ واللبن الحليب ، والشراب الأحمر . وغذاء اللبن كله أغلظه وأورقه ، أقلّ غذاء .

وأغلظ اللبن لبن البقر وابن النعاج ، وأرقه لبن الأُتن وألبان اللّقاح ، وألبان الماعز متوسطة بين ذلك .

وأغذى الأشربة النبيذ الأحمر الغليظ الحلو ، ثم الغليظ الأسود الحلو ، ثم الغليظ الأبيض الحلو ، ثم من بعد هذه الأشربة العفصة الغليظة الحلوة وكل ما مال إلى الحمرة والحلاوة كان أغذى ، والأبيض أقلها غذاء .

الأطعمة التى غذاؤها قليل

كل ما كان من الأطعمة لطيفاً كان غذاؤه قليلا ، وكل ما أفرط فيه اليبس أو الرطوبة ، أو كثرة الفضل ، قل غذاؤه ، كالأكارع ، والكروش ، والمصارين ، والشحم ، والآذان ، والرئة ، ولحم الطير كله ، وما ملح من الحيوان ـ قليل الغذاء لليبس الذى فيه ـ وكذلك الزيتون ، والفستق ، والجوز ، واللوز ، والبندق ، والغُبيرا ، والزّعرور ، والخروب ، والبُطم ، والكمّثرى العَفِص ، والزبيب العفِص ؛ فإنما قلّ غذاؤهما للعفوصة .

وأما السمك ، والقرع ، والرمان ، والتوت ، والإجاص ، والمشمش ، فإنما قل لكثرة رطوبتها ؛ وغذاؤها غير باق سريع التحلل .

وأما خبز الشعير ، والخُشكار ، والباقلى الرطب ؛ وجميع البقول ، مثل الكرنب ، والسلق ، والحماض ، والبقلة الحمقاء ، والفجل ، والخردل ، والحُرْف ،

والجزر - فقليل الغذاء ، لكثرة الفضل فيها .

وأما البصل ، والثوم ، والكراث : فإنها إذا أكلت نيئة لم تغذ ، وإذا طُبخت غذّت غذاء يسيرا .

وأما التين ، والعنب ، فإنهما بين ما قل غذاؤه وما كثر غذاؤه .

الاطعمة التى تولد كيموسا جيدا ٥

كل ما كان معتدلا من الأطعمة لم تفرط فيه قوة ولا تجاوز القدر فيه ، ولّد دما خالصا نقيا صحيحا ، وكل ما كان كذلك فهو موافق لجميع الأبدان وفى جميع الأوقات ، وهو لجميع الأبدان المعتدلة في جميع الأوقات ، وفى الأوقات المعتدلة أوفق ؛ لأن ما تجاوز الاعتدال من الأبدان يحتاج من الأطعمة إلى ما فيه قوة تجاوز الاعتدال ، وكذلك الأبدان المعتدلة في الأوقات التى ١٠ ليست بمعتدلة .

وفى الأطعمة ما هو غليظ وما هو لطيف وما هو بين ذلك ، وأجودُها لجميع الناس ما كان معتدلا منها ، بين الغليظ واللطيف ، وما هو بين ذلك .

وقد وصفنا الأطعمة الغليظة واللطيفة والمتوسطة . ومتى يصلح كل صنف منها ؛ فبقى علينا أن نخبر بجملة الأطعمة المولدة الكيموس الجيّد ، وقسمتها ١٥ على ما قسمناها .

فن ذلك خبز الحنطة النقى المحكم الصنعة إن كان من يومه ، ولحم الدجاج ، والجداء ، وحولية المـاعز ، وما كان من السمك ليس بصلب ولا كثير اللزوجة ، وما لم يكن له زهومة ولم يكن له سمن كثير ، وما كان مرعاه فيما ليس فيه أوساخ ولا حمأة ولم يكن سريع العفونة ، وكل ما اشتد واستحكم نضجه من البيض ، وكل ٢٠ شراب طيب الريح ياقوتى اللون ليست فيه حلاوة - كل ذلك يولد كيموساً معتدلا بين اللطيف والغليظ .

وأما الدراج ، والفراريج ، وأجنحة جميع الطير ، وما صغر من السمك

وكان مرعاه على ما وصفنا ، وما ألقى عليه من السمك الملحُ فصار رخصا وذهبت لزوجته ، وماء كشك الشعير ، والشراب الطيب الرائحة الأحمر - فكل ذلك جيد الكيموس لطيف .

وأما اللبن الحليب فإنه جيد الكيموس ، إلا أن فيه غلظا ؛ ولذلك ربما تجبن في المعدة ؛ فلهذه العلة يخلط به العسل والملح ، ويرق بالماء . ٥

وأجود اللبن وأعدله لبن الماعز ؛ لأنه ألطف من لبن الضأن والبقر ، وأغلظ من لبن الأتن واللقاح .

وينبغى للبن أن يؤخذ من حيوان صحيح شابّ جيد الغذاء .

ولا يحتلب فى وقت ما يضع الحيوان ، ولا بعد ذلك بزمان طويل لأن اللبن من الحيوان فى وقت ما يضع غليظ ، ثم يرق بعد ذلك قليلا قليلا حتى يصير مائيا ، فلذلك كان أوله وآخره رديئا . ١٠

وأجود ما يؤخذ اللبن ساعة يحلب ، قبل أن يغيره الهواء ؛ لأنه سريع الاستحالة .

وأما الخشكار من الخبز الرطب ، وكل ما لم تحكم صنعته من الخبز السميذ ، وخبز الفرن ، ولحم العجل ؛ ومن أجزاء الغنم الضرع والكبد والفؤاد ؛ ومن الحبوب الباقلى ؛ ومن الشراب ما كان طيب الرائحة حلوا - فكل ذلك يولد كيموساً غليظا جدا . ١٥

الأطعمة التى تولد كيموسا رديئا

كل ما لم يكن معتدلا من الأغذية لم يولّد دما خالصا صافيا .

والأطعمة الرديئة الكيموس ثلاثة أصناف : منها ما يزيد فى البلغم ، ومنها ما يزيد فى الصفراء ، ومنها ما يزيد فى السوداء . ٢٠

وينبغى لجميع الناس أن يجتنبوا الإكثار منها وإدمان استعمالها وإن

كانوا لها مستمرئين ؛ لأنها وإن لم يتبين لهـا ضرر فى عاجل الأمر ، يجتمع منها فى بدنٍ مدمن استعمالها مع طول الزمان كيموسٌ ردىء ، وكذا أمراض رديئة . وأولى الناس بتَجَنُّب كل صنف من أصنافها مَن كان الغالبُ على بدنه ما يزيد فيه ذلك الصنف .

٥ فأقول : إن كل ما يتخذ من الخبز من دقيق كثير النخالة ، أو ما عتق من الحنطة ـ ردىء الكيموس يزيد فى السوداء .

ولحم الضأن كله يزيد فى البلغم ، ولحم الماعز المسن كله يزيد فى السوداء ، وأردؤه لحم التيوس . ولحم البقر والجزور والأرانب والظباء والأيايل ـ كل هذا يزيد فى السوداء ؛ وشرّ هـذه اللحوم لحم الجزور ، وبعده لحم التيوس ، لاسيما ١٠ مالم يُخصَ منها ، وبعده لحم المسن من الضأن ، وبعده لحم البقر ؛ وكل ما خُصى من هذه كان أجودَ غذاء .

وأما لحوم الأرانب والظباء والأيايل ، فهو دون جميع ما ذكرنا فى الرداءة .

ومن أعضاء الحيوان : الكلى ، رديئة الكيموس ، لزهومتها وما استفادت من رداءة البول .

١٥ والدماغ يزيد فى البلغم ، وكل البطون يزيد فى البلغم ، لكثرة الزلال فيها .

والبيض المطجّن يولد غذاء غليظاً فاسداً ، وكذلك الجبن ، ولاسيما ماعتق منها .

والعدس يزيد فى السوداء .

والدخن والجاورس يولدان دما غليظاً .

وما صلب لحمه من السمك وغلبت عليه اللزوجة يولد البلغم ، فإن ملح ٢٠ وعتق يولد السوداء .

والتين اليابس إن أكثر أكله ولد فضلا عفنا يكثر منه القمل .

والكمثرى والتفاح إن أكلا غير نضيجين ولدا كيموساً رديئاً ، وكذلك القثاء والخيار ؛ فأما البطيخ والقرع فربما انهضما ولم يحدثا فى البدن حدثاً رديئاً ،

وربما فسدا فى المعدة فولّدا كيموساً رديئاً ، ولا سيما إن صادفا فى المعدة فضلا رديئاً ؛ فلذلك تَعرض الهيضةُ كثيراً من أكل البطيخ .

والبقول كلها رديئة الكيموس ، لكثرة الفضل فيها وقلة الغذاء .

وأما البصل والثوم والكراث والفجل والجوز والسلجم ، فرديئة لما فيها من الحرارة والحرافة ، وربما زادت فى الصفراء ، وربما زادت فى السوداء أيضاً كما ذكرت آنفاً ، إلا أنها إن طبخت وصب ماؤها وطبخت بماء ثان ، ذهبت الحرافة والرداءة عنها .

والباذَروج يسخّن الدم ويجففه تجفيفا شديداً .

والكرنب يولد السوداء ، وكذلك جميع البقول الرديئة .

الأطعمه المتوسطة الكيموس

وهى بين ما يولد الكيموس الجيد وما يولد الكيموس الردىء . فمنها خبز الخشكار، ولحم الخصيان من المعز والضأن .

ومن الأعضاء : اللسان والأمعاء والذنب .

ومن الفاكهة : العنب والبطيخ — والمعلق من العنب أجود — والتين ، واليابس من الجوز ، والشاه بلوط .

ومن البقول الخس ، وبعده الهندبا ، وبعده الخبازى ، وبعده القطف والبقلة الحمقاء اليمانية ، والحامض ، وما لم يكن فيه حدّة كثيرة من الأصول .

الأطعمة السريعة الانهضام

إنما يسرع الانهضام لأحد وجهين : فالوجه الأول منها إذا كانت الأطعمة غير يابسة كالعدس ، ولا صلبة كالترمس ، ولا لزجة كالحنطة ، ولا خشنة كالسمسم ، ولا كريهة كالسذاب ، ولا كثيرة الفضول كالأرز ، ولا يغلب عليها برد شديد كاللبن الحامض ، ولا حرّ شديد كالعسل .

والوجه الثانى لطبيعة البطن المستمرئ لهـا ، وذلك لأحد وجهين : الأول موافقة الأغذية ، ومشاكلة الأبدان الطبيعية ، كالأطعمة التى يشتهيها ويلذها الإنسان ؛ فقد تجد النـاس يختلفون فى شهواتهم ، ويستمرئ كل واحد منهم ما شهوته إليه أميَل ، وإن كان الذى لا يشتهيه أحمد من الذى يشتهيه . والوجه الثـانى : لمزاجٍ عارض يصادف من الأطعمة مضاده ، كالذى ترى أن من غلب عليه الحر لعلة من العلل ، كان للأطعمة الباردة أشد استمراء ، لمـا يطفئ من حرارة البدن ، ويعدل البدن ؛ ومن غلب عليه البرد استمرأ الحارّ ولم يستمرئ البارد ؛ ومن رَطُبَ بدنه كله أو معدته استمرأ الأطعمة الجافة ولم يستمرئ الرطبة ؛ ومن عرض له اليبس خلاف ذلك .

فقد بان بما ذكرناه أن الأطعمة اللطيفة والمتوسطة فى نفسها سريعة الانهضام وقد يجوز أن تـكون الأطعمة الغليظة أسرعَ انهضاما فى بعض الأبدان أيضا ؛ فقشر الخبز المحكم ، ولحم الدجاج ، والفراريج ، والدراج ، والحجل ، وكبود الأوز وأجنحتها ـ سريعة الهضم .

وفى الجمـلة الجناحُ من كل طائر أسرع انهضاماً من سائره ، وليس فى الطير كلها أسرع انهضاما من المواشى ؛ وكل ما كان من الحيوان يابسا فصغيرُه أسرعُ انهضاما ؛ وكذلك لحم العجاجيل أسرع من لحم البقر ، ولحم الجدى الحولى أسرع انهضاما من لحم المسن من المـاعز ؛ وكل ما كان من الحيوان أرطب فكبيره من قبل أن يسن أسرع انهضاما من صغيره ؛ ألا ترى أن الحولى من الضأن أسرع انهضاما من الخروف ؟ وكل ما كان مرعاه فى المواضع اليابسة كان أسرع انهضاما مما مرعاه فى المواضع الرطبة ؛ وكل ما كان جرمه متخلخلا فهو أسرع انهضاما مما كان جرمه متلززاً ؛ ولذلك كان الجوز أسرعَ انهضاما من البندق ، والبيض الحارّ أمْرَأ من البيض البارد ، والشراب الحلو أمرأ من العَفص .

الاطعمة البطيئة الانهضام

إنما يعسر الانهضام من الطبيعة فى الطعام إذا كان يابسا ، أو صلبا ، أو لزجا ، أو متلززاً ، أو كثير الدسم ، أو كثير الفضول ، أو كريه الطعم ، أو الحرافةُ فيه مفرطة ، أو البردُ ، أو الحر ، أو مخالفا للمزاج الطبيعى إذا لم يُشتَهَ .

٥ فلحم البقر ، ولحم الإبل ، والكروش ، والأمعاء ، والأوز ، والآذان من جميع الحيوان ، والجبن ، والبيض البارد ـ عسرة الانهضام ، ليبسها وصلابتها .

وكذلك من الطير : الوراشين ، والفواخت ، والطواويس ، والقوانص من جميع الطير ـ عسرة الانهضام .

ومن الحبوب : الأرز ، والتُّرمس ، والعدس ، والدُّخن ، والجاوَرس ، ١٠ والبلّوط ، والشاه بلّوط .

وأما لحم التيوس وأكارع البقر ، فعَسِرَة الانهضام لزهومتها وكراهتها .

وأما لحم الضأن ، والكبود من جميع الحيوان ، والأوز ـ فلكثرة الفضول فيها .

وأما الجبن الحامض فلبرده .

١٥ وأما الحنطة المصلوقة فللزوجتها وتلززها .

وأما الباقلاء واللوبياء فلكثرة النفخ فيها .

وأما السمسم فلكثرة دهنه .

وأما العنب والتين وسائر الفواكه إذا لم يستحكم نضجها ، والأترج والباذَروج ، والسلجم ، والجوز ، والشراب الحديث الغليظ ـ فلكثرة الفضول فيها .

٢٠ الاطعمة الضارة للمعدة

السِّلق ردىء للمعدة ، للذعه إياها ولما فيه من الحدة البورقية .

والباذروج والسلجم ما لم يُستقص طبخهما ، للذع فيهما .
والبقلة اليمانية والقطف ، للزوجتهما . فلذلك ينبغى أن يؤكلا بالخل ، والمُرْى .
والحلبة رديئة للمعدة للذعها إياها .
والسمسم ردىء للمعدة ، للزوجته وكثرة دهنه .
واللبن لسرعة استحالته فى المعدة . ٥
والعسل ما أكثر منه لذع المعدة وغثاها .
والبطيخ أيضاً يُغثى ، إذا لم ينضج فى المعدة وله كيموسا رديئا ، فينبغى بعد أكل البطيخ أن يأكل طعاما كثيرا جيد الكيموس .
والأدمغة أيضاً كلها رديئة للمعدة ، فلذلك ينبغى أن تؤكل بالصعتر والفودنج البرّى والخردل والملح ، وكذلك المخاخ . ١٠
والنبيذ الحديث الغليظ الأسود العفص يسرع الحموضة فى المعدة ويُغثى .

الاطعمة التى تفسد فى المعدة

المشمش ، والسمسم ، والتوت ، والبطيخ — إذا لم يسرع انحدارها عن المعدة وصادفت كيموساً رديئاً أسرع إليها الفساد ؛ فيجب أن تؤكل قبل الطعام والمعدة نقية ليسرع انحدارها عنها ويسهل الطريق لما يؤكل بعدها من الطعام ، فإن ١٥ أكلت بعد الطعام فسدت لبقائها فى المعدة ، وأفسدت سائر الطعام بفسادها ، وربما بلغ الفساد بها إلى أن تصير بمنزلة السم القاتل .

الاطعمة التى لا يسرع إليها الفساد فى المعدة

من كان يفسد طعامه فى معدته ، فأجود الأطعمة له ما كان غليظا بطىء الانحدار مثل لحم البقر وأكارعها ، وما أشبه ذلك مما ذكرناه فى الأطعمة الغليظة . ٢٠

الاطعمة الملينة المسهلة للبطن

كل ما كان من الأطعمة فيه حلاوة أو حدّة أو ملوحة أو لزوجة ؛ فمن ذلك

ماء العدس وماء الكرنب ، يُلينان الطبع ، وجرمهما يمسك البطن ؛ وكذلك مرقة الهرمة ، وخبز الخشكار مع العسل ، وزيتون الماء إذا كان قبل الطعام مع مرى ـ ليّن البطن ؛ فإذا كان أيضا مع الطعام بلا مرى ، فإنه يقوى المعدة على دفع الطعام لعفوصته . وكذلك ماعمل بالخل منه ـ وكل طعام عفص فإنه دابغ للمعدة مقوٍ لها ـ ٥ فأما اللبن وماء الجبن فيليتان البطن ، ولا سيما إذا خلط بهما الملح .

ولحم الصغير من الحيوان ، والسلق ، والقطف ، والبقلة اليمانية ، والقرع ، والبطيخ ، والتين ، والزبيب الحلو ؛ والتوت الحلو ، والجوز الرطب ، والإجاص الرطب والسَّكَنْجَبِين ، والنبيذ الحلو ـ ملين للبطن .

الأطعمة التى تحبس البطن

١٠ إذا كان الطعام ينحدر عن المعدة قبل انهضامه احتجنا إلى الأطعمة الممسكة الحابسة للبطن .

وكل ما غلب عليه من الأطعمة اليبس أو العفوصة أو الغلظ ، كالسفرجل ، والكمثرى ، وحب الآس ، وثمر العوسج ، وجرم العدس ، والبلّوط ، والشاه بلّوط والنبيذ العفص ـ يمسك البطن ، لعفوصته وقبضه .

١٥ والجاورس ، والدخن ، وسويق الشعير ـ تمسك البطن بيبوستها .

ولحم الأرانب ، والكرنب المطبوخ بعد صب مائه الأول عنه ثم يطبخ بماء ثان ـ فإنه يمسك البطن ليبسه .

واللبن المطبوخ ، والجبن ـ كلاهما يمسك البطن لغلظه ؛ وذلك أن يطبخ اللبن حتى تفنى مائيّته ، ويبقى جرمه ، وربما ولد سدداً فى الكبد وحجارة ٢٠ فى الكلى .

وأما الأشياء الحامضة ، كالتفاح الحامض ، والرمان الحامض ـ فإن صادفت فى المعدة كيموسا غليظا قطعته وحدرته ولينت البطن ، وإن صادفت المعدة نقية أمسكت البطن .

الأطعمة التي تولد السدد

اللبن الغليظ ، والجبن — ربما أحدثا سدداً فى الكبد وحجارة فى الكلى لمن أكثر استعمالهما وكانت كلاه وكبده مستعدة لقبول الآفات .

وجميع الأطعمة الحلوة رديئة للكبد والطحال ، فإذا أكل معها الفودنج الجبلى والصعتر ، والفلفل — فتح سدد الكبد ، والطحال . ٥

والرطب ، والتمر ، وجميع ما يتخذ من الحنطة سوى الخبز الجيد المضنغة ، والأشربة الحلوة أيضا — تولّد سددا فى الكبد ، وحجارة فى الكلى ، وتغلظ الطحال .

الأطعمة التي تجلو المعدة وتفتح السدد

ماء الكشك ، كشك الشعير ، يجلو المعدة ويفتح السدد . ١٠

والحلبة ، والبطيخ ، والزبيب الحلو ، والباقلاء ، والحمص الأسود — ينق الكلى ويفتت الحجارة المتولدة فيها .

والكَبَرْ بالخل ، والعسل إذا أكل قبل الطعام — فإنه يجلو وينق المعدة والأمعاء ، ويفتح السدد .

والسلق أيضا يجلو ويفتح السدد فى الكبد ، لاسيما إذا أكل بخردل . ١٥

والبصل ، والثوم ، والكراث ، والفجل — يقطع ويلطف الكيموس الغليظ .

والتين ، رطبه ويابسه ، يجلو وينق الكلى .

واللوز كله ! ولا سيما المر منه — فإنه يجلو ويلطف ويفتح سدد الكبد والطحال ، ويعين على نفث الرطوبة من الصدر والرئة .

والفستق يقوى الكبد ، ويفتح سدد الكبد ، وينق الصدر والرئة . ٢٠

والنبيذ اللطيف إذا كانت له حدة وحرافة — يصفى اللون ، وينق العروق من الكيموس الغليظ ، وينتفع به من كان يجد فى بدنه كيموسا غليظا باردا .

وأما النبيذ الرقيق فإنه يعين على نفث الرطوبة من الرئة ، بتقويته الأعضاء وتلطيف ما فيها من الفضل الغليظة ، وقد يفعل ذلك النبيذ الحلو .

الأطعمة التي تنفخ

الحمص ، والباقلاء ، ولا سيما إن طبخ بقشره ، فإن طبخ مقشراً أو مسحوقاً كان أقل نفخا ، وإن قلى أيضا كان أقل نفخا ؛ وبعد هذه اللوبياء ، والماش ، والعدس ، والشعير ، إذا لم يتم طبخها .

والنُّعناع ، والأُنجذان ، والحِلْتيت ؛ والتين الرطب يولّد نفخا إلا أنه ينحل سريعاً لسرعة انحداره .

وما استحكم نضجه من التين والعنب كان أقل نفخا ، ويابس التين أقل نفخا من رطبه .

واللبن يولّد رياحا فى المعدة .

والعسل إذا طبخ ونزعت رغوته قل نفخه .

والنبيذ الحلو العفص يولد نفخا .

مايذهب النفخ من الأطعمة

كل طعام نافخ إذا أُحكِمَتْ صنعته وأجيد طبخه وإنضاجه قل نفخه ، وكل ما قلى منه قل نفخه ، وكل ما خلط به الأبازير المحللة للرياح ، كالكمون ، والسذاب والأنيسون ، والكاشم — يقل نفخه ؛ والخل الممزوج بالعسل يلطف الرياح .

كتاب إسحاق بن عمران إلى بعض إخوانه

كتب إسحاق بن عمران المعروف بسمّ ساعة إلى رجل من إخوانه :

أعلمك — رحمك الله — أن الخام والبلغم يظهران على الدم والمِرة بعد الاربعين سنة فيأكلانهما ، وهما عدوا الجسد وهادماه ، ولا ينبغى لمن خلف الاربعين سنة أن يحرك طبيعة من طبائعه غير الخام والبلغم ، ويقوّى الدم

جاهدا ، غير أنه ينبغى له فى كل سبع سنين أن يفجر من دمه شيئا ، ومن المرة مثل ذلك ، لقلة صبره على الطعام اللذيذ والمشروب الروىّ ؛ فتعاهد أصلحك الله ذلك من نفسك ، واعلم أن الصحة خير من المال والأهل والولد ، ولا شىء بعد تقوى الله سبحانه وتعالى خير من العافية . ومما تأخذ به نفسك وتحفظ به صحتك ، أن تلزم ما أكتب به إليك : ٥

فى شهر ينير : لا تأكل السلق ، واشرب شرابا شديدا كل غداة .

وفى شهر فبرير : لا تأكل السلق .

وفى مارس : لا تأكل الحلواء كلها وتشرب الأفسنتين فى الحلاوة .

وفى أبريل : لا تأكل شيئا من الأصول التى تنبت فى الأرض ، ولا الفجل .

وفى مايه : لا تأكل رأس شىء من الحيوان . ١٠

وفى يونيه : تشرب الماء البارد بعد ما تطبخه وتبرده على الريق .

وفى يوليه : تجنب الوطء .

وفى أغشت : لا تأكل الحيتان .

وفى سبتمبر تشرب اللبن البقرى .

وفى أكتوبر : لا تأكل الكراث نيئا ولا مطبوخا . ١٥

وفى نبنبر : لا تدخل الحمام .

وفى دجنبر : لا تأكل الأرانب .

زعم علماء الطب أن فى الجسد من الطبائع الأربع اثنى عشر رطلا فللدم منها ستة أرطال ، وللمرة والسوداء والبلغم ستة أرطال ؛ فإن غلب الدم والطبائع تغير منه الوجه وورم ، وخرج ذلك إلى الجذام ؛ وإن غلبت تلك الطبائع الدم أنبتت المرة. ٢٠

قال : فإذا خاف الإنسان غلبة هذه الطبائع بعضها بعضا ، فليعدل جسده بالاقتصاد وينقيه بالمشى . فإنه إن لم يفعل اعتراه ما وصفنا ، إما جذام وإما مِرة ، نسأل الله العافية . •

ولا بأس بعلاج الجسد فى جميع الأزمان إلا أيام السُّمُوم ، إلا أن ينزل فيها مرض شديد لا بدّ من مداواته ، أو يظهر فيها مُومٌ ، أو ذاتُ الجنب ، فإنه ينبغى للطبيب أن يعانيه بفصاد أو شىء خفيف ، فإنها أيام ثقيلة ، وهى [من] خمسة عشر يوما من تموز إلى النصف من آب ، فذلك ثلاثون يوما لا يصلح فيها ٥ علاج ـ وكان بقراطيس يجعلها تسعة وأربعين يوما ـ ويقطع الغَرر والخطر فى أيام القيظ ، فإذا مضى لأيلول ثلاثة أيام طاب التداوى كله .

وأمر جالينوس فى الربيع بالحجامة ؛ والنورة ، وأكل الحلاوة وشربها ؛ ونهى عن القطانىّ ، واللبن الرائب ، وعتيق الجبن ، والمالح ، والفاكهة اليابسة إلا ما كان مصلوقا ...

١٠ وفى القيظ ـ وهو زمان المرة الحمراء ـ يأكل البارد الرطب على قدر قوة الرجل فى طبعه وسنه ، وترك الجماع ، وأكل الحوت الطرى ، والفاكهة الرطبة ، والبقول ؛ ولحم البقر والمعز ؛ ومن القطانى العدس ، ومن الأشربة المربب بالورد والسُّكُرْكة من الشعير ، والسكر بالماء المطبوخ ، وأكل الكزبرة الخضراء فى الأطعمة ، وأكل الخيار والبطيخ ، ولزوم دهن الورد وماء الورد ، ورش الماء ١٥ وبسط البيت بورق الشجر ، ومن الدواء السكر بالمصْطَكا ، يسحقهما مثلا بمثل ويأخذهما على الريق قدر الدرهم أو أكثر قليلا ...

وفى زمان الخريف ـ وهو زمان السوداء ، وهو أثقل الأزمنة على أهل تلك الطبيعة ـ من الطعام والشراب بالحار الرطب ، مثل الأحساء بالحلاوة ، وأكل العسل وشربه ؛ ونهى فيه عن الجماع ، وأكل لحم المعز والبقر ، وأمر بأكل ٢٠ صنوف حيوان البر والبحر ، وحسو البيض ، والدهن قبل الحمام ، وإتيانِ النساء على غير شبع فى آخر الليل وفى أول النهار ، والتماس الولد على الريق من الرجل والمرأة فإن أولاد ذلك الزمان أشد وأقوى تركيبا ، من غيرهم ، كما قالت الحكماء .

الخمر المحرمة فى الكتاب

أجمع الناس على أن الخمر المحرمة فى الكتاب خمرُ العنب ، وهى ماغلى وقَذف الزَّبدَ من عصير العنب ، من غير أن تمسه نار ، ولا يزال خمرا حتى يصير خلا ، وذلك إذا غلبت عليه الحموضة وفارقتها النشوة ؛ لأن الخمر ليست محرَّمة العين كما حُرمت عين الخنزير ، وإنما حرمت لعرَض دخَل لها ، فإذا زايلها ذلك العرَض عادت حلالا كما كانت قبل الغليان حلالا ، وعينها فى كل ذلك واحدة ، وإنما انتقلت أعراضها من حلاوة إلى مرارة ، ومن مرارة إلى حموضة ، كما ينتقل طعم الثمرة إذا أينعت من حموضة إلى حلاوة والعين قائمة ، وكما ينتقل طعم الماء بطول المكث فيتغير طعمه وريحه والعين قائمة .

ونظير الخمر فيما يحل ويحرم بعرَض : المسك الذى هو دم عبيط حرام ، ثم يجف ويجدد رائحة فيصير حلالا طيبا ؛ فهذه الخمر بعينها المجمَع على تحريمها ؛ وأصحاب النبيذ إنما يدورون حولها ويتعللون أنهم يشربون مادون المسكر ، ولا لذة لهم دون موافقة المسكر كما قال الشاعر :

يدُورُونَ حولَ الشَّيْخِ يلتمِسونهُ * بأشْرِبة شتَّى هى الخمرُ تطلَبُ

وقول القائل :

* إياكِ أعْنى فاسمعى ياجارَهْ *

الأحنف بن قيس — قيل للأحنف بن قيس : أى الشراب أطيب ؟ فقال : الخمر . قيل له : وكيف علمتَ ذلك وأنت لم تشربها ؟ قال : إنى رأيت من أُحلت له لا يتعداها ، ومن حرمت عليه إنما يدور حولها !

لابن شبرمة — وقال ابن شُبرمة :

ونبيذُ الزَّبيبِ ، مااشتدَّ منه * فهو للخَمرِ والطِّلاءِ نسيبُ

لابن المقفع

وقال عبد الله بن المقفع :

أتانا بها صفراء يزعُمُ أنّها * زبيبٌ،فصدّقناهُ وهو كذوبُ

فهل هي إلا ساعةٌ غابَ نحسُها * أُصلّي لربّي بعدَها وأتوبُ

الفرزدق

وقال ابن شبرمة : أتانا الفرزدق ، فقال : آسقونى . فقلنا : وما تريد أن نسقيك ؟ قال : أقربه إلى الثمانين . يعنى حدّ الخمر .

أنواع الشراب

وقال قيصر لقس بن ساعدة : أى الأشربة أفضلُ عاقبةً فى البدن ؟ قال : ما صفا فى العين ، واشتد على اللسان ، وطابت رائحتُه فى الأنف من شراب الكرم . قيل له : فما تقول فى مطبوخه؟ فقال : مرعًى ولا كالسعدان . قيل له : فما تقول فى نبيذ التمر ؟ قال : ميت أحيا فيه بعض المنعة ، ولا يكاد يحيا من مات مرة . قيل له : فما تقول فى العسل ؟ قال : نِعم شرابُ الشيخ ذى الأبردة والمعدة الفاسدة .

الوليد وابن شراعة

على بن عياش قال : إنى عند الوليد بن يزيد فى خلافته ، إذ أُتِىَ بابن شراعة من الكوفة ؛ فوالله ما سأله عن نفسه ولا سفره حتى قال له : يا ابن شرّاعة ، إنى والله ما بعثت إليك لأسألك عن كتاب الله ولا سنة رسوله . قال : فوالله لو سألتنى عنهما لألفيتنى فيهما حمارا ! قال : وإنما أرسلتُ إليك لأسألك عن القهوة ، قال دِهقانها الخبير ، وطبيبها العليم ! قال : فأخبرنى عن الطعام ؟ قال : ليس لصاحب الشراب على الطعام حكم ، غير أنّ أنفعه وأشهاه أمرَؤُه . قال : فما تقول فى الشراب ؟ قال : ليسألْ أمير المؤمنين عما بدا له . قال : فما تقول فى الماء ؟ قال : لا بد لى منه ! والحمار شريكى فيه . قال : فما تقول فى السّويق ؟ قال : شراب الحزين والمستعجل والمريض . قال : فما تقول فى اللبن؟ قال : ما رأيته قط إلا استحييت من أُمى ! من طول ما أرضعتنى به قال : فنبيذ التمر ؟ قال : سريع الامتلاء سريع الانفشاش . قال : فنبيذ الزبيب ؟ قال : حامُوا به على الشراب . قال : ما تقول فى الخمر ؟ قال : أوّه ! تلك صديقة روحى ! قال : وأنت والله صديق روحى . [ثم] قال : وأىّ المجالس أحسن ؟ قال : ما شرب الناس على

وجه قط أحسنَ من السماء [(١)] !

الرشيد والأصمعى

قال الأصمعى : دخلت على الرشيد وهو فى الفرش منغمس كما ولدته أمه ؛ فقال لى : يا أصمعى ، من أين طَرفت اليوم ؟ قال : قلت : احتجمت . قال : وأى شىء أكلت عليها ؟ قلت : سكباجة وطباهجة . قال : رميتَها بحجرها . [ثم] قال : هل تشرب ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين .

آسقِنى حتى تَرانى مائِلا * وتَرى عِمْرانَ دِينى قد خرِبْ

قال : يا مسروق ، أى شىء معك ؟ قال : ألف دينار . قال : ادفعها إليه !

آفات الخمر وخبائثها [(٢)]

أول ذلك أنها تُذهِبُ العقل ، وأفضل ما فى الإنسان عقله ، وتحسن القبيح وتُقبح الحسن .

لأبى نواس

قال أبو نواس :

آسقنى حتى ترانى * حسن عندى القَبيح

وقال أيضا :

آسقنى صِرفا حُمَيّا * تترُك الشيْخَ صَبيا

وتُريهِ الغَىَّ رُشداً * وتريه الرُّشدَ غيا !

وقال أيضا :

عُتّقتْ فى آلدّنّ حولا * فهْىَ فى رقّــةِ دِينى

للناطق بالحق

وقال الناطق بالحق :

تَركتُ النّبيذَ وأصحابَهُ * وصِرْتُ خديناً لمنْ عابَهُ

شرابٌ يُضِلُّ سبيلَ الرشادِ * ويفْتَح للشّرِّ أبوابَه

(١) فى بعض الأصول : « من النساء » .

(٢) فى بعض الأصول : « وجناياتها » .

النديم — وإنما قيل لمشارب الرجل : نديم ، من الندامة ؛ لأن معاقر الكأس إذا سكر تكلم بما يندم عليه ؛ فقيل لمن شاربه : نادمه ؛ لأنه فعل مثل ما فعله ، فهو نديم له ؛ كما يقال : جالسه فهو جليس له ؛ والمعاقر : المدمن ؛ كأنه لزم عُقر الشيء ، أي فِناءه .

٥ لأبي الأسود — وقال أبو الأسود الدؤلي :

دع الخمر يشربْها الغُواةُ فإنني * رأيتُ أخاها مُغْنياً بمكانِها

فإن لا تَكُنْها أو تكنْهُ فإنَّه * أخوها غَذَتْهُ أُمُّهُ بلِبانِها

أصحاب الشراب — وقد شُهر أصحابُ الشراب بسوء العهد ، وقلة الحِفاظ ، وأنهم صديقك ما استغنيتَ حتى تفتقر ، وما عوفيتَ حتى تُنكب ، وما غلب دنانُك حتى تُنزَف ،

١٠ وما رأوك بعيونهم حتى يفقدوك ؛ قال الشاعر :

أرَى كلّ قومٍ يحفظون حريمَهُمْ * وليس لأصحابِ النَّبيذِ حريمُ

إخاؤُهمُ ما دارتِ الكأسُ بينهم * وكلُّهُمُ رَثُّ الحِبالِ سَئومُ

إذا جِئتَهمْ حَيَّوْكَ ألفاً ورحَّبوا * وإن غِبتَ عنهم ساعةً فذَميمُ

فهذا بياني لم أَقُلْ بجهالة * ولكنَّني بالفاسقين عليمُ

١٥ لقصي بن كلاب — وقال قصيّ بن كلاب لبنيه : اجتنبوا الخمر ، فإنها تصلح الأبدان ، وتُفسد الأذهان .

لعدي — وقيل لعدي بن حاتم : مالك لا تشرب الخمر ؟ قال : لا أشرب ما يَشرب عقلي !

وقيل له : مالك لا تشرب النبيذ ؟ قال : معاذ الله أن أُصبح حليم قومي وأمسي سفيههم !

٢٠ ليزيد بن الوليد — وقال يزيد بن الوليد : النشوة تحلُّ الحَبْوة .

لعثمان بن عفان — وقيل لعثمان بن عفان رضي الله عنه : ما منعك من شرب الخمر في الجاهلية ولا حرج عليك فيها ؟ قال : إني رأيتُها تُذهب العقل جملة ، وما رأيت شيئاً يَذهبُ جملة ويعود جملة .

وقال أيضا : ما تغنّيت ، ولا تفتّيت ، ولا شربت خمراً ، ولا مسست فرجى بيدى ، بعد أن خططتُ بها المفصّل .

عبد العزيز بن مروان ونصيب

وقال عبد العزيز بن مروان لنُصيب بن رباح : هل لك فيما يُثمر المحادثة ؟ يريد المنادمة . قال : أصلح الله الأمير ، الشعر مفلفل ، واللون مرمّد ، ولم أقعد إليك بكرم عنصر ، ولا بحسن منظر ، وإنما هو عقلى ولسانى ، فإن رأيتَ أن لا تفرّق بينهما فافعل ! ٥

وربما ذهبت الكأسُ بالبيان ، وغيرت الخلقة ، فيعظم أنف الرجل ويحمرّ ويترهّل .

لجرير فى الأخطل

وقال جرير فى الأخطل :

وشربتَ بعد أبى ظهير وابنِه ٭ سكرَ الدّنانِ كأنّ أنفك دُمّلُ ١٠

شَبه بالدمل فى ورمه وحمرته .

لبعضهم فى حماد

وقال آخر فى حماد الراوية :

نِعْمَ الفتَى لو كان يَعرِفُ وجهَه ٭ ويُقيمُ وقتَ صـلاتِه حَمّادُ

هَدَلَتْ مَشافِرَهُ الدّنانَ ، فأنفُه ٭ مثـلُ القَدومِ يَسنُّها الحـدّاد

وابيضّ من شربِ المدامةِ وجهُه ٭ فبياضُه يومَ الحسابِ سَـواد ١٥

فى أمية بن عبد الله وعبد الملك

ودخل أمية بن عبد الله [بن خالد] بن أسيد على عبد الملك بن مروان وبوجهه أثر ، فقال : ما هذا ؟ فقال : قمتُ بالليل فأصاب البابُ وجهى ! فقال عبد الملك :

رأتنى صريعَ الخمرِ يوماً بسوئها ٭ وللشّاربيها المدمِنيها مَصارِعُ

[قال] فقلت : لا آخذَ اللهُ أميرَ المؤمنين بسوء ظنّه ! فقال : بل آخذك اللهُ بسوء مصرعك ! ٢٠

لحسان

وقال حسان بن ثابت :

تقولُ شعثاء : لو صَحوتَ عنِ الـ ٭ كأسِ لأصبحتَ مُثرِىَ العـددِ

أُنسِى حديثُ النّدْمانِ فى فَلَقِ الصُّبْـ ٭ ـحِ وصـوتُ المُسامِرِ الغَرِدِ

لا أَحْدِسُ الحَدْسَ بالجليسِ ولا * يَخشى نَديمى إذا آنْتَشَيْتُ يدى

لابن الموصلى

وقال ابن الموصلى :

سلامٌ على سيْرِ القلاصِ مع الرَّكْبِ * ووصلِ الغَوانِى والمُدامةِ والشَّرْبِ

سلامَ آمرِئٍ لم تَبقَ منه بقيّـةٌ * سِوى نظرِ العينيْنِ أو شهوةِ القلب

٥ لَعَمرِى لئن نُكِّبْتُ عن مَنهلِ الصِّبا * لقـد كنتُ ورّاداً لِمنهلِه العذب

ليـالىَ أمشى بين بُرْدَىّ لاهِياً * أميسُ كغصنِ البانةِ الناعمِ الرَّطب

الحسن بن زيد وإبراهيم بن هرمة

ويروى أن الحسن بن زيد لما ولى المدينة قال لإبراهيم بن هَرْمة : لا تحسبنى كمن باع لك دينه رجاء مدحِك وخوفَ ذمِّك ، فقـد رزقنى الله بولادةِ نبيِّه المَمادح وجنَّبنى القبائح ، وإن من حقه علىّ أن لا أُغضى على تقصير فى حقِّه ؛
١٠ وإنى أقسم لئن أُتيتُ بك سكران لأضربنَّك حدين : حدَّ الخمر ، وحدَّ السكر ؛ ولأزيدنك لموضع حرمتك بى ؛ فليـكن تركك لها لله تُعَنْ عليه ، ولا تجعله للناس فتُوكَل إليهم ، فنهض ابن هرمة وقال :

نهانِى آبنُ الرسولِ عنِ المُدامِ * وأدّبَـــنى بآدابِ الكِرامِ

وقال لىَ آصطبِرْ عنهـا ودعْها * لِخوْفِ اللهِ لا خوْفِ الأنام

١٥ وكيف تصَبُّرى عنها وحُبِّى * لهـا حُبٌّ تمكّن فى عِظامى

أرَى طيبَ الحلالِ علىّ خُبْثاً * وطيبَ النفسِ فى خُبْثِ الحرام

زياد وحارثة ابن بدر

وذكروا أن حارثة بن بدر الغُدَانى كان فارسَ بنى تميم ، وكان قد غلب على زياد ، وكان الشراب قد غلب عليه ؛ فقيل لزياد : إن هذا قد غلب عليك ، وهو رجل مستهتر بالشراب ! فقال لهم : كيف اطّراحى لرجل ما راكبنى قط فمست
٢٠ ركبتى ركبته ، ولا تقدمنى فنظرت إلى قفاه ، ولا تأخر عنى فلويت إليه عنقى ، ولا سألته عن شىء قط إلا وجدتُ عِلْمَه عنده !

فلما مات زياد جفاه ولده عبيد الله بن زياد ؛ فقال له حارثة : أيها الأمير ، ماهذا الجفاء مع معرفتك بحالى عند أبى المغيرة ؟ فقال له عبيد الله : إن أبا المغيرة

قد برع بروعاً لا يلحقه معه عيب ؛ وأنا حدث ، وإنما أنسب إلى من تغلب علىّ ، وأنت تُديم الشراب ، فدع النبيذ وكن أول داخلٍ وآخر خارج . فقال حارثة : أنا لم أدعه لله ، أفأدَعُه لك ؟ قال : فاختر من عملي ما شئت . قال : ولنى رامَهُرْمُز ؛ فإنها أرض عَذِيَة ، أو سُرَّق ؛ فإن بها شراباً وُصف لى عنها . فولاه إياها ، فلما خرج شيعه الناس ، وكتب إليه أنس بن أبى أنيس : ٥

أحارِ بن بدرٍ قد وليت ولايةً * فكن جُرْذاً فيها تخون وتَسرِقُ

ولا تَحقِرَنْ ياحارِ شيئاً تخونه * فحظك من مُلْكِ العراقين سُرَّقُ

وبارِ تميما بالغنى إنّ للغنى * لساناً به المرء الهَيُوبةُ يَنطق

فإنّ جميع الناس إمّا مُكذِّبٌ * يقول بما يهوَى وإمّا مُصدِّق

يقولون أقوالا ولا يعْلمونها * ولو قيل يوماً حقِّقوا لم يُحقِّقوا ١٠

فوقّع حارثة فى أسفل كتابه : لا يَبْعُد عنك الرشد .

حارثة بن بدر فى حرب الأزارقة

ولما خرجت الأزارقة على أهل البصرة ، لاقاهم حارثة بن بدر وتولى حربَهم فى أصحابه من فرسان بنى يربوع ، حتى أصيب فى تلك الحروب . وقال فيه الشاعر :

فلولا ابن بدرٍ للعراقين لم يقم * لما قام فيه للعراقين إنسانُ ١٥

إذا قيل مَن حامى الحقيقة أومأتْ * إليه مَعَدٌّ بالأكفّ وقحطان

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

شربنا من الدَّاذِيّ حتى كأننا * ملوكٌ لهم فى كلّ ناحيةٍ وفْرُ

فلما آعتلَت شمسُ النهار رأيْتنا * تَخلّى الغنَى عنا وعاودَنا الفقر

أبو الهندى

وكان أبو الهندى من ولد شَبَث بن ربعىّ الرياحى من بنى يربوع وكان قد ٢٠ غلب عليه الشراب على كريم منصبه ، حتى كاد يبطله ، وكان قد ضاف على راع يسمى سالماً ، فسقاه قدحا من لبن ، فكرهه وقال :

سيغْنِى أبا الهندىّ عن وطْب سالمٍ * أباريقُ كالغزْلان بيضٌ نُحورُها

مُقدّمةً قوْا كأن رقابَهــا • رقابُ كراكٍ أفزعتْها صُقورها

فما ذرّ قرنُ الشمس حتى كأنما • أرى قريةً حولى تَزلزل دورها

وكان مجيبا بالجواب ، فجلس إليه رجل كان صُلب أبوه فى جناية ، فجعل يعرّض له بالشراب ، فقال أبو الهندى : أحدهم يبصر القذى فى عين أخيه

٥ ولا يبصر الجِذع المعترض فى آست أبيه .

ولقيه نصر بن سيار والى خراسان وهو يميد سكراً ، فقال له : أفسدْت مروءتك وشرفك ! قال لو لم أُفسد مُروءتى لم تكن أنت والى خراسان !

ومرض أبو الهندى ، فلما وجد فقْد الشراب جعل يبكى ويقول :

رضيع المَدام فارقَ الراحُ رُوحَه • فظلّ عليها مستهلّ المَــدامع

١٠ أدِيرا علىّ الكأس إنى فقدْتُها • كما فقد المفطومُ دَرّ المراضع

وكان يشرب مع قيس بن أبى الوليد الكنانى ، وكان أبو الوليد ناسكا ؛ فاستعدى عليه وعلى ابنه ، فهرب منه ، وقال فيه أبو الهندى :

قل للسّرِىّ آبن هند ظَلْت تُوعدُنا • ودارنا أصبحتْ من داركم صددَا

أبا الوليد أما والله لو عملَتْ • فيك الشُّمُولُ لمَا فارقْتَها أبدا

١٥ ولا نسيت حُمَيّــاها ولذّتها • ولا عدَلت بها مالاً ولا ولدا

وشرب أبو الهندى فى غرفة مع نديم له ، فاطّلع منها فإذا بميّت يُزفّ به على على شَرجع ، فالتفت إلى صاحبه فقال :

اصبُبْ على قلبك من برْدِها • إنى أرى النــاس يموتونا

فكان هذا القول منه [أمارة] على [عدم] اتّعاظه بالموت .

٢٠ وقال عبد الرحمن بن أم الحكم : — لابن أم الحكم

وكأس ترى بين الأثافِى وبينها • قَذى العين ، قد نازعْتُ أمّ أبانِ

ترى شاربِيها حين يَعبَق ريحُها • يميلان أحياناً ويعتدلان

فما ظنُّ ذا الواشِى بأروعَ ماجدٍ • وعذراء خَود حين يلتقيان . . .

دعتْنى أخاها أمُّ عمرو ولم أكن * أخاها ولم أرضعْ لهـا بِلبانِ
دعتْنى أخاها بعد ماكان بيننا * من الأمر ما لا يفعل الأخوانِ

وقال(١) :

لاهنيئاً بمـا شرِبت مريئاً * ثم قم صاغراً وغيرَ كريمِ
لا أحبُّ النَّديم يومِضُ بالعيْـــن إذا ما اتّنى لعُرسِ النديم ٥

الأمون وابن مسعدة

وقال أبو العباس المبرد : دخل عمرو بن مسعدة على المـأمون ، وبين يديه جام زجاج فيه سكر طبرزذ وملح جريش ؛ قال : فسلمت عليه ، فردّ وعرض علىّ الأكل ، فقلت : ما أريد شيئا هنأك الله يا أمير المؤمنين ، فلقد باكرت الغداء قال : بتُّ جائعاً ؟ ثم أطرق ورفع رأسه وهو يقول :

١٠ أعرض طعامَك وآبذُله لمن دخلا * وأعزم على من أبَى واشكر لمن أكلا
ولا تكن سابِرىَّ العِرْضِ مُحتشِما * من القليل فلستَ الدهرَ محتفلا

ودعا برطل ، ودخل شيخ من جِلة الفقهاء فمدّ يده إليه ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ماشربتُها ناشئا ، فلا تسقنيها شيخا . فردّ يده إلى عمرو بن مسعدة ؛ فأخذها منه وقال : يا أمير المؤمنين ، [اللهَ ! الله !] فإنى عاهدت الله فى الكعبة أن لا أشربها ١٥ أبدا ! ففكر طويلا والكأس فى يد عمرو بن مسعدة . فقال :

رُدّا علىّ الكأس إنكما * لاتعلمان الكأس ما تُجدِى
لوذقتما ماذقتُ ما آمتزجتْ * إلا بدمعِكما من الوجدِ
خوّفتمانى اللهَ ربَّـــكما * وكخيفتِيه رجاؤه عنـــدى
إنْ كنتما لاتشربان معى * خوْفَ العقاب شَرِبتُها وحدى

المأمون وابن أكثم وابن طاهر

٢٠ شرب المـأمون ويحيى بن أكثم وعبد الله بن طاهر ، فتغامز المـأمون وعبد الله على سكر يحيى ، فغمز الساقى ، فأسكره ، وكان بين أيديهم رِزم من وردٍ ورياحين ، فأمر المـأمون فشُق له لحدٌ فى الورد والرياحين ، وصيروه فيه ،

(١) ينسب هذان البيتان لأبى عطاء السندى .

وعمل بيتين فى شعر ودعا قينة ، فجلست عند رأسه وحرّكت العود وغنت :

نادَيتُه وهْو حيٌّ لا حَراكَ به * مكفَّنٌ فى ثيابٍ من رياحين
فقلت قم ، قال رِجْلِى لا تطاوعنى * فقلت خذ ، قال كَفِّى لا تواتينى

فانتبه يحيى لرنة العود ، وقال مجيباً لها :

٥ ياسيِّدى وأمير الناس كلِّهم * قد جار فى حُكمه من كان يَسقينى
إنى غفلْتُ عن الساقى فصيرَنى * كما ترانى سليبَ العقل والدِّين
لا أستطيع نهوضاً قد وَهَى جسَدى * ولا أُجيبُ المنادى حين يدعونى
فاختَر لبغْدادَ قاضٍ إنى رجلٌ * الراحُ يقتُلنى والعودُ يُحيينى !

وعود السكارى

حدثنا أبو جعفر البغدادى قال : كان بالجزيرة رجل يبيع نبيذاً فى ناجودٍ له[1]

١٠ وكان بيته من قصب ، وكان يأتيه قوم يشربون عنده ، فإذا عمل فيهم الشراب قال بعضهم لبعض : أما ترون بيت هذا النَّبّاذ من قصب ! فيقول بعضهم : علىّ الآجر ! ويقول الآخر : علىَ الجصّ ! ويقول الآخر : علىّ أجرة العامل ! فإذا أصبحوا لم يعملوا شيئا . فلما طال ذلك على النبَّاذ قال :

لنا بيتٌ يُهــدَم كلَّ يومٍ * ويُصبح حين يُصبحُ جِذْمَ خُصٍّ
١٥ إذا مادارت الأقداحُ قالوا * غــداً نبْنى بآجُرٍ وجِصٍّ
وكيف يُشيِّدُ البُنيانَ قومٌ * يمرّون الشّتاءَ بغير قُمصٍ !

حارثة بن بدر وزياد

ودخل حارثة بن بدر على زياد وبوجهه أثر فقال له : ماهذا ؟ قال : ركبت فرسى الأشقر فصرعنى . قال : أما إنك لو ركبت الأشهب ماصرعك .

أراد حارثة بالأشقر : النبيذ ! وأراد زياد بالأشهب : اللبن .

قيس بن عاصم

٢٠ وكان قيس بن عاصم يأتيه فى جاهليته تاجر خمر ، فيبتاع منه ، ولا يزال الخمار فى جواره حتى ينفد ما عنده ؛ فشرب قيس ذات يوم فسكر سكرا قبيحا ، فجذب ابنته وتناول ثوبها ، ورأى القمر فتكلم بشىء ، ثم انتهب مال الخمار ،

---

(١) فى بعض الأصول : « ماخور له » .

وأنشأ يقول :

مِنْ تاجِر فاجر جاء الإلهُ به * كأن لِحيتَهُ أذنابُ أجمـــالِ
جاء الخبيثُ ببَيْسانيةٍ تركتْ * صَحْبي وأهلي بلا عَقْل ولا مالِ

فلما صحا أخبر بمـا صنع وما قال ، فآلى أن لا يذوق خمرة أبداً .

المأمون — وربمـا بلغت جناية الكأس إلى عقب الرجل ونجله ؛ قال المأمون : يا لُطف الخمار ، وترائع الظُّئور ، وأشباه الخئولة . ٥

لبعض الشعراء — وقال الشاعر :

لَمـا رأيتُ الحظّ حَظّ الجاهل * ولم أرَ المغبُونَ غـيرَ العاقِل
رحلتُ عِيسا من كرومِ بابِلِ * فبِتُّ من عَقْلى على مراحِل !

وقال آخر يصف السكر : ١٠

أقبلتُ من عِنْد زِيادٍ كالخَرِفْ * أُجرُّ رِجلىّ بخطٍ مُختَلِفْ
* كأنمـا يُكتّبان لامَ ألفْ *

وقال آخر يصف السكر :

شرِبْنا شَرْبة من ذاتِ عِرْق * بأطرافِ الزُّجاج من العصيرِ
وأُخرى بالمرَوّح ، ثم رُحنا * نرى العُصْفورَ أعظمَ من بعير ١٥
كأن الدِّيكَ دِيكَ بنى تميمٍ * أميرُ المؤمنـــينَ على السرير
كأنّ دجاجَهُم فى الدّارِ رُقطا * بناتُ الرُّومِ فى قُمصِ الحرير
فبِتُّ أرى الكواكبَ دانياتٍ * ينَلْنَ أناملَ الرَّجلِ القصير
أُدافعُهُنّ بالكفّيْنِ عنّى * وألثمُ لَبّـــةَ القمرِ المنيرِ

وقال الشاعر : ٢٠

دَعِ النّبيذَ تكُنْ عدْلا ، وإن كثُرتْ * فيكَ العُيوبُ ، وقل ما شِئتَ يُحتَملُ
هو المشيدُ بأخبارِ الرجالِ ؛ فمـا * يخفى على الناسِ ماقالوا وما فعلوا

كم زلّةٍ من كريم ظلّ يشهرُها * من دُونِها تستر الأبوابُ والكِلَلُ
أضحتْ كنارٍ على علياء موقدَة * مايستسنُّ لهـا سهلٌ ولا جَبل
والعقلُ عقلٌ مصُونٌ لو يباعُ لقد * ألفيْت يباعَهُ أضعافَ ماسألوا
فاْعجبْ لقومٍ مُناهُم فى عقولِهِمُ * أنْ يُذهِبوها بِعَلٍّ بعـدَهُ نَهل
٥ قد عُقِدَتْ بخمارِ الكأسِ ألسُنُهُمْ * عنِ الصواب ولم يُصبِحْ بها عِلَل
وزُرِّرتْ بِسناتِ النوْمِ أعينُهُم * كأنّ أحداقَها حُولٌ وما حَولوا
تخـالُ رائحَهم من بعْدِ غَدْوتِهم * حُبْلَى أضرَّ بهـا فى مشيها الحَبَل
فإن تكلَّمَ لم يقْصِدِ لحـاجتِهِ * وإن مَشى قلتَ مجنونٌ بهِ خَبلُ

وقال :

١٠ أخو الشَّراب ضائعُ الصَّلاةِ * وضائعُ الحرمةِ والحـاجاتِ
وحالُهُ من أقبح الحـالاتِ * فى نفْسِه والعِرْسِ والبناتِ
أفٍّ له ، أفٍّ إلى أفّاتِ * خمســـة آلاف مُؤلفاتِ

من حدّ من الأشراف فى الخمر وشهر بها

يزيد بن معاوية

منهم يزيد بن معاوية ، وكان يقال له : يزيد الخمور .

يزيد ومسور

١٥ وبلغه أن مِسْور ابن مخرمة يرميه بشرب الخمر ، فكتب إلى عامله بالمدينة أن يجلد مسوراً حدّ الخمر ، ففعل ؛ فقال مِسْور :

أيشرَبُها صرفا بِطينِ دِنانها * أبو خالدٍ ويُضرَبَ الحدَّمِسْورُ؟

الوليد بن عقبة

ومن حُدّ فى الشراب : الوليد بنُ عقبة بن أبى مُعَيط ، أخو عثمان بن عفان لأمه ؛ شهد أهل الكوفة عليه أنه صلى بهم الصبح ثلاث ركعات وهو سكران
٢٠ ثم التفت إليهم فقال : إن شئتم زدتُكم ! فجلده علىُّ بن أبى طالب بين يدى عثمان
وفيه يقول الحطيئة ـ وكان نديمه أبو زيد الطائى :

شَهِدَ الحُطيئةُ يومَ يَلقى ربَّهُ * أنّ الوليدَ أحقُّ بالعذْرِ

نادَى وقد تمّتْ صــــلاتُهمُ * لِيزيدَهم خــــيراً ولا يَدرى

ليزيدهم خيراً ، ولو قَبِلوا * لجمَعْتَ بين الشَّفْعِ والوتر

كَبَحُوا عِنانَك إذ جَرَيْتَ ولو * تركوا عِنانكَ لم تَزلْ تَجرى !

عبد الله بن عمر — ومنهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، شرب بمصر ، فحدّه هناك عمرو بن العاص سرًّا ؛ فلما قدم على عمر جلده حدًّا آخر علانية ! ٥

العباس بن على — ومنهم العباس [بن على] بن عبد الله بن عباس ، كان ممن شهر بالشراب ومنادمة الأخطل ، وفيه يقول الأخطل :

ولقد غَدَوْت على التِّجارِ بمنبِجٍ * هَرَّت عواذِلُهُ هَريرَ الأكلُبِ

لبّاس أرْدِيةِ الملوكِ يَروقُه * من كلِّ مُرْتقَبٍ عيونُ الرَّبْرَبِ

قدامة بن مظعون — ومنهم قدامة بن مظعون ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جلده عمر بن الخطاب بشهادة علقمة الخصى وغيره فى الشراب . ١٠

عبد الرحمن بن عمر — ومنهم عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب المعروف بأبى شحمة ، حدّه أبوه فى الشراب وفى أمر أنكره عليه ؛ [فمات تحت حدّه] !

عبد الله بن عروة — ومنهم عبد الله بن عروة بن الزبير ، حدّه هشام بن إسماعيل المخزومى فى الشراب . ١٥

عاصم بن عمر — ومنهم عاصم بن عمر بن الخطاب ، حدّه بعض ولاة المدينة فى الشراب .

عبد العزيز ابن مروان — ومنهم عبد العزيز بن مروان ، حده عمرو [بن سعيد] الأشدق .

وممن فضح بالشراب بلال بن أبى بردة الأشعرى ، وفيه يقول يحيى بن نوفل الحِميرى :

وأمّا بِلالٌ فذاك الذى * يميلُ الشرابُ بهِ حيثُ مالا ٢٠

يَبيتُ يمُصُّ عتيقَ الشرابِ * كمصِّ الوليدِ يخافُ الفِصالا

ويُصبحُ مُضطرباً ناعساً * تخالُ مَنَ السُّكرِ فيه احْولالا

ويمشي ضعيفا كمشي النزيف * تخالُ به حين يمشي شكالا

ومن شهر بالشراب عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي القاضي بالكوفة ، وفضح بمنادمة سعد بن هبّار ، وفيه يقول حارثة بن بدر :

عبد الرحمن الثقفي

نهارُهُ في قضايا غير عادلةٍ * وليلُه في هوى سعدِ بن هبّارِ

٥ مايسمعُ الناسُ أصواتاًلهم عَرَضت * إلا دَوِيّا ، دَوِيَ النحلِ في الغار

يدينُ أصحـــابَه فيما يدينُهُمُ * كأساً بكأسٍ وتكراراً بتكرار

فأصبح الناسُ أطلاحا أضرَّ بهم * حث المطيِّ وما كانوا بسُفّار

ومنهم أبو مِحْجن الثقفي ، وكان مغرما بالشراب ، وقد حده سعد بن أبي وقاص في الخمر مراراً ، وشهد القادسية مع سعد ، وأبلى فيها بلاء حسنا ؛

أبو محجن الثقفي

١٠ وهو القائل :

إذا مِت فادْفنّي إلى ظلِّ كرمةٍ * تُروِّى عظامي بعد موتى عُرُوقها

ولا تدفننى في الفلاةِ ، فإنني * أخافُ إذا مامت أن لا أذُوقها

ثم حلف بالقادسية ألا يشرب خمراً أبداً ، وأنشأ يقول :

إن كانتِ الخمرُ قد عزّت وقد مُنِعت * وحالَ من دونها الإسلامُ والحرجُ

١٥ فقد أباكـرُها صَهْباء صافيةً * طوْراً ، وأشْرَبُها صِرفاً وأمتزج

وقد تقومُ على رأسِي مُغنّيـــةٌ * فيها إذا رفعت من صوتها غنجُ

تخفِضُ الصوْتَ أحيانا وترْفعه * كما يطِنُّ ذُبابُ الرّوضةِ الهزِج

ومنهم عبد الملك بن مروان ، وكان يسمى حمامة المسجد ، لاجتهاده في العبادة قبل الخلافة ؛ فلما أفضت إليه الخلافة شرب الطّلا .

عبد الملك بن مروان

٢٠ وقال له سعيد بن المسيب : بلغني يا أمير المؤمنين أنك شربت بعدى الطلا ؟ فقال : إى والله ، وقتلت النفس !

ومنهم الوليد بن يزيد ، ذهب به الشراب كل مذهب حتى خُلع وقتل ؛

وهو القائل :

خُذوا مُلككم لا ثبّت الله مُلْككم * ثباتا يُساوى ما حَييتُ عِقالا
دَعوا لى سُلَيْمى والنّبيذَ وقيْنَةً * وكأسا ، ألا حسبى بذلك مالا
أبالمُلْكِ أرجو أن أخَلّدَ فيكم ؟ * ألا رُبّ مُلكٍ قد أُزِيلَ فزالا

حين تسكر المرأة

وسقى قومٌ أعرابيةً مسكرا ، فقالت : أيشرب نساؤكم مثلَ هذا ؟ قالوا : نعم . ٥
قالت : فما يدرى أحدكم مَن أبوه !

إبراهيم بن هرمة

ومنهم إبراهيم بن هرمة ، وكان مغرما بالشراب ، وحدّه عليه جماعة من عمال المدينة ، فلما ألحوا عليه وضاق ذرعُهُ بهم ، دخل إلى المهدى بشعره الذى يقول فيه :

له لحظاتٌ عن حِفافَىْ سريرةٍ * إذا كرّها فيها عقابٌ ونائلُ ١٠
لهم تُرْبةٌ بيضاءُ من آلِ هاشمٍ * إذا اسودَّ من لؤْمِ الترابِ القبائل
إذا ما أتى شيئا مَضى كالذى أتى * وإن قال : إنى فاعلٌ ، فهو فاعِل

فأعجب المهدى بشعره ، وقال : سل حاجتك . قال : تأمر لى بكتاب إلى عامل المدينة أن لا يحدّنى على شراب ! فقال له : ويلك ! كيف نأمر بذلك ؟ لو سألتنى عزل عامل المدينة وتوليتَك مكانه لفعلت . قال : يا أمير المؤمنين لو عزلت ١٥ عامل المدينة ووليتنى مكانه ، أما كنت تعزلنى أيضا وتولى غيرى ؟ قال : بلى قال : فكنت أرجع إلى سيرتى الأولى [فأُحدّ] . فقال المهدى لوزرائه : ما تقولون فى حاجة ابن هرمة ، وما عندكم [فيها] من التلطف ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين ، إنه يطلب ما لا سبيل إليه : إسقاط حدّ من حدود الله ، قال المهدى : إن عندى له حيلة ، إذ أعيتكم حيلته ؛ اكتبوا إلى عامل المدينة : من أتاك بابن هرمة سكرانَ ٢٠ فاضرب ابن هرمة ثمانين واضرب الذى يأتيك به مائة ! فكان ابن هرمة إذا مشى فى أزقة المدينة ، يقول : من يشترى مائة بثمانين . . . ؟

وكان بأَبَج رجل يقال له حميد ، وكان مفتونا بالخمر ، فهجاه ابن عم له ،

حُمَيـــدُ الذى أَمَجٌ دارُه * أخو الخمرِ ذو الشَّيْبةِ الأصلعُ
عَلاه المشيبُ على شُربِها * وكان كريما ـ فما يَنزِع

ودخل حميد يوما على عمر بن عبد العزيز ، فقال له : من أنت ؟ قال :
٥ أنا حميد . قال : حميد الذى ... ؟ قال : والله يا أمير المؤمنين ما شربت مُسكراً
منذ عشرين سنة ، فصدّقه بعض جلسائه ، فقال له : إنما داعبناك .

الفرق بين الخمر والنبيذ

الخمر والنبيذ

أول ذلك أن تحريم الخمر مجمعٌ عليه لا اختلاف فيه بين اثنين من الأئمة
والعلماء ، وتحريم النبيذ مختلَف فيه بين الأكابر من أصحاب النبي صلى الله عليه
١٠ وسلم والتابعين ، حتى لقد اضطر محمد بن سيرين مع علمه وورعه أن يسأل عَبيدة
السَّلمانى عن النبيذ ، فقال له عبيدة : اختلف علينا فى النبيذ . وعَبيدة ممن أدرك
أبا بكر وعمر ؛ فما ظنك بشيء اختلف فيه الناس وأصحاب النبي عليه الصلاة
والسلام متوافرون ، فمن بين مُطلِق له وحظر عليه ، وكل واحد منهم مقيم الحجج
لمذهبه والشواهد على قوله ؟

١٥ والنبيذ كل ما ينبذ فى الدُّبّاء والمزفّت فاشتد حتى يسكر كثيره ، وما لم يشتد
فلا يسمى نبيذا ، كما أنه ما لم يعمل من عصير العنب حتى يشتد لا يسمى خمرا ،
كما قال الشاعر :

نبيذٌ إذا مَرّ الذُّبابُ بِدَنِّه * تقطّرَ أو خرّ الذبابُ وقيذَا

سفيان الثورى

وقيل لسفيان الثورى وقد دعا بنبيذ فشرب منه ووضعه بين يديه :
٢٠ يا أبا عبد الله ، أتخشى الذباب أن يقع فى النبيذ ؟ قال : قبحه الله إن لم يذبّ
عن نفسه !

للأعمش

وقال حفص بن غياث : كنت عند الأعمش وبين يديه نبيذ ، فاستأذن عليه
قوم من طلبة الحديث ، فسترته ؛ فقال لى : لمَ سترتَه ؟ فكرهت أن أقول :

لئلا يراه من يدخل ، فقلت : كرهت أن يقع فيه الذباب . فقال لى : هيهات إنه أمنع من ذلك جانبا !

ولو كان النبيذ هو الخمر التى حرمها الله فى كتابه ، ما اختلف فى تحريمه اثنان من الأمة .

لسحنون ٥ حدث محمد بن وضّاح قال : سألت سُحْنونا ، فقلت : ما تقول فيمن حلف بطلاق زوجته أن المطبوخ من عصير العنب هو الخمر التى حرمها الله فى كتابه ؟ قال : بانت زوجتُه منه .

لابن قتيبة وذكر ابن قتيبة فى كتاب الأشربة أن الله تعالى حرّم علينا الخمر بالكتاب ، والمسْكِرَ بالسنة ، فكان فيه فسحة ؛ فما كان محرّما بالكتاب فلا يحل منه ١٠ لا قليلٌ ولا كثير ، وما كان محرّما بالسُّنة فإن فيه فسحة أو بعضِه ، كالقليل من الديباج والحرير يكون فى الثوب ، والحرير محرّم بالسنة ؛ وكالتفريط فى صلاة الوتر وركعتى الفجر ، وهما سنة ؛ فلا نقول إن تاركهما كتارك الفرائض من الظهر والعصر .

وقد استأذن عبد الرحمن بن عوف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى لباس ١٥ الحرير لبليّة كانت به .

وأذن لعرفجة بن سعد — وكان أصيب أنفه يوم الكلاب — باتخاذ أنف من الذهب .

وقد جعل الله فيما أحلّ عِوضاً مما حرم ؛ فحرّم الربا وأحل البيع ، وحرم السفاح وأحل النكاح ، وحرم الديباج وأحل الوشْى ، وحرم الخمر وأحل النبيذ ٢٠ غيرَ المسكر ؛ والمسكر منه ما أسكرك .

مناقضة ابن قتيبة فى قوله فى الأشربة

قال فى كتابه : فإن قال قائل : إن المنكَر هى الشّربة المسكِرة ، أكذبه النظر ؛ لأن القدح الأخير إنما أسكر بالأول ، وكذلك اللقمة الأخيرة إنما أشبعت

بالأولى . ومن قال السكر حرام ، قال : فإنما ذلك مجاز من القول ، وإنما يريد : ما يكون منه السكرُ حرامٌ ، وكذلك التخمة حرام .

وهذا الشاهد الذى استشهد به فى تحريمه قليلَ ما أسكر كثيرُه ، وتشبيهه ذلك بالتخمة ـ شاهدٌ عليه لا شاهد له ؛ لأن الناس مجمعون على أن قليل الطعام الذى ٥ تكون منه التخمة ، حلال ؛ وأن التخمة حرام ؛ وكذلك ينبغى أن يكون قليل النبيذ الذى يُسكر كثيره حلالا ، وكثيرُه حراما ، وأن الشربة الأخيرة المسكِرة هى المحرّمة .

ومثل الأربعة أقداح التى يُسكر منها القدحُ الرابع ، مثل أربعة رجال اجتمعوا على رجل ، فشجّه أحدهم مُوضِحة ، ثم شجه الثانى منقلة ، ثم شجه الثالث مأمومة ، ١٠ ثم أقبل الرابع فأجهز عليه ؛ فلا نقول إن الأول ، هو قاتله ، ولا الثانى ، ولا الثالث ، وإنما قتله الرابع الذى أجهز عليه وعليه القَوَد .

وذكر ابن قتيبة فى كتابه ، بعد أن ذَكر اختلاف الناس فى النبيذ وما أدلى به كل قوم من الحجة ، فقال : وأعدلُ القول عندى أن تحريم الخمر بالكتاب ، وتحريم النبيذ بالسنة ، وكراهية ما تغيّر وخدّر من الأشربة تأديب . . .

١٥ ثم زعم فى هذا الكتاب بعينه أن الخمر نوعان : فنوع منهما أُجمِع على تحريمه : وهو خمرُ العنب من غير أن تمسه نار ، لا يحل منه لا قليل ولا كثير ؛ ونوع آخر مختلَف فيه ، وهو نبيذ الزبيب إذا اشتد ، ونبيذ التمر إذا صلب ، ولا يسمى سَكَراً إلا نبيذ التمر خاصة .

وقال بعض الناس : نبيذ التمر حل وليس بخمر . واحتجوا بقول عمر : فما ٢٠ انتزع بالماء فهو حلال ، وما انتزع بغير الماء فهو حرام .

قال ابن قتيبة : وقال آخرون : هو خمر حرام كله . وهذا هو القول عندى ؛ لأن تحريم الخمر نزل وجمهور الناس مختلفة ، وكلها يقع عليها هذا الاسم فى ذلك الوقت .

خمور البلاد

وذكر أن أبا موسى قال : خمر المدينة من البسر والتمر ، وخمر أهل فارس من العنب ، وخمر أهل اليمن من البِتْع ، وهو نبيذ العسل ؛ وخمر الحبشة السكركة وهى من الذرة ؛ وخمر التمر يقال له : البتع ، والفضيخ .

مم تصنع الخمر

وذكر أن عمر قال : الخمر من خمسة أشياء : من البر ، والشعير ، والتمر ، والزبيب . والعسل . والخمر ما خامر العقل . ولأهل اليمن أيضاً شراب من الشعير ٥ يقال له المِزْر . ويزعم ههنا ابن قتيبة أن هذه الأشربة كلها خمر ، وقال : هذا هو القول عندى . وقد تقدم له فى صدر الكتاب أن النبيذ لا يسمى نبيذا حتى يشتد ويُسكر كثيره ، كما أن عصير العنب لا يسمى خمرا حتى يشتد . وأن صدر هذه الأمة والأئمة فى الدين لم يختلفوا فى شىء كاختلافهم فى النبيذ وكيفيته ...

ثم قال فيما حكم بين الفريقين : أما الذين ذهبوا إلى تحريمه كلّه ولم يفرقوا ١٠ بين الخمر وبين نبيذ التمر ، وبين ما طبخ وبين ما أُنقع ، فإنهم غلوا فى القول جدا ، ونحلوا قوما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم البَدريِّين ، وقوما من خيار التابعين ، وأئمةً من السلف المتقدمين ، شُرب الخمر ، وزيّنوا ذلك بأن قالوا : شربوها على التأويل وغلطوا فى ذلك . فاتهموا نظرهم ونحلوهم الخطأ ، وبرءوا أنفسهم منه . ١٥

فعجبت منه كيف يعيب هذا المذهب ، ثم يتقلده ، ويطعن على قائله ثم يقول به ! إلا أنى نظرت إلى كتابه ، فرأيته قد طال جدا . فأحسبه أُنسىَ فى آخره ماذهب إليه فى أوله ؛ والقول الأول من قوله هو المذهب الصحيح الذى تأنس إليه القلوب وتقبله العقول ، لا قوله الآخر الذى غلط فيه !

احتجاج المحرمين لقليل النبيذ وكثيره ٢٠

ذهبوا أجمعون إلى أن ما أسكر كثيره من الشراب فقليله حرام كتحريم الخمر وقال بعضهم : بل هو الخمر بعينها ، ولم يفرقوا بين ما طبخ وبين ما أُنقع ، وقضوا عليه كله أنه حرام ؛ وذهبوا من الأثر إلى حديث رواه عبد الله بن قتيبة عن محمد

ابن خالد بن خداش عن أبيه عن حماد بن زيد عن أيوب عن نافع عن ابن عمر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كل مسكر حرام، وكل مسكر خمر».

وحديث رواه ابن قتيبة عن إسحاق بن راهَويه عن المعتمر بن سليمان عن ميمون ابن مهدى عن أبى عثمان الأنصارى عن القاسم عن عائشة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كل مسكر حرام، وما أسكر منه الفَرق فالحَسْوة منه حرام». ٥

مكاييل العرب

والفرق ستة عشر رطلا. وللعرب أربعة مكاييل مشهورة: أصغرها المُدّ وهو رطل وثلث فى قول الحجازيين، ورطلان فى قول العراقيين. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ بالمد.

والصاع: وهو أربعة أمداد، خمسة أرطال وثلث فى قول الحجازيين، وثمانية أرطال فى قول العراقيين. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغتسل بالصاع. ١٠

والقِسْط: وهو رطلان وثلثان فى قول الناس جميعاً.

والفَرق: وهو ستة عشر رطلا، ستة أقساط فى قول الناس أجمعين.

... وذهبوا إلى حديث رواه ابن قتيبة عن محمد بن عبيد عن ابن عيينة عن الزهرى عن أبى سلمة عن عائشة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كل شراب أسكر فهو حرام». مع أشياء كهذا من الحديث، يطول الكتاب باستقصائها إلا أن هذه أغلظها فى التحريم وأبعدها من حيلة المتأول. ١٥

قالوا: والشاهد على ذلك من النظر، أن الخمر إنما حرّمت لإسكارها وجناياتها على شاربها، ولأنها رجس كما قال الله.

ثم ذكروا من جنايات الخمر ما قد ذكرناه فى صدر كتابنا هذا من آفات الخمر وجناياتها، ثم قالوا: والعلة التى لها حُرمت الخمر من الإسكار والصداع والصد عن ذكر الله وعن الصلاة، قائمة بعينها فى النبيذ كلّه المسكر، فسبيله سبيل الخمر، لا فرق بينهما فى الدليل الواضح والقياس الصحيح؛ كما أن حديث النبي صلى الله عليه وسلم فى الفأرة إذا وقعت فى السمن: أنه إن كان جامداً أُلقيت وأُلقى ٢٠

ما حولها ، وإن كان جارياً أريق السمن : فحملت العلماء الزيت ونحوه محمل السمن بالدليل الصحيح .

وعلمت أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد إلى السمن خاصة بنجس الفأرة ، وإنما سئل عن الفأرة تقع فى السمن فأفتى فيه ، فقاس العلماء الزيت وغيره بالسمن . . . ٥

... وكما أمر بالاستنجاء بثلاثة أحجار للتنقية من الأذى ، فأجازوا كل ماأنقى من الخزف والخرق وغير ذلك ، وحملوه محمل الأحجار الثلاثة ، ولما حرّمت الخمر بعلّة هى قائمة فى النبيذ المسكر ، حُمل النبيذ محمل الخمر فى التحريم .

قالوا : ووجدناهم يقولون لمن غلب عليه غَثَثُ النفس وصداع الرأس من الخمر : مخمور ، وبه خُمَار ، ويقال مثل ذلك فى شارب النبيذ ، ولايقولون : منبوذ ولا به نُباذ . والخمار مأخوذ من الخمر ، كما يقال الكُبَاد فى وجع الكبد ، والصدار فى وجع الصدر . ١٠

... وذهبوا فى تحريم النبيذ إلى حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه نهى أن ينبذ فى الدبّاء والمزفّت .

... وقالوا : لمن أجاز قليل ماأسكر كثيره : إنه ليس بين شارب المسكر وموافقة السكر حد يُنتهى إليه ولا يوقَف عنده ، ولا يعلم شارب المسكر متى يسكر ، كما لا يعلم الناس متى يرقد ؛ وقد يشرب الرجل من الشراب المسكر قدحين وثلاثة أقداح ولا يسكر ، ويشرب منه غيره قدحاً واحداً فيسكر ؛ لأنه قد يختلف طبع الرجل فى نفسه ، فيسكر مرة من القدحين ، ويشرب مرة أخرى ثلاثة أقداح فلا يسكر . ١٥ ٢٠

رسالة عمر بن عبد العزيز إلى أهل الأمصار

فى الأنبـــذة

« أما بعد فإن الناس كان منهم فى هـذا الشراب المحرم أمر ساءت فيه رِعَة

كثير منهم ، [وجمعوا مما يغشون به مما حرم الله حراما كثيراً نهوا عنه] عند سَفَه أحلامهم ، وذهاب عقولهم ، فاستُحلّ به الدم الحرام ، والفرْجُ الحرام ؛ وأن رجالا منهم ممن يصيب ذلك الشراب يقولون : شربنا طِلاء ، فلا بأس علينا فى شربه ! ولعمرى فيما قرّب مما حرّم الله بأساً ، وإن فى الأشربة التى أحل الله ، ومن العسل والسويق ، والنبيذ والتمر ، لمندوحة عن الأشربة الحرام ، غير أن كل ما كان من نبيذ العسل والتمر والزبيب فلا ينبذ إلا فى أسقية الأدم التى لازفت فيها ، ولا يشرب منها ما يُسكر ! فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن شرب ما جُعل فى الجرار والدُّباء والظروف المزفتة ، وقال : «كل مسكر حرام» . فاستغنوا بما أحلّ لكم عما حرّم عليكم ؛ وقد أردت بالذى نَهيت عنه من شرب الخمر وما ضارع الخمر من الطلاء ، وما جعل فى الدباء والجرار والظروف المزفتة ، وكل مسكر — اتخاذ الحجة عليكم ؛ فمن يُطع منكم فهو خير له ، ومن يخالف إلى ما نهى عنه نعاقبه على العلانية ، ويكفينا الله ما أسرّ ، فإنه على كل شىء رقيب ؛ ومن استخفّ بذلك عنا فإن الله أشد بأساً وأشد تنكيلا ! » .

احتجاج المحلين للنبيذ كله

قال المحلُّون لكل ما أسكر كثيره من النبيذ : إنما حُرمت الخمر بعينها ، خمر العنب خاصة ، بالكتاب ، وهى معقولة مفهومة ، لا يمترى فيها أحد من المسلمين ، وإنما حرمها الله تعبُّدا ، لا لعلة الإسكار كما ذكرتم ، ولا لأنها رجس كما زعمتم ؛ ولو كان ذلك كذلك لما أحلها الله للأنبياء المتقدمين ، والأمم السالفين ، ولا شربها نوح بعد خروجه من السفينة ، ولا عيسى ليلة رفع ، ولا شربها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى صدر الإسلام .

وأما قولكم إنها رجس ، فقد صدقتم فى اللفظ وغلطتم فى المعنى ؛ إذا كنتم أردتم أنها منتنة ؛ فإن الخمر ليست منتنة ، ولا قذرة ولا وصَفَها أحد بنتن ولا قذر وإنما جعلها الله رجسا بالتحريم ، كما جعل الزنا فاحشة ومقتا ، أى معصية وإنما

بالتحريم ؛ وإنما هو جماع كجماع النكاح ، وهو عن تراض وبذل ، كما أن النكاح عن تراض وبذل ؛ وقد يبذل فى السفاح ما لا يبذل فى النكاح ؛ ولذلك سمّى الله تبارك وتعالى المحرّمات كلها خبائث فقال تعالى : ﴿ ويُحرّمُ عليهم الخبائث ﴾ ؛ وسمى المحلّلات كلها طيبات ، فقال : ﴿ يسألونكَ ماذا أُحلّ لهم قل أُحلّ لكم الطّيّبات ﴾ ؛ وسمى كل ما جاوز أمره أو قصر عنه سَرَفا ، وإن اقتصد فيه . ٥

وقد ذَكر الخمر فيما امتنّ به على عباده قبل تحريمها . فقال تعالى : ﴿ ومن ثمرَاتِ النّخيلِ والأعْنابِ تتّخذون منه سَكَرًا ورزقًا حسنا ﴾ . ولو أنها رجس على ما تأوّلتم ما جعلها الله فى جنته وسماها لذة للشاربين . وإن قلتم إن خمر الجنة ليست كخمر الدنيا ، لأن الله نفى عنها عيوب خمر الدنيا فقال تعالى : ﴿ لا يُصَدّعون عنها ولا يُنزَفون ﴾ ، فكذلك قوله فى فاكهة الجنة : ﴿ لا مقطوعةٍ ولا ممنوعة ﴾ . ١٠ فنفى عنها عيوب فواكه الدنيا ، لأنها تأتى فى وقت وتنقطع فى وقت ، ولأنها ممنوعة إلا بالثمن ، ولها آفات كثيرة ، وليس فى فواكه الجنة آفة .

وما سمعنا أحدا وصف الخمر إلا بضد ما ذكرتم ، من طيب النسيم ، وذكاء الرائحة .

وقال الأخطل :

كأنها المسكُ نُهْبَى بين أرحُلِنا * وقد تضوّع من ناجُودِها الجارِى ١٥

وقال آخر :

فتنفّسَت فى البيت إذ مُزِجت * كتنفُّس الرّيحان فى الأنف

وقال أبو نواس :

نحن نُخفيها فيأبى * طِيبُ ريحٍ فتفوحُ

... وإنما قوله فيها : رِجْسٌ ، كقوله تعالى : ﴿ وأمّا الذين فى قلوبهم مرضٌ فزادَتهم رِجسًا إلى رجسِهِم ﴾ أى كفرًا إلى كفرهم . ٢٠

وأما منافعها التى ذكرها الله تعالى فى قوله : ﴿ يسألونكَ عن الخمرِ والمَيْسِرِ قل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناس وإثمُهما أكبرُ من نفعِهما ﴾ فإنها كثيرة

لا تحصى : فمنها أنها تدرّ الدم ، وتقوى المعدة ، وتصفى اللون ، وتبعث النشاط ، وتفتق اللسان ، ما أُخذ منها بقدر الحاجة ولم يجاوز المقدار ، فإذا جاوز ذلك عاد نفعها ضررا .

وقال ابن قتيبة فى كتاب الأشربة : كانت بنو وائل تقول : الخمر حبيبة ٥ الروح ، ولذلك اشتق لها اسم من الروح ، فسميت راحا ، وربما سميت روحا .

وقال إبراهيم النظام :

مازلتُ آخُذ رُوحَ الدَّنِّ فى لَطَفٍ * وأستبيحُ دمًا من غير مذبوحِ

حتى انثنيتُ ولى رُوحانِ فى جسدى * والدَّنُّ مُطَّرَحٌ ، جسمٌ بلا روحِ

وقد تسمى دما ، لأنها تزيد فى الدم ؛ قال مسلم بن الوليد الأنصارى :

١٠ مَزَجْنا دمًا من كَرْمةٍ بدمائنا * فأظهرَ فى الألوان منّا الدمَ الدمُ

لابن قتيبة — قال ابن قتيبة : وحدثنى الرياشى أن عبيدا راوية الأعشى قال : سألت الأعشى عن قوله :

وسُلافةٍ مما تعتّق بابلٌ * كدم الذبيح سلبْتُها جِرْيالَها

فقال : شربتها حمراء ، وبُلتها بيضاء . يريد أن حمرتها صارت دما .

١٥ ومن منافع الخمر أنها تزيد فى القوة ، وتولد الحرارة[1] ، وتهيج الأنفة ، وتسخّى البخيل ، وتشجع الجبان .

لحسان — قال حسان بن ثابت :

ونشرَبُها فتتركنا مُلوكا * وأُسْدًا ما يُنَهْنِهُنا اللقاءُ

لطرفة — وقال طرفة :

٢٠ وإذا ما شربُوها وانتشَوْا * وهَبوا كلَّ أَمُونٍ وطِمِرْ

ثم راحُوا عَبق المِسكِ بهم * يلْحفون الأرضَ هُدّابَ الأُزُرْ

(١) فى بعض الأصول : « تزيد فى الهمة ، وتولد الجرأة » .

لمسلم — وقال مسلم بن الوليد :

تصدّ بنفس الخمر عما يغمّه * وتُنطق بالمعروف ألسنة البخلِ

لابن هانئ — وقال الحسن بن هانئ :

إذا ما أتتْ دون اللّهاةِ من الفتى * دعا همّه من صدره برحيلِ

لبعض المحدثين — ومن تسخيتها للبخيل المجبول قول بعض المحدثين : ٥

كساني قميصاً مرّتين إذا انتشى * وينزعُه عنى إذا كان صاحيا

فلى فرحةٌ فى سُكره بقميصه * وفى الصحْو روْعات تُشيب النواصيا

فياليت حظّى من سرورى وترْحتى * ومن جُوده ألّا علىّ ولا ليا

قالوا : ولولا أن الله تعالى حرّم الخمر فى كتابه لكانت سيدة الأشربة ؛ وماظنك بشراب الشربة الثانية منه أطيب من الأولى ، والثالثة أطيب من الثانية ، ١٠ حتى يؤدّيك إلى أرفق الأشياء وهو النوم ؛ وكل شراب سواها فالشربة الأولى أطيب من الثانية ، والثانية أطيب من الثالثة ، حتى تمله وتكرهه !

لأعرابى — وسقى قوم أعرابيا كئوسا ، ثم قالوا : كيف تجدُك ؟ قال : أجدنى أسَرّ ، وأجدكم تُحبّبون إلىّ .

وقالوا : ما حرّم الله شيئاً إلا عوّضنا ما هو خيرٌ منه أو مثله ، وقد جعل الله ١٥ النبيذ عوضاً من الخمر ، نأخذ منه ما يطيب النفس ، ويُصفى اللون ، ويهضم الطعام ، ولا نبلغ منه إلى ما يُذهب العقل ، ويصدع الرأس ، ويُغْثِى النفس ، ويشرك الخمر فى آفاتها وعظيم خبائثها .

قالوا : وأما قولكم إن الخمر كلّ ما خمر ، والنبيذ كله يخمّر فهو خمر ، فإن الأسماء قد تتشاكل فى بعض المعانى ، فتسمى ببعضها لعلة فيها وهى فى آخر ، ٢٠ ولا يُطلَق ذلك الاسم على الآخر ؛ ألا ترى أن اللبن قد يخمرونه بروبة تُلقى فيه ، ولا يسمى خمرا ؟ وأن العجين قد يخمر فيسمى خميراً ولا يسمى خمرا ؟ وأن نقيع التمر يسمى سكراً لإسكاره ، ولا يسمى غيره من النبيذ سكرا وإن كان

مسكرا ؟ وهذا أكثر فى كلام العرب من أن يُحاط به ؛ وقد رأيت اللبن يسكر إسكارا كسكر النبيذ ، ويقال : قوم ملبونون وقوم رَوْبَى ، إذا شربوا الرائب فسكروا منه ؛ وقال بشر بن أبى حازم :

فأما تميمٌ تميمُ بن مُرّ ٭ فألفاهمُ القومُ رَوْبَى نياما

٥ وأما قولكم : الرجل مخمور ، وبه خمار ، إذا أصابه صداع من الخمر ؛ وقد يقال مثل ذلك لمن أصابه صداع من النبيذ ، فيقال : به خمار ، ولا يقال به نُباذ ؛ فإن حجتنا فى ذلك أن الخمار إنما يكون بما أسكر من النبيذ ، وذلك حرام ، لا فرق بينه وبين الخمر عندنا ، فيقال فيه : ما يقال فى الخمر ، وإنما كان شَرَبَة النبيذ من أسلافنا يشربون منه اليسير على الغداء والعشاء ، وما لا يعرض منه خمار .

١٠ وقد فرقت الشعراء بين النبيذ والخمر ، فقال الأقيشر ، وكان مغرما بالشراب: للأقيشر

وصهباء جُرجانية لم يَطف بها ٭ حنيفٌ ، ولم تنْغَر بها ساعةً قِدْرُ

أتانى بها يَحْيي وقد نِمتُ نومة ٭ وقد غارتِ الشّعرى وقد خَفق النَّسر

فقلتُ اصطبِحْها أولغيرى فأهْدِها ٭ فما أنا بعدَ الشَّيْبِ ويلَكَ والخمر!

إذا المرءُ وافى الأربعينَ ولم يكُن ٭ له دُون ما يأتى حياءٌ ولا سِتر

١٥ فدَعْهُ ولا تنْكِر عليه الذى أتى ٭ وإن جَرَّ أرسانَ الحياةِ له الدهْرُ

فأعلمك أن الخمر هى التى لم تغلِ بها القدور .

وأما قول بعض الشعراء فى شاربى النبيذ وما عابوهم به من قلة الوفاء ونقض العهد ، فقد قالوا أقبح من ذلك فى تارك النبيذ ، قال حيص بيص [1] : أدعياء النسك

ألا لا يَغرَّنْكَ ذو سجدَةٍ ٭ يَظَلُّ بها دائما يَخْدعُ

---

٢٠ (١) فى بعض الروايات أن قائل هذا الشعر هو حمزة بن بيض . وسببه ، أن رجلا من أصحابه استودع ناسكا ثلاثين ألف درهم ، واستودع مثلها رجلا من أصحاب النبيذ ؛ فأما الناسك فبنى بها داره وتزوج وأنفقها وجحدها ، وأما أخو الكأس فأدى إليه الأمانة ، فقال ابن بيض فيهما هذا الشعر .

[كأن بجبهته حلبة * يسبّح طوراً ويسترجعُ]
وما للتُّقى لَزِمَتْ وجْهَهُ * ولكنْ ليأتِيَ مُستودِعُ
ثلاثون ألفاً حَواها السُّجودُ * فليست إلى ربِّها ترجِع
وردَّ أخو الكأسِ ما عنْدَه * وما كنتُ فى ردِّه أطمَع

وقال آخر : ٥

أمّا النَّبيذ فلا يذعَرْك شارِبُه * واحفظْ ثيابكَ من يشرب الماء
قومٌ يوَرُّونَ عمّا فى نفوسِهِمُ * حتى إذا استمكنوا كانوا هُمُ الدّاء
مُشمِّرين إلى أنصافِ سُوقِهِمُ * هُمُ الذِّئابُ وقد يُدْعَوْنَ قرّاء

وقال أعرابىّ :

صلَّى فأعجبَنى وصامَ فراعَنى * نحِّ القَلوصَ عن المُصلِّى الصائمِ ١٠

وقال :

شمِّر ثيابَكَ واستَعِدَّ لقائلٍ * واحكُكْ جبينَكَ للقضاء بِثومِ
وامْشِ الدبيبَ إذا مشَيتَ لحاجةٍ * حتى تُصيبَ وديعــةً لِيتيم

وقال بعض الظرفاء :

أظهَرُوا والله سَمْتاً * وعلى المنقوشِ داروا ١٥
وله صلَّوْا وصاموا * وله حجُّوا وزاروا
لو يُرى فوقَ الثُّرَيّا * ولهم ريشٌ لطاروا !

فهؤلاء المراءون بأعمالهم ، العاملون للناس والتاركون للناس ، هم شرار الخلق وأراذل البرية .

وقد فضل شَرَبَةُ النبيذ عليهم بإرسال الأنفس على السجية ، وإظهار المروءة ٢٠ ولست أصف بهذا منهم إلا ديِّنا ، فليس فى الناس صنف إلا ولهم حشو .

ومن احتجاج المحلين للنبيذ

ما رواه مالك بن أنس فى موطئه من حديث أبى سعيد الخدرى : أنه قدم من سفر فقدّم إليه لحم من لحوم الأضاحى ، فقال : ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاكم عن هذا بعد ثلاثة أيام ؟ فقالوا : قد كان بعدك من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها أمر . فخرج إلى الناس فسألهم ، فأخبروه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كنت نهيتكم عن لحوم الأضاحى بعد ثلاثة أيام ، فكلوا وادّخروا وتصدقوا ؛ وكنت نهيتكم عن الانتباذ فى الدباء والمزفّت ، فانتبذوا وكل مسكر حرام ؛ وكنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها ولا تقولوا هُجرا » . والحديثان صحيحان ، رواهما مالك بن أنس وأثبتهما فى موطئه ، وإنما هو ناسخ ومنسوخ ؛ وإنما كان نهيه أن يُنتبذ فى الدباء والمزفت ، نهيا عن النبيذ الشديد ؛ لأن الأشربة فيهما تشتد ؛ ولا معنى للدباء والمزفت غير هذا . وقوله بعد هذا : « كنت نهيتكم عن الانتباذ فانتبذوا ، وكل مسكر حرام » ـ إباحة لما كان حظر عليهم من النبيذ الشديد . وقوله صلى الله عليه وسلم : « كل مسكر حرام » ، ينهاكم بذلك أن تشربوا حتى تسكروا ، وإنما المسكر ما أسكرك ، ولا يُسمى القليل الذى لا يُسكر مُسكرا ، ولو كان ما يسكر كثيره يسمى قليله مسكرا ، ما أباح لنا منه شيئا ؛ والدليل على ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم شرب من سقاية العباس ، فوجده شديدا ، فقطب بين حاجبيه ، ثم دعا بذَنوب من ماء زمزم فصب عليه ، ثم قال : إذا اغتلمت أشربتكم فاكسروها بالماء . ولو كان حراما لأراقه ، ولما صب عليه ماء ثم شربه .

وقالوا فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مسكر خمر » : هو ما أسكر الفرقُ منه فملء الكف حرام ؛ فإن هذا كله منسوخ ، نسخه شربه للصُّلب يوم حجة الوداع .

قالوا : ومن الدليل على ذلك أنه كان ينهى وفد عبد القيس عن شرب المسكر

فوفدوا إليه بعد، فرآهم مصفرةً ألوانهم، سيئة حالهم؛ فسألهم عن قصتهم، فأعلموه أنه كان لهم شراب فيه قوام أبدانهم فنعهم من ذلك؛ فأذن لهم فى شربه.

... وأن ابن مسعود قال: شهدنا التحريم وشهدتم، وشهدنا التحليل وغبتم. وأنه كان يشرب الصُّلب من النبيذ التمر[1]، حتى كثرت الروايات به عنه وشهرت وأذيعت، واتبعه عامة التابعين من الكوفيين وجعلوه أعظم حُجَجِهم، وقال فى ذلك شاعرهم:

مَن ذا يُحرّمُ ماءَ المُزْنِ خالطَهُ * فى جوفِ خابيةٍ ماءُ العناقيدِ؟
إنى لأكرهُ تشديدَ الرواةِ لنا * فيه، ويُعجبنى قولُ ابنِ مسعودِ!

وإنما أراد أنهم كانوا يعمدون إلى الرُّب الذى ذهب ثلثاه وبقى ثلثه، فيزيدون عليه من الماء قدرَ ما ذهب منه، ثم يتركونه حتى يغلى ويسكن جأشه، ثم يشربونه.

وكان عمر يشرب على طعامه الصلب، ويقول: يقطع هذا اللحمَ فى بطوننا.

واحتجوا بحديث زيد بن أخزم عن أبى داود عن شعبة عن مسعر بن كدام عن ابن عون الثقفى عن عبد الله بن شداد عن ابن عباس أنه قال: حُرمت الخمر بعينها والسكر من كلّ شراب.

وبحديث رواه عبد الرحمن بن سليمان عن يزيد بن أبى زياد عن عكرمة عن ابن عباس: أن النبى صلى الله عليه وسلم طاف وهو شاكٍ على بعير ومعه محجن، فلما مر بالحجر استلمه بالمحجن، حتى إذا انقضى طوافه نزل فصلى ركعتين ثم أتى السقاية فقال: اسقونى من هذا. فقال له العباس: ألا نسقيك مما يصنع فى البيوت؟ قال: لا، ولكن اسقونى مما يشرب الناس. فأُتى بقدح من نبيذ زَبيبٍ، فقطب، وقال: هلمّوا فصبّوا فيه الماء. ثم قال: زد فيه، مرة أو مرتين أو ثلاثا. ثم قال: إذا صنع أحد بكم هذا فاصنعوا به هكذا.

(١) فى بعض الأصول: «نبيذ الجر».

والحديث رواه يحيى بن اليمان عن الثورى عن منصور بن خالد عن سعيد عن ابن مسعود الأنصارى : أنّ النبي صلى الله عليه وسلم عطش وهو يطوف بالبيت ، فأُتى بنبيذ من السقاية ، فشمّه ، فقطب ، ثم دعا بذنوب من ماء زمزم ، فصُبّ عليه ثم شربه ، فقال له رجل : أحرام هذا يارسول الله ؟ فقال : لا .

٥ وقال الشعبي : شرب أعرابى من إداوة عمر ، فانتشى ، فحدّه عمر ؛ وإنما حدّه للسكر لا للشراب .

ودخل عمر بن الخطاب رضى الله عنه على قوم يشربون ويوقدون فى الأخصاص ؛ فقال : نهيتكم عن معاقرة الشراب فعاقرتم ، وعن الإيقاد فى الأخصاص فأوقدتم .

١٠ وهمّ بتأديبهم ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، نهاك الله عن التجسس فتجسست ، ونهاك عن الدخول بغير إذن فدخلت !

فقال : هاتان بهاتين .

وانصرف وهو يقول : كل الناس أفقهُ منك يا عمر !

وإنما نهاهم عن المعاقرة وعن إدمان الشراب حتى يسكروا ، ولم ينهم

١٥ عن الشراب ـ وأصل المعاقرة من عُقْر الحوض ، وهو مقام الشاربة ـ ولو كان عنده ما شربوا خمراً لحدّهم .

وبلغه عن عامل له بميسان أنه قال[1] :

ألا أبلِغ الحسناء أن حليلَها ... بميْسان يُسقَى فى زجاجٍ وحَنْتَمِ

إذا شئتُ غنتنى دهاقينُ قـــريةٍ ... وصنّاجةٌ تشدو على كلّ منسم

٢٠ فإن كنتَ ندمانى فبالأكبر اسقِنى ... ولا تَسْقِنى بالأصـــغر المُتثلِّم

لعـــلّ أميرَ المؤمنين يسوءه ... تنادُمُنـــا فى الجوْسق المتهدّم

فقال : إى والله ، إنه ليسوءنى ذلك !

(١) هو النعمان بن نضلة .

نعزله وقال : والله لا تَعمِلَ لى عملا أبدا ! وإنما أنكر عليه المدام ، وشُربَه بالكبير ، والصنج ، والرقص ، وشُغلَه باللهو عما فوّض إليه من أمور الرعية ، ولو كان ما شَرب عنده خمراً لحدّه .

مالك بن دينار والنبيذ

محمد بن وضاح عن سعيد بن نصر عن يسار عن جعفر قال : سمعت مالك ابن دينار ، وسُئل عن النبيذ : أحرام هو ؟ فقال : انظرْ ثمنَ التمر من أين هو ، ٥
ولا تسأل عن النبيذ أحلال هو أم حرام !

سعيد بن زيد

وعوتب سعيد بن زيد فى النبيذ ، فقال : أما أنا فلا أدعه حتى يكون شرّ عملى .

محمد بن واسع

وقيل لمحمد بن واسع : أتشرب النبيذ ؟

فقال : نعم . ١٠

فقيل : وكيف تشربه ؟

فقال : عند غدائى وعشائى ، وعند ظمَئى .

قيل : فما تركتَ منه ؟

قال : التّكأة ومحادثة الإخوان .

المأمون

وقال المأمون : اشرب النبيذ ما استبشعته ، فإذا سهل عليك فدعْه . ١٥

وإنما أراد أنه يَسهل على شاربه إذا أخذ فى الإسكار .

سعيد بن أسلم

وقيل لسعيد بن أسلم : أتشرب النبيذ ؟

فقال : لا .

قيل : ولم ؟

قال : تركت كثيره لله ، وقليله للناس ! ٢٠

سفيان الثورى

وكان سفيان الثورى يشرب النبيذ الصلب الذى تحمرّ منه وجنتاه .

واحتجوا من جهة النظر ، أن الأشياء كلها حلال إلا ما حرّم الله ؛ قالوا : فلا نزيل نفس الحلال بالاختلاف ولو كان المحلّلون فرقة من الناس ، فكيف

وهم أكثر الفرق ؟

وأهل الكوفة أجمعون على التحليل ، لا يختلفون فيه ، وتلوا قول الله عز وجل ﴿ قلْ أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزقٍ فجعلتم منه حراما وحلالا ، قلْ آللهُ أذن لكم أم على اللهِ تفترونَ ؟ ﴾ .

قول وكيع

٥ حدث إسحاق بن راهويه قال : سمعت وكيعاً يقول : النبيذ أحلُّ من الماء !
وعابه بعض الناس فى ذلك وقالوا : كيف يكون أحلّ من الماء ، وهو وإن كان حلالا فهو بمنزلة الماء ؟

وليس على وكيع فى هذا الموضع عيب ولا يرجع عليه فيه كذب ؛ لأن كلمته خرجت مخرج كلام العرب فى مبالغتهم ، كما يقولون ، هو
١٠ أشهر من الصبح ، وأسرع من البرق ، وأبعد من النجم ، وأحلى من العسل ، وأحرّ من النار .

ابن إدريس الكوفى

ولم يكن أحد من الكوفيين يحرّم النبيذ غير عبد الله بن إدريس ، وكان بذلك مَعيبا .

وقيل لابن إدريس : مَن خيار أهل الكوفة ؟

١٥ فقال : هؤلاء الذين يشربون النبيذ !

قيل : وكيف وهم يشربون ما يَحرُم عندك ؟

قال : ذلك مبلغهم من العلم .

ابن المبارك البصرى

وكان ابن المبارك يكره شرب النبيذ ويخالف فيه رأىَ المشايخ وأهل البصرة .
قال أبو بكر بن عياش : [قلت له] : من أين جئت بهذا القول فى كراهيتك
٢٠ النبيذَ ومخالفتِك أهلَ بلدك ؟

قال : هو شىء اخترتُه لنفسى .

قلت : فتعيب مَن شربه ؟

قال : لا .

قلت : أنت وما اخترت .

عبدالله بن داود — وكان عبد الله بن داود يقول : ما هو عندي وماء الفرات إلا سواء .

وكان يقول : أكره إدارة القدح ، وأكره نقيع الزبيب ، وأكره المعتّق .

قال : ومن أدار القدحَ لم تجُزْ شهادته .

سوار القاضى — وشهد رجل عند سوّار القاضى ، فردّ شهادته لأنه كان يشرب النبيذ ؛ فقال : ٥

أمّا الشرابُ فإني غير تاركِهِ * ولا شهادةَ لى ما عاش سوّارُ

زيد بن على — حدث شبابة قال : حدثنى غسان بن أبي صباح الكوفى عن أبي سلمة يحيىَ ابن دينار عن أبي المطهر الورّاق قال : بينما زيد بن علىّ فى بعض أزقة الكوفة : إذ مرّ به رجل من الشيعة ، فدعاه إلى منزله ، وأحضر طعاما ؛ فتسامعت به الشيعة ، فدخلوا عليه حتى غَصّ المجلس بهم ، فأكلوا معه ، ثم استسقى ، فقيل له : ١٠ أىّ الشراب تَسْقيك يا ابنَ رسول الله ؟

قال : أصلبَه وأشدّه .

فأتوه بعُسّ من نبيذ ، فشرب وأدار العس عليهم فشربوا ؛ ثم قالوا : يا ابن رسول الله ، لو حدثتنا فى هذا النبيذ بحديث رويته عن أبيك عن جدّك ؛ فإن العلماء يختلفون فيه ! ١٥

قال : نعم ، حدثنى أبي عن جدى أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : لتركَبُنّ طبقة بنى إسرائيل حَذْوَ القُذّة بالقُذّة والنعل بالنعل . ألا وإنّ الله ابتلى بنى إسرائيل بنهر طالوت ، أحل منه الغُرفة والغرفتين وحرّم منه الرىّ ؛ وقد ابتلاكم بهذا النبيذ ، أحلّ منه القليل وحرّم منه الكثير .

نهر طالوت — وكان أهل الكوفة يسمون النبيذ : نهر طالوت ؛ وقال فيه شاعرهم : ٢٠

اشربْ على طرَبٍ من نهر طالوتِ * حمراء صافيةً فى لون ياقوتِ

من كفّ ساحرة العينين شاطرةٍ * تُرْبِى على سحر هاروتٍ وماروت

لها تَماويتُ ألحاظٍ إذا نظرتْ * فنارُ قلبك من تلك التّماويت

حديث الحارث بن كلدة طبيب العرب

مع كسرى أنوشروان الفارسى

روى أن الحارث بن كلدة الثقفى وفد على كسرى أنوشروان ، فأذن له بالدخول ، فانتصب بين يديه ، فقال له كسرى : من أنت ؟ قال : أنا الحارث ابن كلدة . قال : أعربىّ ؟ قال : نعم ، من صميمها . قال : فما صناعتك ؟ قال : طبيب . قال : وما تصنع العرب بالطبيب مع جهلها ، وضعف عقولها ، وقلة قبولها ، وسوء غذائها ؟ فقال : ذلك أجدر أيها الملك ، إذا كانت بهذه الصفة ، أن تحتاج إلى ما يُصْلح جهلَها ، ويقيم عِوَجَها ، ويَسُوس أبدانها ، ويعدل أمشاجها ؛ [فإن العاقل يعرف ذلك من نفسه] . قال الملك : وكيف لها بأن تعرف ما توردِه عليها ، ولو عرفت الحق لم تنسب إلى الجهل . قال : الحارث : أيها الملك ، إن الله جل اسمه قسم العقول بين العباد كما قسم الأرزاق ، وأخذ القوم نصيبهم ؛ ففيهم ما فى الناس من جاهل وعالم ، وعاجز وحازم . قال الملك : فما الذى يُحمد من أخلاقهم ، ويُحفظ من مذاهبهم ؟ قال الحارث : لهم أنفسٌ سخية ، وقلوب جريّة ، وعقول صحية مرضيّة ، وأحساب نقية ، يمرق الكلام من أفواههم مُروقَ السهم العائر ، ألين من الماء ، وأعذب من الهواء ؛ يطعِمون الطعام ، ويضربون الهام ، وعزُّهم لا يرام ، وجارهم لا يضام ، ولا يُروَّع إذا نام ؛ لا يُقِرُّون بفضل أحد من الأقوام ، ما خلا الملك الهمام ، الذى لا يقاس به أحد من الأنام ! قال : فاستوى كسْرى جالسا . ثم التفت إلى من حوله فقال : أطرى قومه ، فلولا أن تداركه عقله لذمّ قومه ، غير أنى أراه ذا عَمًى . ثم أذن له بالجلوس . فقال : كيف بصَرُك بالطب ؟ قال : ناهيك ! قال : فما أصل الطب ؟ قال : ضبط الشفتين ، والرفق باليدين . قال : أصبت ، فما الداء الدوىّ ؟ قال : إدخال الطعام على الطعام ، هو الذى أفنى البرية ، وقتل السباع فى البريّة . قال : أصبت . فما الجمرة التى تلهّب منها الأدواء ؟ قال : هى التخمة ، إن بقيت فى الجوف قتلتْ ، وإن تحللت أسقمتْ . قال : فما تقول فى إخراج الدم ؟ قال :

فى نقصان الهلال ، فى يوم صحوٍ لا غيم فيه ، والنفس طيبة ، والسرور حاضر .
قال : فما تقول فى الحمّام ؟ قال : لا تدخل الحمام شبعان ، ولا تغش أهلك
سكران ، ولا تنم بالليل عُريانا ، وارفق بجسمك يكن أرجى لنسلك . قال : فما
تقول فى شرب الدواء ؟ قال : اجتنب الدواء ما لزمتْك الصحة ، فإذا أحسست
بحركة الداء فاحسمه بما يردعه ؛ فإن البدن بمنزلة الأرض ، إن أصلحتها عمرت ، ٥
وإن فسدتها خربت . قال : فما تقول فى الشراب ؟ قال : أطيبه أهناه ، وأرقّه
أمراه ؛ ولا تشرب صِرفا يورثك صداعا ، ويثير عليك من الداء أنواعا . قال :
فأى اللّحمان أحمد ؟ قال : الضأن الفتىّ ، أسمنه وأبذله ، واجتنب أكل القديد
والمالح ، والمعز والبقر . قال : فما تقول فى الفاكهة . قال : كلها فى إقبال دولتها
واتركها إذا أدبرت وولت وانقضى زمانها ؛ وأفضل الفاكهة الرمان والأترجّ ، ١٠
وأفضل البقول الهندبا والخس ، وأفضل الرياحين الورد والبنفسج . قال : فما تقول
فى شرب الماء ؟ قال : هو حياة البدن ، وبه قوته ، وينفع ما شُرب منه بقدَر ،
وشربه بعد النوم ضرر . وأفضل المياه مياه الأنهار العظام ، أبرده وأصفاه . قال :
فما طعمه ؟ قال : شىء لا يوصف و[هو] مشتق من الحياة . قال : فما لونه ؟
قال : اشتبه على الأبصار لونه ، يحكى لون كل شىء يكون فيه . قال : فأخبِرْنى عن ١٥
أصل الإنسان ما هو ؟ قال : أصله من حيث يشرب الماء . يعنى رأسه . قال :
فما هذا النور تُبصَر به الأشياء ؟ قال : العين مركبة من [ثلاثة] أشياء ، فالبياض
شحمة ، والسواد مائع ، [والناظر ريح] . قال : فعلى كم طُبع هذا البدن ؟ قال :
أربع طبائع : على المرة السوداء ، وهى باردة يابسة ؛ والمرة الصفراء ، وهى حارة
يابسة ؛ والدم ، وهو حار رطب ؛ والبلغم ، وهو بارد رطب قال : فلم لم يكن من ٢٠
طبع واحد ؟ قال : لو خلق من شىء واحد لم ينحل ولم يمرض ولم يمت . قال :
فمن طبعين ما حال الاقتصار عليهما ؟ قال : لم يجز ، لأنهما ضدان يقتتلان ؛ ولذلك
لم يجز من ثلاثة : موافقين ومخالف . قال : فأجمل لى الحار والبارد فى أحرف
جامعة . قال : كل حلو حار وكل حامض بارد ، وكل حرّيف حار ، وكل مر
معتدل ، وفى المز حار وبارد . قال : فما أفضل ما عولج به المرة السوداء . قال : ٢٥

بكل حار لين . قال : فالمرة الصفراء ؟ قال : كل بارد ليّن . قال : فالبلغم ؟ قال : كل حار يابس . قال : فالدم ؟ قال : إخراجه إذا زاد ، وتطفئته إذا سخن بالأشياء الباردة . قال : فالرياح ؟ قال : بالحقن اللينة والأدهان الحارّة اللينة . قال : أفتأمر بالحقن ؟ قال : نعم ، قرأت فى بعض الكتب أن الحقنة تنق الجوف وتكسح الأدواء عنه ؛ وعجبت لمن احتقن كيف يهرم أو يعدم الولد ! وإن الجاهل كل الجاهل من أكل ماقد عرف مضرته ، فيؤثر شهوته على راحة بدنه . قال : فما الحمية ؟ قال : الاقتصاد فى كل شىء ، فإنه إذا أكل فوق المقدار ضيّق على الروح ساحته . قال : فما تقول فى إتيان النساء ؟ قال : كثرة غشيانهن ردىء ، [وإياك] وإتيان المرأة المولية ، فإنها كالشن البالى ، تُسقم بدنك وتجذب قوتك ؛ ماؤها سم قاتل ، ونفسها موت عاجل ، تأخذ منك ولا تعطيك ؛ وعليك بإتيان الشباب ، فإن الشابة ماؤها عذبٌ زلال ، ومعانقتها غنج ودلال ، فُوها بارد ، [وريقها عذب] ، وريحها طيب ، ورحمها حرج ، تزيدك قوة [إلى قوتك] ونشاطا [إلى نشاطك] . قال : فأى النساء القلب لها أبسط ، والعين برؤيتها آنس ؟ قال : إن أصبتها مديدة القامة عظيمة الهامة ، واسعة الجبين ، عريضة الصدر ، مليحة النحر ، ناهدة الثديين ، لطيفة الخصر والقدمين ، بيضاء فرعاء ، جعدة غضة ، تخالها فى الظلمة بدراً زاهرا تبسم عن أقحوان باهر ، وإن تكشف تكشف عن بيضة مكنونة ، وإن تعانق تعانق ما هو ألين من الزبد ، وأحلى من الشهد ، وأبرد من القند ، وأعظم من الفردوس والخلد ، وأذكى ريحا من الياسمين والورد . قال : فاستضحك كسرى حتى اختلجت كتفاه . قال : فأى الأوقات [إتيانهن] أفضل ؟ قال : عند إدبار الليل يكون الجوف أخلى ، والنفس أشهى والرحم أدفى . قال : فأى الأوقات ألذ وأطرب ؟ قال : نهارا ، يزيدك النظر انتشارا ! قال كسرى لله درك من عربىّ ، لقد أعطيت علما ، وخُصصت به من بين الخلق ، وفطنة وفهما ! ثم أمر بإعطائه وصلته ، وقضى حوائجه .

ابن أبى الحوارى وصالح العباسى

وحضر ابن أبى الحُوارى بالشام — وكان معروفا بالرقائق والزهد — مائدة صالح العباسى مع فقهاء البلد ، فحدثنى البحترى عن عبادة ، وكان ممن حضر المجلس

أنه بُعث إليه بقدح نبيذ فشربه ، ثم بعث إليه بثان فامتنع من شربه ؛ فأخذه الناس بألسنتهم ، وقالوا : شربت المسكر على أخونة هؤلاء وصرت لهم حجة ! قال : حسبكم ! أردتم أن أكون ممن قال الله تعالى : فيهم ﴿ يستَخْفون من الناسِ ولا يستَخْفون من اللهِ وهُوَ معهم ﴾ ! فكيف أدعه لكم وأشربه بعين الله !

قاض وشارب نبيذ

وقال بعض القضاة لرجل كان يعذله : بلغنى أنك تشرب المسكر ! فقال : ما أشرب المسكر ولكنى أشرب النبيذ الصلب . ٥

ألوان من التزهد

فأين هؤلاء فى ترك الرياء والتصنع ، من رجل سُرقت نعله فلم يشتر نعلا حتى مات ، وعوتب فى ذلك فقال : أخشى أن أشترى نعلا فيسرقها أحدٌ فيأثم !

وآخر لما نظر أهل عرفات قال : ماأظن الله إلا قد غفر لهم لولا أنى كنت فيهم !

وآخر أمر له عمر بن الخطاب بكيس ، فقال : آخذ الكيس والخيط ؟ فقال عمر : دع الكيس ! ١٠

ورجل سأل ابن المبارك فقال إنى قاسمت إخوتى ، وبيننا مُبْرَزٌ غير مقسوم وفىّ بطر أفترى لى أن أدخله أكثر مما يدخله شركائى ؟

وآخر قال : أفطرت البارحة على رغيف وزيتونة ونصف ، أو زيتونة وثلث أو زيتونة وربع ، أو ما علم الله من زيتونة أخرى ! فقال له بعض من حضر : اجلس يا فتى ، إنه بلغنا أن من الورع ما يبغضه الله ، وأظنه ورعك هذا ! ١٥

الأعمش قال : أتانى عبد الله بن سعيد بن أبى بكر فقال لى : ألا تعجب ؟ جاءنى رجل فقال : دلنى على شىء إذا أكلته أمرضنى . فقد استبطأت العلة وأحببت أن أعتل فأوجَر ! فقلت له : سل الله العافية ، واستدم النعمة ، فإن من شكر على النعمة كمن صبر على البلية . فألح علىّ ، فقلت له : كل السمك ، واشرب نبيذ الزبيب ، ونم فى الشمس ، واستمرض اللهَ يمرضك إن شاء الله ! ٢٠

هارون بن داود قال شرب رجل عند خمار نصرانى ، فأصبح ميتا ؛ فاجتمع عليه الناس وقالوا للخمار : أنت قتلته ! قال : لا والله ، ولكن قتله استعمالهُ قوله :

• وأخرى تداويْتُ منها بها •

كتاب اللؤلؤة الثانية

في الفكاهات والملح

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه ، تغمده الله برحمته : قد مضى قولنا في الطعام والشراب وما يتولد منهما ، وينسب إليهما .

٥ ونحن قائلون بما ألفناه في كتابنا هذا من الفكاهات والمُلح التي هي نزهة النفس ، وربيع القلب ، ومرتع السمع ، ومجلب الراحة ، ومعدن السرور .

النبي صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « رَوِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلوب إذا كَلّتْ عَمِيَتْ »

لعلي بن أبي طالب

وقال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه : أجِمُّوا هذه القلوب ، والتمسوا ١٠ لها طُرَف الحكمة ، فإنها تمل كما تمل الأبدان ، والنفس مؤثِرة للهوى ، آخذة بالهوينى ، جانحة إلى اللهو ، أمارة بالسوء ، مستوطنة للعجز ، طالبة للراحة ، نافرة عن العمل ، فإن أكرهتها أنضيتها ، وإنْ أهملتها أرديْتها .

لعبد الملك

ودخل عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز على أبيه وهو ينام نومة الضحى فقال : يا أبت ؛ أتنام وأصحاب الحوائج واقفون ببابك ؟ قال : يا بنيّ ، إن نفسي ١٥ مطيتي ، فإن أنضيتها قطعتها ، ومن قطع المطيّ لم يبلغ الغاية !

أخبار في الضحك

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يضحك حتى تبدو نواجذه .

وكان محمد بن سيرين يضحك حتى يسيل لعابه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا خير فيمن لا يَطرَب »

وقال : « كل كريم طروب »

هشام بن عبد الملك

٢٠ وقال هشام بن عبد الملك : قد أكلت الحلو والحامض حتى ما أجد لواحد منهما طعما ، وشممت الطِّيب حتى ما أجد له رائحة ، وأتيت النساء حتى ما أبالي امرأةً

أتيتُ أم حائطا؛ فما وجدت شيئا ألذ من جليس تسقط بيني وبينه مئونة التحفظ.

عمرو بن العاص

وقيل لعمرو بن العاص: ما ألذّ الأشياء؟ قال: ليخرجْ مَن ههنا من الأحداث. فخرجوا، فقال: ألذ الأشياء إسقاطُ المُروءة!

مسلمة بن عبد الملك

وقيل لمسلمة بن عبد الملك: ما ألذ الأشياء؟ فقال: هتكُ الحيا، واتّباع الهوى.

٥ وهذه المنزلة من أعمال النفس وهتكِ الحياء قبيحة، كما أن المنزلة الأخرى من الغلو في الدّين والتعسف في الهيبة قبيحة أيضا؛ وإنما المحمود منها التوسط، وأن يكون لهذا موضعه ولهذا موضعه.

وقال مطرف بن عبد الله لولده: يا بنيّ، إن الحسنة بين السيئتين - يريد بين المجاوزة والتقصير - وخيرُ الأمور أوساطُها، وشرُّ السير الحقحقة.

١٠ وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن هذا الدينَ متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبَتّ لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى».

خبر بعض الحواريين

وفي بعض الكتب المترجمة: أن يوحنا وشمعون كانا من الحواريّين، وكان يوحنا لا يجلس مجلسا إلا ضحك وأضحك مَن حوله، وكان شمعون لا يجلس مجلسا إلا بكى وأبكى من حوله؛ فقال شمعون ليوحنا: ما أكثر ضحكك! كأنك قد فرَغت

١٥ من عملك! فقال له يوحنا: ما أكثرَ بُكاءك! كأنك قد يئستَ من ربك! فأوحى الله إلى المسيح: إن أحبَّ السيرتين إليّ سيرةُ يوحنا.

المسيح ويحيى بن زكريا

وفي بعض الكتب أيضا: أن عيسى ابن مريم لقي يحيى بن زكريا عليهم الصلاة والسلام، فتبسم إليه يحيى، فقال له عيسى: إنك لتبسم تبسم آمِن! فقال له يحيى: إنك لتعبس عبوس قانط! فأوحى الله إلى عيسى: إن الذي يفعل يحيى أحبُّ إليّ.

نعيمان

٢٠ وقال النبي صلى الله عليه وسلم: يدخل نُعَيمان الجنة ضاحكا، لأنه كان يضحكني. وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليه وهو أرمد فوجده يأكل تمرا، فقال له: أتأكل تمرا وأنت أرمد؟ فقال: إنما آكلُ من الجانب الآخر! فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه.

وكانت سويداء لبعض الأنصار تختلف إلى عائشة فتلعب بين يديها وتضحكها،

وربما دخل النبي صلى الله عليه وسلم على عائشة فيجدها عندها فيضحكان جميعا ؛ ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم فقدها ، فقال : ياعائشة ، ما فعلت السويداء ؟ قالت له : إنها مريضة ! لجاءها النبي صلى الله عليه وسلم يعودُها ، فوجدها فى الموت ؛ فقال لأهلها : إذا توفيتْ فآذنونى . فلما توفيت آذنوه ، فشهدها وصلى ٥ عليها وقال : اللهم إنها كانت حريصة على أن تُضحكنى ، فأضْحِكْها فرَحا .

الأصمعى وأبو عبيدة

وقيل لأبى نُواس : قد بعثوا إلى أبى عبيدة والأصمعى ليجمعوا بينهما . فقال : أما أبو عبيدة فإن خلوه وسفْرَه قرأ عليهم أساطير الأولين والآخرين ، وأما الأصمعى فبلبل فى قفص يُطْرِبُهُمْ بصفيره .

من أقوال العرب

قال ابن إسحق : وقد طرب الصالحون وضحكوا ومزحوا . وإن مدحت ١٠ العربُ رجلا قالوا : هو ضَحُوك السن ، بَسّام الثنيات ، هش إلى الضيف فإذا ذمَّتْه قالوا : هو عبوس الوجه ، جَهم المحيّا ، كريه المنظر ، حامض الدجنة ، كأنما وجهه بالخل منضوح ، كأنما أُسعط خيشومه بالخردل .

من يحيى بن خالد لولده

وكتب يحيى بن خالد إلى الفضل ابنه وهو بخراسان : يا بنىّ ، لا تُغْفِل نصيبَك من الكسل !

١٥ وهذا جزء جامع لكل ما قصدنا إليه من هذا المعنى ، لأن بالكسل تكون الراحة ، وبالراحة يكون مَثابُ النشاط ، وبالنشاط يصفو الذهن ، ويصدق الحس ، ويكثر الصواب . قال الشاعر :

إنما لِلنَّــاسِ مِنّا ٭ حُسنُ خُلْق ومزاح
ولنا ماكان فِينا ٭ منْ فسادٍ وصَلاح

ملح هشام ابن عروة

٢٠ الهيثم بن عدىّ قال : رأيت هشام بن عروة قد اجتمع إليه أصحاب الحديث يسألونه ، فقال لهم : ياقوم ، أما ماكان عندى من الحلال والحرام والسنّة فإنى لا أستحلّ أن أمنعكموه ، وأما مُلَحى فلا أعطيكموها ولا كرامة .

باب من المفاكهات

حديث عباس بن الأحنف

حدث أبو العباس محمد بن يزيد المبرد قال : حدثنا محمد بن عامر الحنفى، وكان من سادات بكر بن وائل ، وأدركتُه شيخا كبيرا مملقا ، وكان إذا أفاد على إملاقه شيئا جاد به ، وقد كان قديما ولى شرطة البصرة ، فحدثنى هـذا الحديث الذى ٥ أذكره ، ووقع إلىّ من غير ناحيته ، ولا أذكر ما بينهما من الزيادة والنقصان ، إلا أن معانى الحديث مجموعة فيما أذكر لك :

ذَكر أن فتيانا كانوا مجتمعين فى نظام واحد ، كلهم ابن نعمة ، وكلهم قد شَرَدَ عن أهله وقنع بأصحابه ، فذكر ذاكرٌ منهم قال :

١٠ كنا قد اكترينا داراً شارعة على أحد طرق بغداد المعمورة بالناس ، وكنا نُفْلِس أحيانا ونُوسر أحيانا ، على مقدار ما يمكن الواحدَ من أهله ؛ وكنا لا ننكر أن تقع مئونتُنا على واحد منا إذا أمكنه ، ويبقى الواحد منا لا يقدر على شىء ، فيقوم به أصحابُه الدهرَ الأطول ، وكنا إذا أيسرنا أكلنا من الطعام أليَنَه ، ودعونا المُلْهِينَ والملهيات ، وكان جلوسنا فى أسفل الدار ، فإذا عدمنا الطربَ جلسنا فى ١٥ غرفة لنا نتمتع منها بالنظر إلى الناس ؛ وكنا لا نُخِلّ بالنبيذ فى عسر ولا يسر ؛ فإنا لكذلك يوما إذا بفتى يستأذن علينا ، فقلنا له : اصعد . فإذا رجل نظيف ، حلو الوجه ، سرىّ الهيئة ، ينبئ روَاؤه على أنه من أبناء النعم ؛ فأقبل علينا فقال : إنى سمعت بمجتمَعكم ، وحُسْنَ منادمتكم ؛ وصحة ألفتكم ، حتى كأنكم أدرجتم جميعا فى قالب واحد ؛ فأحببت أن أكون واحداً منكم فلا تحتشموا .

٢٠ قال : وصادف ذلك منا إقتارا من القوت ؛ وكثرةً من النبيذ ، وقد كان قال لغلام له : أول ما يأذنون لى أن أكون كأحدهم ، هات ما عندك . فغاب الغلام عنا غير كثير ، ثم أتانا بسلة خيزران ، فيها طعام المطبخ ، من جدي ، ودجاج ،

وفراخ ، ورقاق ، وأشنان ، ومحلب ، وأخلة : فأصبنا من ذلك ، ثم أفضنا في شرابنا .

وانبسط الرجل ، فإذا هو أحلى خلق الله إذا حدث ، وأحسنهم استماعا إذا حُدِّث ، وأمسكهم عن ملاحاة إذا خولف : ثم أفضينا منه إلى أكرم مخالقة ، وأجمل مساعدة ؛ وكنا ربما امتحناه بأن ندعوه إلى الشيء الذي نعلم أنه يكرهه ، فيُظهر لنا أنه لا يحب غيره ، ويُرى ذلك في إشراق وجهه ؛ فكنا نَغنى به عن حسن الغناء ، ونتدارس أخباره وآدابه ؛ فشغلنا ذلك عن تعرُّف اسمه ونسبه ، فلم يكن منا إلا تعرّف الكنية ، فإنا سألناه عنها فقال : أبو الفضل .

فقال لنا يوماً بعد اتصال الأنس : ألا أخبركم بِمَ عرفتكم ؟ قلنا : إنا لنحب ذلك . قال : أحببت جارية في جواركم ، وكانت سيدتها ذات حبائب ؛ فكنت أجلس لها في الطريق ألتمس اجتيازها ، فأراها ؛ حتى أخلقني الجلوس على الطريق ورأيت غرفتكم هذه ، فسألت عن خبرها ، فخُبِّرت عن ائتلافكم وتمالئكم ، ومساعدة بعضكم بعضا ؛ فكان الدخول فيما أنتم فيه أسرّ عندي من الجارية . فسألناه عنها فخبرنا ، فقلنا له : نحن نختدعها حتى نظفِرَك بها ! فقال : يا إخواني ، إني والله على ما ترَوْنَ مني من شدة الشغف والكلف بها ، ما قدرت فيها حراما قط ولا تقديري إلا مطاولتها ومصابرتها إلى أن يَمُنّ الله بثروة فأشتريها !

فأقام معنا شهرين ، ونحن على غاية الاغتباط بقربه ، والسرور بصحبته ، إلى أن اختُلس منا ، فنالنا بفراقه ثكلٌ مُمضّ ، ولوعة مؤلمة ، ولم نعرف له منزلا نلتمسه فيه ؛ فكدر علينا من العيش ما كان طاب لنا به ، وقبُح عندنا ما كان حسُنَ بقربه ، وجعلنا لا نرى سروراً ولا غمًّا إلا ذكرناه ، لاتصال السرور بصحبته وحضوره ، والغمّ بمفارقته ؛ فكنا فيه كما قال الشاعر :

يُذكِّرُنيهم كلُّ خير رأيتُهُ * وشرّ، فما أنفكُّ منهم على ذكر

فغاب عنا زهاء عشرين يوما ، فبينما نحن مجتازون يوما من الرصافة ، إذا به قد طلع فى موكب نبيل ، وزيّ جليل ؛ فلما بصُر بنا انحط عن دابته وانحط غلمانه ، ثم قال : يا إخوانى ، والله ما هَنَأنى عيش بعدكم ، ولست أماطلُكم بخبرى حتى آتى المنزل ، ولكن ميلوا بنا إلى المسجد . فملنا معه ، فقال : أعرّفكم أولا بنفسى ، أنا العباس بن الأحنف ؛ وكان من خبرى بعدكم أنى خرجت إلى منزلى من عندكم ؛ فإذا المسوّدة محيطة بى ، فمُضِيَ بى إلى دار أمير المؤمنين ، فصرت إلى يحيى بن خالد ، فقال لى : ويحك يا عباس ! إنما اخترتك من ظرفاء الشعراء ، لقرب مأخذك ، وحُسن تأتّيك ؛ وإن الذى ندبتك له من شأنك ؛ وقد عرفت خطرات الخلفاء ، وإنى أخبرك أنّ ماردة هى الغالبة على أمير المؤمنين اليوم ، وأنه جرى بينهما عتب ؛ فهى بدالة المعشوق تأبى أن تعتذر ، وهو بعز الخلافة وشرفِ الملك يأبى ذلك ؛ وقد رُمت الأمر من قِبلها فأعيانى ، وهو أحرى أن تستفزّه الصبابة ؛ فقل شعراً يسهّل عليه هذه السبيل . فقضى كلامه .

ثم دعانى إلى أمير المؤمنين ، فصرت إليه وأُعطيت قرطاسا ودواة ، فاعترانى الزَّمَع وأذهب عنى ما أريد الاستحثاثُ ؛ فتعذرت علىّ كلُّ عَروض ، ونفرَتْ عنى كل قافية ؛ ثم انفتح لى شىء ، والرسل تعنتنى ؛ فجاءتنى أربعة أبيات رضيتُها ، ووقعتْ صحيحةَ المعنى ، سهلة الألفاظ ، ملائمة لما طُلب منى ؛ فقلت لأحد الرسل : أبلغ الوزير أنى قلت أربعة أبيات ، فإن كان بها مَقنع وجهتُ بها . فرجع إلىّ الرسول بأن هاتِها ، فنى أقل منها مقنع . وفى ذهاب الرسول ورجوعه قلت بيتين من غير ذلك الروىّ ، فكتبت الأبيات الأربعة فى صدر الرقعة ، وعقّبت بالبيتين ، فقلت :

العاشِقانِ كلاهما مُتغضّبُ * وكلاهما مُتوجِّدٌ مُتعتّبُ

صدّت مُغاضبةً وصدّ مُغاضباً * وكلاهما مما يعالج مُتْعَبُ

راجع أحِبّتك الذين هجرْتَهم * إن المُتيَّمَ قلما يتجنّبُ

إنّ التجنُّبَ إن تطاول منكما ٭ دَبَّ السُّلوُّ له فعزَّ المطلبُ

ثم كتبت تحت ذلك :

لا بُدَّ للعاشقِ من وقفةٍ ٭ تكونُ بين الهجرِ والصرمِ

حتى إذا الهجرُ تمادى به ٭ راجعَ من يهوى على رغمِ

٥ ثم وجهت بالكتاب إلى يحيى بن خالد ، فدفعه إلى الرشيد ، فقال : والله ما رأيت شعراً أشبهَ بما نحن فيه من هذا ، والله لكأنى قصِدْتُ به ! فقال له يحيى : وأنت والله يا أمير المؤمنين المقصود به : هذا يقوله العباس [ابن الأحنف] فى هذه القصة . فلما قرأ البيتين وأفضى إلى قوله :

٭ راجَعَ مَن يهوى على رغمِ ٭

١٠ استغرب ضاحكا حتى سمعت ضَحِكه ، ثم قال : إى والله ، أراجع على رغم ! يا غلام ، هات نعلى . فنهض ، وأذهله السرور عن أن يأمر لى بشىء ؛ فدعانى يحيى وقال : إن شعرك قد وقع بغاية الموافقة ، وأذهل أمير المؤمنين السرور عن أن يأمر لك بشىء . قلت : لكن هذا الخبر ما وقع منى بغاية الموافقة !

ثم جاء غلام فساره ، فنهض وثبتُّ مكانى ثم نهضت بنهوضه ؛ فقال لى :

١٥ يا عباس ، أمسيت أنبل الناس ؛ أتدرى ما سارّنى به هذا الرسول ؟ قلت لا . قال : ذَكر لى أن ماردة تلقّت أمير المؤمنين لما علمت بمجيئه ، ثم قالت : يا أمير المؤمنين ، كيف كان هذا ؟ فناولها الشعر ، وقال : هذا أتى بى إليك ! قالت : فمن يقوله ؟ قال : عباس بن الأحنف . قالت : فبِمَ كوفئ ؟ قال : ما فعلت شيئا بعدُ . قالت : إذاً والله لا أجلس حتى يكافأ ! قال : فأمير المؤمنين قائم لقيامها

٢٠ وأنا قائم لقيام أمير المؤمنين ، وهما يتناظران فى صلتك ، فهذا كله لك . قلت : مالى من هذا إلا الصلة ! فقال : هذا أحسنُ من شعرك .

قال : فأمر لى أمير المؤمنين بمال كثير ، وأمرت لى ماردة بمال دونه ،

وأمر لى الوزير بمال دون ما أمرت به؛ وحُملتُ على ماترون من الظّهر؛ ثم قال الوزير: من تمام اليدِ عندك أن لا تخرج من الدار حتى يؤهّل لك هذا المال ضياعاً. فاشتريتْ لى ضياعٌ بعشرين ألف درهم، ودُفع إلىّ بقية المال.

فهذا الخبر الذى عاقنى عنكم، فهلموا حتى أقاسمكم الضّياع، وأفرق فيكم المال قلنا له: هنأك الله، فكل منا يرجع إلى نعمةٍ من أبيه. فأقسم وأقسمنا فقال: [فتكونون] أسوتى فيه. فقلنا: أما هذه فنعَم. قال: فامضوا بنا إلى الجارية حتى نشتريها. فشينا إلى صاحبها، وكانت جارية جميلة حلوة، لا تحسن شيئا، أكثر مافيها ظرف اللسان وتأدية الرسائل، وكانت تساوى على وجهها خمسين ومائة دينار؛ فلما رأى مَولاها ميل المشترى، استام بها خمسمائة، فأجبناه بالعجب لحط مائة، ثم قال العباس: يافتيان، إنى والله أحتشم أن أقول بعد ما قلتم، ولكنها حاجة فى نفسى، بها يتم سرورى، فإن ساعدتم فعلت. قلنا له: قل قال هذه الجارية أنا أعاينها منذ دهر، وأريد إيثارَ نفسى بها؛ فأكره أن تنظر إلىّ بعين مَن قد ماكس فى ثمنها! دعونى أعطيه بها خمسمائة دينار كما سأل! قلنا له: وإنه قد حط مائتين. قال: وإن فعل. قال: فصادفت من مولاها رجلا حرًّا، فأخذ ثلثمائة وجهزها بالمائتين!

فما زال إلينا محسنا حتى فرق الموت بيننا.

حديث المجرّد

قال إسحاق بن إبراهيم: قال لى ابن وهب الشاعر: والله لأحدثنك حديثا ماسمعه منى أحدٌ قط، وهو بأمانةٍ أن يسمعه أحد منك مادمت حيا. قلت: ﴿إنا عرضنَا الأمانةَ على السموات والأرض والجبالِ فأبيْنَ أن يحملْنَها﴾! قال: يا أبا محمد إنه حديث ماطَنّ فى أذنك أعجب منه! قلت: كم هذا التعقيد بالأمانة؟ آخذه على ما أحببت!

قال : بينا أنا بسوق الكيل بمكة بعد أيام الموسم ، إذ أنا بامرأة من نساء مكة ، معها صبي يبكي ، وهي تسكته فيأبى أن يسكت ، فسفرتْ ، فأخرجت من فيها كسرة درهم فدفعتها إلى الصبيّ فسكت ؛ فإذا وجه رقيق كأنه كوكب درّي ، وإذا شكلٌ رطْب ولسانٌ فصيح ؛ فلما رأتني أُحِدُّ النظر إليها ، قالت : اتبعني ! فقلت : إن شريطتي الحلال ! قالت : ارجع في حِر أمك ! ومن يريدك على حرام ؟ فخجلت ، وغلبتني نفسي على رأيي ، فتبعتُها ، فدخلت زقاق العطارين فصعدتْ درجة وقالت : اصعد ! فصعدتُ ، فقالت : أنا مشغولة وزوجي رجل من بني مخزوم ، وأنا امرأة من زهرة ؛ ولكن عندي حِر ضيّق ، عليه وجه أحسن من العافية ، في مثل خلق ابن سريج ، وترنّم معبد ، وتيه ابنِ عائشة ؛ أجمع لك هذا كله في بدنٍ واحد بأشقر سليم . قلت : وما أشقر سليم ؟ قالت : بدينار واحد يومَك وليلتك ، فإذا قمتَ جعلت الدينار وظيفة وتزويجا صحيحا . قلت : فذلك لك إن اجتمع لي ما ذكرتِ . قال : فصفقت بيدها إلى جاريتها ، فاستجابت لها ، قالت : قولي لفلانة : البسي عليك ثيابك وعجّلي ، وبالله لا تمسّي غمرا ولا طيبا ، فحسبُك بدلالك وعطرك .

قال : فإذا جاريةٌ أقبلت ما أحسب أن الشمس وقعت عليها ، كأنها دُمية ، فسلمت وقعدت كالخجلة

فقالت لها الأولى : إن هذا الذي ذكرته لك ، وهو في هذه الهيئة التي ترين . قالت : حيّاه الله وقرّب داره . قالت : وقد بذل لك من الصداق دينارا . فقالت : أي أمّ ، أخبرتيه بشريطتي ؟ قالت : لا والله يا بنية ، لقد نسيتها . ثم نظرت إليّ فغمزتني وقالت : أتدري ماشريطتها ؟ قلت : لا . قالت : أقول لك بحضورها ما إخالها تكرهه ، هي والله أفتك من عمرو بن معديكرب ، وأشجع من ربيعة بن مكدم ، ولستَ بواصل إليها حتى تَسكر وتَغلب على عقلها ، فإذا بلغتْ تلك الحال ففيها مطمع . قلت : ما أهونَ هذا وأسهله !

قالت الجارية : وتركتِ شيئا آخر ! قالت : نعم والله ، اعلم أنك لن تصل إليها حتى تتجرد لها ، وتراك مجرّدا مُقبلا ومدبرا . قلت : وهذا أيضا أفعله ! قالت : هلمّ دينارَك !

فأخرجتُ ديناراً فنبذته إليها ؛ فصفقت صفقة أخرى ، فأجابتها امرأة ؛ قالت : قولى لأبى الحسن وأبى الحسين : هلمّا الساعة ! فقلت فى نفسى : أبو الحسن وأبو الحسين ، هو علىّ بن أبى طالب !

قال : فإذا شيخان خاضبان نبيلان قد أقبلا ، فصعدا ، فقصت المرأة عليهما القصة ، فخطب أحدهما وأجاب الآخر ، وأقررْت بالتزويج وأقرت المرأة ؛ ٥ فدعَوَا بالبركة ثم نهضا ، فاستحييت أن أحمّل المرأة شيئاً من المئونة ، فأخرجت ديناراً آخر فدفعتُه إليها ، وقلت : اجعلى هذا لِطيبك . قالت : يا أخى ، لست ممن يمسّ طيباً لرجل ، إنما أتطيَّب لنفسى إذا خلوت . قلت : فاجعلى هذا لغدائنا اليوم . قالت : أما هذا فنعَم .

فنهضت الجارية ، وأمرتْ بإصلاح ما يُحتاج إليه ، ثم عادت ، وتغدّينا ، ١٠ وجاءت بأداةٍ وقضيب ، وقعدت تجاهى ؛ ودعت بنبيذ فأعدّته ، واندفعت تغنى بصوت لم أسمع مثله قط ، فإنى أَلِفت القَينات نحواً من ثلاثين سنة ، ما سمعت مثل ترنُّمها قط ؛ فكدت أُجَنّ سروراً وطربا ، فجعلتُ أُريغ أن تدنو منى فتأبى ، إلى أن غنّت بشعر لم أعرفه ، وهو :

راحُوا يصيدون الظّباء ، وإنى ... لأرى تصيّدها علىّ حراما ! ١٥

أَعْزِزْ علىّ بأنْ أروِّعَ شِبهها ... أو أنْ تَذوق على يدىّ حِماما !

فقلت : جُعلت فِداكِ ! من يغنِّى هذا ؟ قالت : اشترك فيه جماعة ، هو لمعبد ، وتغنى به ابن سريج وابن عائشة ...

فلما نُعِىَ إلينا النهار وجاءت المغرب ، تغنّت بصوت لم أفهمه ، للشقاء الذى كُتب علىّ ، فقالت : ٢٠

كأنى بالمجـــرّد قد علتْه ... نِعالُ القوم أو خشَب السوارِى

قلت : جُعلتُ فداك ! ما أفهم هذا البيت ولا أحسبه ممــا يُتغنى به . قالت : أنا أوّل من تغنى به . قلت : فإنمــا وهو بيتٌ عابر لا صاحبَ له ؟ قالت : معه

آخر ليس هذا وقتَه ، هو آخِر ما أتغنى به !

قال : وجعلت لا أنازعها فى شىء إجلالا لها ، فلما أمسينا وصلّينا المغرب وجاءت العشاء الآخيرة ، وضعّت القضيب ، فقمت فصليت العشاء وما أدرى كم صليت ، عجلةً وشوقا ؛ فلما صليتُ قلت : تأذنين جُعلت فداكِ فى الدنوِّ منك ؟ قالت : تجرّد ! وأشارت إلى ثيابها كأنها تريد أن تتجرد ؛ فكدت أن أشق ثيابى عجلةً للخروج منها ؛ فتجردت وقمت بين يديها مكفّراً لها ؛ قالت : امضِ إلى زاوية البيت وأقبلْ وأدبرْ ، حتى أراك مقبلا ومدبرا !

قال : وإذا حصير فى الغرفة ، عليه طريق إلى زاوية البيت ؛ فخطرتُ عليه ، وإذا تحته خرْق إلى السوق ، فإذا أنا فى السوق قائما مجرّداً مُنعِظا ! وإذا الشيخان الشاهدان قد أعدا لى نعالهما ، وكمنا لى فى ناحية ، فلما هبطت عليهما بادرا إلىّ فقطعا نعالهما على قفاى ، واستعانا بأهل السوق ؛ فضُربت والله يا أبا محمد حتى نسيتُ اسمى ؛ فبينا أنا أُضرب بنعال مخصوفة وأيد شديدة ، إذا صوت يغنّى به من فوق البيت ، وهو :

ولو عَلِم المجرّد ما أردْنا ٭ لحاربَنا المجرّد بالصحارِى

فقلت فى نفسى : هذا والله وقت هذا البيت ! فنجوت إلى رحلى ومافىّ عظم صحيح ؛ فسألت عنها فقيل لى : إنها امرأة من آل أبى لهب ! فقلت : لعنها الله ولعن الذى هى منه !

يوم دارة جلجل

قال الفرزدق : أصابنا بالبصرة ليلا مطرٌ جَود ، فلما أصبحت ركبت بغلتى وسرت إلى المِربد ، فإذا أنا بآثار دواب وقد خرجتْ إلى ناحية البرية ، فظننت أنهم قوم خرجوا للنزهة ، وهم خُلَقاء أن يكون معهم سُفرة ، فاتبعتُ آثارهم حتى انتهيت إلى بغال عليها رحائل موقوفةٍ على غدير ، فأسرعت إلى الغدير ،

فإذا فيه نسوة مستنقعات فى الماء ، فقلت : لم أرَ كاليوم قط ، ولا يوم دارة جلجل . وانصرفت مستحييا .

فنادينَنى : يا صاحب البغلة ، ارجعْ نسألْك عن شىء .

فرجعتُ إليهنّ ، فقعدن فى الماء إلى حلوقهن ، ثم قلن : بالله إلا ما أخبرتَنا ما كان من حديث دارة جلجل . ٥

قلت : حدثنى جدّى ـ أنا يومئذ غلامٌ حافظ ـ أن امرأ القيس كان عاشقا لابنة عمه ، ويقال لها عنيزة ؛ وأنه طلبها زمانا فلم يصل إليها ، حتى كان يوم الغدير ، وهو يوم دارة جلجل ؛ وذلك أنّ الحىّ تحمّلوا ، فتقدم الرجال ، وتخلف النساء والخدم والثقل ؛ فلما رأى ذلك امرؤ القيس ، تخلف بعد ما سار مع رجال قومه غَلوة ، فكمن فى غيابة من الأرض ، حتى مرّ به النساء وفيهن ١٠ عُنيزة ، فلما وردن الغدير قلن : لو نزلنا واغتسلنا فى هذا الغدير فذهب عنا بعض الكلال . فنزلن فى الغدير ، ونحّين العبيد ، ثم تجردن فوقعن فيه ، فأتاهن امرؤ القيس فأخذ ثيابهن ، فجمعها وقعد عليها ، وقال : والله لا أعطى جارية منكن ثوبها ولو قعدتْ فى الغدير يومَها ، حتى تخرج متجرّدة فتأخذ ثوبها ! فأبينَ ذلك عليه ، حتى تعالى النهار وخشين أن يقصرن عن المنزل الذى يُردنه ، ١٥ فخرجن جميعاً غير عنيزة ؛ فناشدتْه اللهَ أن يطرح ثوبها ، فأبى ، فخرجت ؛ فنظر إليها مقبلة ومدبرة .

وأقبلن عليه فقلن له : إنك عذبتنا وحبستنا وأجعتَنا ! قال : فإن نحرتُ لكنّ ناقتى أتأكلن معى ؟ قلن : نعم . فجرّد سيفه فعرقبها ونحرها ، ثم كشطها ، وجمع الخدمُ حطباً كثيراً ، فأجّجْنَ ناراً عظيمة ، فجعل يقطع أطايبها ويلقى على ٢٠ الجمر ، ويأكلن ويأكل معهن ، ويشرب من فضلة كانت معه ويسقيهن ، وينبذ إلى العبيد من الكباب .

فلما أرادوا الرحيل قالت إحداهن : أنا أحمل طنفسته . وقالت الأخرى :

أنا أحمل رحله وأنساعه . فتقسّمن متاعه وزاده ؛ وبقيت عنيزة لم تحمل له شيئا ؛ فقال لها : يا بنت الكرام ، لا بد أن تحمليني معك ؛ فإني لا أطيق المشي ، فحملته على غارب بعيرها ، فكان يجنح إليها فيُدخل رأسه في خدرها فيقبّلها ، فإذا امتنعت مال حدْجها ، فتقول : عقرتَ بعيري فانزل ! ففي ذلك يقول :

٥ [ألا رُبّ يومٍ لى من البيض صالحٍ * ولا سيّما يوم بدارة جُلْجُلِ]

ويوم عقرتُ للعذارى مطيّتى * فيا عجبا من رحْلها المُتحمَّل

فظلّ العذارى يرتمين بلحمها * وشحْم كهُدّاب الدِّمقس المُفتَّل

ويوم دخلتُ الخِدْرَ خدْرَ عُنيزةٍ * فقالت لك الويْلات إنك مُرجِلى

تقول وقد مال الغَبيط بنا معاً * عقرتَ بعيرى يا آمرأ القيس فانزلِ

١٠ فقلت لها سيرى وأرْخى زمامه * ولا تُبعدينى من جَناك المُعلَّل

وكان الفرزدق أروى الناس لأخبار امرئ القيس وأشعاره ، وذلك أنّ امرأ القيس رأى من أبيه جفوة ، فلحق بعمه شرحبيل بن الحارث ، وكان مسترضعا فى بنى دارم فأقام فيهم ، وهم رهط الفرزدق .

خبر دعبل وصريع الغوانى

١٥ حدثنا أبو سويد بن أبى عتاهية عن دعبل بن على الشاعر قال : بينا أنا ذات يوم بباب الكرخ وأنا سائر ، وقد احتوى الفكر على قلبى فى أبيات شعر قد نطق بها اللسان من غير اعتقاد جنان ، فقلت :

دموعُ عينى لها انبساطٌ * ونومُ عينى به انقباضُ

فإذا أنا بجارية فائقة الجمال ، حوراء الطرف ، يقصر عن نعتها الوصف ؛ لها

٢٠ وجه زاهر ، ونور باهر ، فهى كما قال الشاعر :

كأنما أُفرغت فى قشر لؤلؤةٍ * فى كل جارحةٍ منها لها قمرُ

وهى تسمعنى ، فقالت :

هـذا قليلٌ لمنْ دهته * بلحظها الأعيُن المِراضُ

فأجبتها :

فهل لمولاىَ عطفُ قلبٍ * أو للّذى فى الحشا انقراضُ؟

فأجابتنى فقالت : ٥

إنْ كنتَ تبغى الودادَ منّا- * فالوُدّ فى ديننا قِراضُ

قال دعبل : فلم أعلَمْنى [قبلها] خاطبتُ جارية تقطع الأنفاس بعذوبة ألفاظها وتختلس الأرواح ببراعة منطقها ، وتُذهل الألباب برخيم نغمتها ، مع تلاعة جيد ، ورشاقة قد ، وكمال عقل ، وبراعة شكل ، واعتدال خَلق ؛ لحار والله البصر ، وذهب اللُّب ، وجل الخطب ، وتلجلج اللسان ، وتغللت ١٠ الرِّجلان ؛ وما ظنك بالحلفاء إذا دنت من النار ؟ ثم ثاب إلىّ عقلى ، وراجعنى حلمى ، فذكرتُ قول بشار :

لا يَمنعنّك من مُخدَّرةٍ * قولٌ تغلّظه وإن جرّحا

عُسْرُ النساء إلى مُياسرةٍ * والصّعْبُ يمكن بعد ما جَمَحا

هذا لمن حاول ما دون الطمع فيه اليأس منه ، فكيف بمن وعد قبل ١٥ المسألة ، وبذل قبل الطلبة ؟ فقلت مسمِعاً لها :

أترى الزمانَ يسُرّنا بتلاقٍ * ويضُم مُشتاقا إلى مُشتاقِ ؟

فقالت مجيبة لى فى أسرع من نفَس :

ما للزّمان يُقال فيه وإنما * أنت الزمان فسُرّنا بتلاقِ !

قال دعبل : فلحظتها ومضيت وتبعتنى ، وذلك فى أيام إملاقى ، فقلت : ما لى ٢٠ إلا منزل مسلم صريع الغوانى ، فسرتُ إلى بابه ، فاستوقفتُها وناديته ، فخرج ؛ فقلت له : أكمِل الخير ، معى وجه صبيح ، يعدل الدنيا بما فيها ، وقد حصل على ضيقة وعسر ! فقال : قد شكوتَ ما كدت أباديك بشكواه ! ائت بها .

فلما دخلت قال : والله لا أملك غير هذا المنديل ! فقلت : هو البُغية فناولنيه . فقال : خذه لا بارك الله لك فيه ! فأخذته ، فبعته بدينار وكسر ، فاشتريت لحماً وخبزاً ونبيذاً ، وصرت إليه ؛ فإذا هما يتساقطان حديثاً كأنه قطع الروض الممطور ؛ قال : ما صنعت ؟ فأخبرته ؛ قال : كيف يصلح طعام وشراب وجلوس مع وجه ٥ نظيف بلا نقل ولا ريحان ولا طيب ؟ اذهب فألطف لتمام ما كنتَ أولّه .

قال : فخرجت فاضطربت فى ذلك حتى أتيت به ، فألفيت باب الدار مفتوحاً ، فدخلت ؛ فإذا لا يُرَى لهما ولا لشىء مما أتيت به أثرٌ ، فسُقِطَ فى يدى ، وقلت : أرى صاحب الربع أخذهما ! فبقيت متلهفاً حائراً ، أرجُمُ الظنون وأجيلُ الفكر سائر يومى ؛ فلما أمسيتُ قلت فى نفسى : أفلا أدور فى البيت لعل الطلب يوقفنى ١٠ على أثر ؟ ففعلت ، فوقفت على باب سرداب له ، وإذا هما قد هبطا فيه ، وأنزلا معهما جميع ما يحتاجان إليه ، فأكلا وشربا وتنعّما ؛ فلما أحسستُهما دليتُ رأسى ثم ناديتُ : مسلم ! ويلك ! فلم يجبنى ، حتى ناديت ثلاثاً ؛ فكان من إجابته لى أن غرد بصوت يقول فيه :

بِتُّ فى دِرْعها وبات رفيقى * جُنُبَ القلبِ طاهِرَ الأطرافِ

١٥ ثم قال : دعبل ، ويلك ! من يقول هذا ؟ قلت :

مَن له فى حِرامّه ألفُ قَرْنٍ * قد أنافتْ على عُلوِّ مَنافِ

قال : فضحك ، ثم سكتا ، واستجلبت كلامهما فلم يجيبانى ، وأخذا فى لذتهما ، وبتُّ بليلة يقصر عمرُ الدهر عن ساعة منها طولا وغما ! حتى إذا أصبحت ولم أكد ، خرج إلىّ مسلم ، فجعلت أؤنبه ، فقال لى : يا صفيق الوجه ! منزلى ، ٢٠ ومنديلى ، وطعامى ، وشرابى ؛ فما شأنك فى الوسط ؟ قلت له : حقُّ القيادة والفضولُ والله لا غير ! فولى وجهه إليها وقال : بحياتى إلا أعطيتيه حق قيادته وفضوله ! قالت : أما حق قيادته فعرك أذنِه ، وأما حق فضوله فصفْع قفاه ! فاستقبلنى مسلم فعرك أذنى وصفعنى ، فقلت : ما هذا ؟ فقال : جرى الحكم عليك بما جرى لك من العذل والاستحقاق !

الخدم والقيان

الحسين بن الضحاك وشفيع خادم المتوكل

حدثنا عيسى بن أحمد الكاتب قال : قال الحسين بن الضحاك : دخلت على جعفر المتوكل ، وشفيع الخادم ينضد وردا بين يديه - ولم يُعرف فى ذلك الزمان خادمٌ كان أحسن منه ولا أجمل - وعليه ثياب مُوَرَّدَة ، فأمره أن يسقينى ويغمز كفى ؛ ثم قال لى : ياحسين ، قل فى شفيع . وقد كان حيًّا المتوكل بوردة ، فجعل المتوكلُ يشربُ ويشمُّ الوردة ؛ فقلت :

وكالدُّرَّةِ الحمراءِ حيّا بأحمرٍ * منَ الورْدِ يَمشى فى قراطِقَ كالوردِ

ويَغمزُ كفّى عنـــد كلّ تحيَّةٍ * بكفَّيه تَستدعى الشجىَّ إلى الورد[1]

سقانى بكفَّيْـــهِ وعينيه شَربة * فأذكرَنى ما قد نسيتُ من العهد

سقىَ اللهُ دهراً لم أبِتْ فيه ليلة * من الدّهرِ إلا من حبيب على وعْدِ !

فأمر المتوكل شفيعاً أن يسقينى ، وبعث معه إلى بتحايا فى عبير وشمّامات .

وروى أن محمد بن عبد الملك الزيات وزير المتوكل كان يتعشق خادما للمتوكل يقال له شفيع ، وكان الحسن بن وهب كاتبُه كلِفا بذلك الخادم : فلقيه الحسن ابن وهب يوما ، فسأله عن خبره ، فأخبره أنه يريد أن يحتجم ؛ فلم يبق بالعراق غريبة إلا بعث بها إليه ، ولا ظريفٌ من الأشربة إلا أدخله عليه ، وكتب إليه بهذه الأبيات :

ليت شِعرى ياأملحَ الناسِ عندى * هل تعالَجْتَ بالحِجامةِ بعدى ؟

قد كتمتُ الهوى بمبلغِ جُهْدى * ففشا منه بعضُ ما كنتُ أبدى

وخلعتُ العِـــذارَ فليَعْلمِ النا * سُ بأنى إليـــكَ أصْفى بوُدّى

مَن عذيرى من مُقلتيْك ومن إشْـ * ـراقِ وجه من حوْلِ حُمْرَةِ خدّ

فصادف رسوله رسولا لمحمد بن عبد الملك الزيات الوزير ، فرأى رقعة الحسن ، فاحتال لها حتى أخذها ، وأوصلها إلى محمد بن عبد الملك ، فلما قرأها

(١) رواية الأغانى : له عبثات عند كل تحيـــة * بعينيه تستدعى الحليم إلى الوجد

كتب إلى كاتبه الحسن بن وهب :

ليت شعرى عن ليت شعرك هذا ٭ أبهزلٍ تقولُه أمْ بجِدّ ؟
فلئنْ كانَ ما تقولُ بجِدٍّ ٭ ياآبن وهبٍ لقد تغيَّرتَ بعدى
وتشبَّهْتَ بى وكنتُ أرى ٭ أنّى أنا الهائمُ المتيَّمُ وحْدى
٥ لا أرى القصدَ فى الأمورِ، ولولا ٭ غمَراتُ الصبا لأبصرْتَ قصدى
سيِّدى سيدى، ومولاىَ مَن أل ٭ بسنى ذِلَّةً وأخلَفَ وعدى
لا أحِبُّ الذى يلومُ وإنْ كا ٭ نَ حريصاً على صلاحى ورُشْدى
وأحبُّ آلاخَ المُشارِكَ فى الحبِّ ٭ وإنْ لم يكن به مثلُ وجدى
كصديقٍ أبى علىٍّ وحاشا ٭ لِصديقٍ مِن مثلِ شِقْوةِ جَدِّى
١٠ إنّ مولاىَ عبد عبدى ولولا ٭ شُؤْمُ جَدِّى لَكان مولاى عبدى

فلما التقى ابن الزيات الوزير وكاتبه الحسن بن وهب فى بيت الديوان ، تداعبا فى ذلك ، وسأله ابن الزيات أن يتجافى له عنه ، فقال له الحسن : طاعتك واجبة فى المحبوب والمكروه ، ولكن الرئيس أدام الله عزه كان أولى بالفضل ! فقال له ابن الزيات : هيهات ، هذه علة نفسانية تؤدى إلى التلف ، فتنحَّ عن نصيبك ١٥ منى ! فقال الحسن : إن كان هذا هكذا سمعنا وأطعنا ، وأنشد :

شهيدى على مافى فؤادى منَ الهوى ٭ دُموعٌ تُبارِى المستهلَّ منَ القَطْرِ
فأسلَمَنى مَنْ كان بالأمسِ مُسعِدى ٭ وصار الهوى عُوناً علىّ مع الدّهر

المتوكل وعلى بن الجهم

قال علىّ بن الجهم : دخلت يوما على المتوكل ، فقال : ياعلى ! قلت : لبيك أمير المؤمنين . قال : دخلت الساعة إلى قبيحةَ ، وقد كتبت على خدِّها بالمسك ٢٠ اسمى ، فوآلله ما رأيت سوادا فى بياض أحسنَ منه فى ذلك الخدّ ؛ فقل فيه شعرا . فقلت : ياأمير المؤمنين ، أمظلومةٌ معى ؟ قال : نعم . ومظلومة خلف الستارة ، فدعت بدواة وبدرتْ بالقول ، فقالت :

وكاتبةٍ بالمسكِ فى الخدِّ «جعفراً» ٭ بنفسى مَخَطُّ المسكِ من حيثُ أثّرا

لئن أودعتْ سطراً من المسكِ خدّها * لقد أودعتْ قلبي من الحبّ أسطُرا
فيامن لمملوك تَملّك مالــكا * مُطيعــاً له فيما أسَرّ وأظهــرا
ويامن مُناها فى السرائر جعفر * سقَى الله من صوبِ الغمامةِ جعفرا

قال : وأفحِمْتُ فلم أنطق ، وتغلبت على خواطرى فما قدرت على حرف أقوله ، فضحك أمير المؤمنين . ٥

الأصمعى والرشيد

الأصمعى قال : دخلت على هارون أمير المؤمنين ، وبين يديه جارية حسناء عليها لِمّة جعدة ، وذؤابة تضرب الحِقو منها ، وهلال بين عينيها مكتوب عليه بالذهب : هذا ما عمل فى طراز الله ! فقال : يا أصمعى ، صفها . فأنشأت أقول :

كِنانيّةُ الأطراف سعْديّة الحشا * هلاليّــةُ العينْين طائيّــة الفَمِ
لها حكمُ لقمان ، وصورةُ يوسفٍ * ونغْمةُ داودٍ ، وعِفّــة مريم ١٠

فقال : أحسنت والله يا أصمعى ؛ فهل عرفت اسمها ؟ قلت : لا يا أمير المؤمنين فقال اسمها دنيا . فأطرقت ساعة ثم قلت .

إنّ دُنيا هى التى * تَملِك القلبَ قاهرَهْ
ظلموها شطر آسمِها * فهْى دُنيــا وآخرهْ

قال الأصمعى : فأمر لى بعشرة آلاف درهم . ١٥

الرشيد وإسحاق الموصلى

إسحاق بن إبراهيم الموصلى قال : دخلت على الرشيد ، وعنده جارية ، قد أُهديت له ، ماجنةٌ شاعرة أديبة ، وبين يديه طبق فيه ورد ، فقال لى : أما ترى حُسن هذا الورد ونضرة لونه ؟ قلت : بلى والله حسَنَ ذلك يا أمير المؤمنين . قال : قل فيه بيتاً يشبهه . فأطرقت ساعة ، ثم قلت :

كأنه خــدُّ مَوْمُوق يُقبّلُه * فمُ الحبيب وقد أبدى به خَجلا ٢٠

فاعترضتنى الجارية فقالت :

كأنه لونُ خــدّى حين تدفعُنى * كفُّ الرشيد لأمرٍ يوجب الغُسلا

فقال الرشيد : قم يا إسحاق ، فقد حركتنى هذه الفاسقة !

وحدثنا أيضاً قال : كان هارون الرشيد جالسا بين جاريتين من جواريه ، فقال لهما : من يبيت عندى هذه الليلة منكما ؟ فقالت إحداهما : أنا ! فقالت الأخرى : لا ، بل أنا ! فقال للأولى : ما حجتك فيما ادعيت ؟ قالت : قول الله : ﴿ والسّابقونَ السّابقونَ أولئك المقرّبونَ ﴾ ثم قال للثانية : وما حجتك أنت ؟

٥ قالت : قول الله : ﴿ وللآخرةُ خيرٌ لك من الأُولى ﴾ ! فقال : لتقل كل واحدة منكما شعراً فى الغزل ، فمن كانت أرقّ شعراً باتت عندى . فقالت الأولى :

أنا التى أمشى كما يمشى الوَجِى * يكاد أن يَصْرَعنى تَغَنُّجى

من جنةِ الفردوْس كان مَخْرجى

وقالت الأخرى :

١٠ أنا التى لم يرِ مثــلى بشَرُ * كلامىَ اللّؤلؤ حين يُنْـثَر

أَسْحَر من شئتُ ولست أُسْحَر * إن سمع الناس كلامى كفروا

فقال لهما : قد أحسنتما وأجدتمـا ، وما لواحدة منكما فضيلة على صاحبتها ، ولـكن أبيت بينكما !

الرشيد بين جاريتين

أخبرنا أبو الطيب الكاتب أن أمير المؤمنين هارون الرشيد كان ليلة بين ١٥ جاريتين : مدنية ، وكوفية ؛ فجعلت الـكوفية تغمز يديه ، والمدنية تغمز رجليه ، فجعلت المدنية ترتفع إلى فخذيه ، حتى ضربت بيدها إلى متاعه ، وحرّكته حتى أنعظ . فقالت الـكوفية : نحن شركاءك فى البضاعة ، وأراك قد انفردت دوننا برأس المال وحدك ، فأنيلى منه ! فقالت المدنية : حدثنى مالك عن هشام بن عروة عن أبيه قال : « من أحيا أرضاً مواتاً فهى له ولعقبه » ! قال : فاستغفلتها الـكوفية ودفعتها ، ثم ٢٠ أخذته بيديها جميعاً وقالت : حدثنا الأعمش عن خيثمة عن ابن مسعود أنه قال : « الصيد لمن صاده لا لمن أثاره » !

المتوكل وجارية

أخبرنا الأنطاكى : أن المتوكل طلب من محمود الوراق جارية مغنية ، وأعطاه بها عشرة آلاف درهم ، فأبى فلما مات محمود اشتراها من ميراثه بخمسة آلاف ،

وقال لها : كنا أعطينا مولاك بك عشرة آلاف ، وقد اشتريناك من ميراثه بخمسة آلاف ! قالت : ياأمير المؤمنين ، إذا كانت الخلفاء تتربّص بلذاتها المواريث فسنُشترى بأرخص مما اشتريت !

الرشيد يقامر جاريته

أخبرنا إسحاق بن إبراهيم الموصلى قال : لاعب هارون الرشيد جارية من جواريه على إمرة مطاعة ، فقمرتْه . فقال لها : تمنّى ! قالت : تقوم فتقطع فردا . فقام فقضى فيها وطره ، ثم لاعبها فقمرته ، فقال لها : تمنّى ! فقالت : تقوم فتقطع فردا . فقام فقضى فيها وطره ، ثم لاعبها فقمرته ، فقال لها : تمنى ! فقالت : المعاودة ، فغشيها ، ثم لاعبته فقمرته . فقالت : قم لميعادك ! فقال : لا أقدر على ذلك ! قالت : فاكتب لى به عليك كتابا آخذ به متى شئت ! قال : ذلك لك . فدعت بدواة وقرطاس ، ثم كتبت : « هذا كتاب فلانة على مولاها أمير المؤمنين : إن لى عليك قرضاً آخذك به متى شئت وأنى شئت من ليل أو نهار ... وكان على رأسها وصيفة ، فقالت : تزيّدى فى الكتاب ، فإنك لا تأمنين الحدثان ؛ ومن قام بهذا الذكر حق قيامه فهو ولىُّ ما فيه ! فضحك الرشيد حتى استلق على فراشه ، واستظرفها ، وأمر بأن تنزل مقصورة وأن يُجرى عليها رزقٌ سنىّ ، وشغف بها ، ويقال : إنها مراجل أم المأمون .

بين الأمين وجلسائه

تنفس محمد بن هارون الأمين يوما فى مجلسه أيام الحصار ، فالتفت إلى جليس له — وهو محمد بن سلّام صاحب المظالم — فقال له : ويحك يا محمد ! أتراني ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ذكرت قول الشاعر :

ذكَر الهوى فتنفّس المُشتاق * وبدا عليه الذُّلُّ والإطراقُ
يا من يُصيّرُنى لأصبر بعده * الصـــبر ليس يُطيقُه العشاق

فقال : لا والله ما نكأتها . ثم التفت إلى جليس له آخر . فقال : ويحك ! أتراني ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ذكرت قول ابن الأحنف :

تذكرتُ بالريحان منك شمائلا * بالراح عذباً من مُقبّلك العذب

فقال : لاوالله مانكأتها . ثم التفت إلى كوثر الخادم ، فقال : ويحك ، أترانى ؟
فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، ذكرت قول ابن نفيلة الغسانى :

إن كان دهرُ بنى ساسان فرّقهم * فإنما الدهرُ أطوارٌ دهاريرُ
وربما أصبحوا يوماً بمنزلةٍ * تهاب صولتَها الأسْدُ المهاصير

٥ قال : صدقت !

على بن الجهم وجارية

وكتبت جارية علىّ بن الجهم له رقعة ، فأجاب فيها :

ما رُقْعةٌ جاءتْك مختومة * كأنها خدٌّ على خد
تبدو سَوَاداً فى بياضٍ كما * ذُرّ فتيتُ المسكِ فى الوردِ
ساهمةُ الأسطر مصروفة * عن جهةِ الهزل إلى الجدّ
١٠ يا كاتباً أسلمَنى عَتْبُه * إليه حسْبى منك ما عندى

وكتبت أيضا :

قلبٌ يُملُّ على لسانٍ ناطق * ويدٌ تخُطُّ رسالةً من عاشقِ
مُزج المدادُ بعبرة شهِدتْ له * من كلِّ جارحةٍ بقلبٍ صادقِ
فيمينُه تحكى الوسادَ ، لخدّه * ويسارُه فوق الفؤاد الخافق

المهدى وجارية

١٥ أهدتْ جاريةٌ من جوارى المهدى تفاحة إلى المهدى مطيّبة وكتبت فيها :

هديّةٌ منى إلى المهدى * تفّاحةٌ تُقطف من خدّى
مُحَمَّرةٌ مُصفَرّةٌ طيّبت * كأنها من جَنةِ الخلد

فأجابها المهدى :

تُفاحةٌ من عند تُفاحةٍ * جاءت ، فماذا صَنعتْ بالفؤادْ
٢٠ واللهِ ماأدرى أأبصرْتُها * يقظانَ ، أم أبصرتها فى الرُّقادْ

مدام جارية المازنى

وكتب بعض الكتّاب إلى مُدام ـ جارية المازنى ـ وبعث إليها بقنينة من مُدام :

قل لمن يملك الفؤا * دَ وإن كان قد مُلِكْ

قد شرِبْناك مُدّةً * وبعثنا إليـك بِك

وقال على بن الجهم : دخلت على أبى عثمان المازنى ، وعنده جارية كأنها شقّة قمر ، وبيدها تفاحة معضوضة ؛ فقالت : عرفتَ ما أراد الشاعر بقوله :

خبّرينى من الرسول إليكِ * وآجعليه مَن لا ينمُّ عليكِ

قلت : ما أعرفه . قالت : هو هذه . ورمَتْ إلىّ بالتفاحة ؛ فوالله ما وجدت لها جوابا من نظير كلامها . ٥

الحسن بن وهب — وقال شيخ من أهل البصرة : لقيت الحسن بن وهب ؛ فأردت أن أمتحن سلامة طبعه — ومعى تفاحة — فأريته إياها وسألته أن يصفها ؛ فقال لى : نحن على طريق ، ولكن ملْ بنا إلى المسجد . فملنا إليه ، فأخذها وقلبها بيده ، وقال : ١٠

يارُبّ تفاحةٍ خلَوْتُ بها * تُشْعِلُ نارَالهوى على كبدى

قد بِتُّ فى ليلتى أُقلِّبُها * أشكو إليها تطاوُلَ الكمدِ

لو أنّ تفاحة بكتْ لبكت * من رحمةٍ هذه التى بيدى !

عتب جارية على المأمون — وعد المأمونُ جارية أن يبيت عندها وأخلفها الوعد ، فكتبت إليه :

أرقتْ عينى ونامت * عينُ مَن هُمْتُ عليهِ ١٥

إنّ نفسِى فآعذِرَنْها * أصبَحتْ فى راحتيْه

رحِمَ الله رحيما * دلّ عينىّ عليـــه

فلما قرأ رقعتها ضحك ولم يبت ليلته إلا عندها .

عتب المأمون على جارية — عتب المأمون على جارية من جواريه وكان كَلِفا بها ـ فأعرض عنها وأعرضت عنه ، ثم أسلمه الهوى وأقلقه الشوق ، حتى أرسل يطلب مراجعتها ، وأبطأ عليه الرسول ؛ فلما رجع أنشأ يقول : ٢٠

بعثْتُكَ مرتادا ففُزتَ بنظرةٍ * وأغفلتَنى حتى أسأتُ بك الظنّا

وناجيتَ مَن أهوى وكنتُ مقرَّبا * فياليت شعرى عن دُنُوّكَ ما أغنى

وَنَزَّهتَ طرفا فى محاسِنِ وجهِها * ومتَّعْتَ باستظرافِ نغمتها أُذْنا

أرى أثراً منها بعينيْكَ لم يكن * لقدسَرقتْ عيناكَ من وجهها حُسنا!

فيا ليتنى كنتُ الرسولَ وكنتَنِى * وكنتَ الذى يُقصى وكنتُ أنا المُدْنَى

ثم إن المأمون أقبل مسترضيا لها ، فسلم عليها فلم تَرُدّ عليه السلام ، وكلمها

٥ فلم تجبْهُ ، فأنشأ يقول :

تكلَّمْ ، ليس يُوجِعُكَ الكلامُ * ولا يُؤْذِى محاسنَكَ السلامُ

أنا المأمونُ والمَلِكُ الهُمام * ولكنى بحبِّـكَ مستهام

يَحِقُّ عليكِ أن لا تَقْتُلينى * فيبقَى النَّاسُ ليس لهم إمام !

امرأة عمر بن عبد العزيز

كتبت امرأةُ عمر بن عبد العزيز إلى عمر لما اشتغل عنها بالعبادة :

١٠ ألا يا أَيُّها المَلِكُ الذى قد * سَبَى عقلى وهامَ به فؤادى

أراكَ وسِعْتَ كل الناسِ عدلا * وجُرْتَ على من بينِ العبادِ

وأعطيتَ الرعيّة كلّ فضلٍ * وما أعطيتَنِى غيرَ السُّهاد !

فصرف وجهَه إليها .

الرشيد وزبيدة وجارية

قعد الرشيد يوما عند زبيدة . وعندها جواريها ، فنظر إلى جارية واقفة

١٥ عند رأسها ، فأشار إليها أن تقبِّله ، فاعتلّت بشفتيها ، فدعا بدواة وقرطاس فوقع فيه :

قَبَّلْتُهُ من بعيدٍ * فاعتلّ من شفتَيْهِ

ثم ناولها القرطاس ، فوقعت فيه :

فما بَرِحتُ مكانى * حتى وثبتُ عليه !

٢٠ فلما قرأ ما كتبت استوهبها من زبيدة ، فوهبتها له ، فمضى بها وأقام معها أسبوعا

لا يُدرى مكانُهما ، فكتبت إليه زُبيدة :

وعاشقٍ صبٍّ بمعشوقِه * كأنما قلباهما قلبُ

روحاهما روحٌ ونفساهما * نفسٌ ، كذا فليكن الحبُّ

الأمين ووعد جارية

حدث أبو جعفر قال: بينا محمد بن زبيدة الأمين يطوف فى قصره، إذ مر بجارية له سَكْرى، وعليها كساء خزّ تسحب أذياله، فراودها عن نفسها، فقالت: يا أمير المؤمنين، أنا على ماترى، ولكن إذا كان فى غدٍ إن شاء الله!

فلما كان من الغد مضى إليها فقال لها: الوعد! فقالت يا أمير المؤمنين، أما علمت أن كلام الليل يمحوه النهار؟ فضحك وخرج إلى مجلسه فقال: من بالباب من شعراء الكوفة؟ فقيل له: مصعب، والرقاشى، وأبو نواس. فأُمر بهم فأدخلوا عليه. فلما جلسوا بين يديه قال: ليقل كل واحدٍ منكم شعراً يكون آخره

* كلام الليل يمحوه النهار *

فأنشأ الرقاشى يقول:

متى تَصْحو وقلبُك مُستطارُ * وقد مُنعَ القرارُ فلا قرارُ
وقد تَرَكَتْكَ صَبًّا مستهاماً * فتاةٌ لاتزورُ ولا تُزار
إذا آستنجزْتَ منها الوعدَ قالت * كلامُ الليل يمحوه النهار

وقال مصعب:

أتعذلُنِى وقلبُكَ مستطارُ * كئيبٌ لايقِرُّ له قرارُ
بحبِّ مليحةٍ صادتْ فؤادى * بألحاظ يُخالطها آحورار
ولما أن مَدَدْتُ يدى إليها * لألمسها بدا منها نِفار
فقلتُ لها عِدينى منكِ وعداً * فقالت: فى غدٍ منك المزار
فلما جئتُ مُقتضِيا أجابت: * كلام الليل يمحوه النهار

وقال أبو نواس:

وخَوْدٍ أقبلتْ فى القصرِ سَكْرى * ولكن زيَّنَ السُّكرَ الوقارُ
وهزَّ المشىُ أردافا ثِقالا * وغُصنا فيه رُمانٌ صغار
وقد سقَطَ الرِّدا عن منكبيْها * من التخميشِ وآنحلَّ الإزار

فقلتُ الوعدَ سيّدتى ، فقالت : * كلامُ الليـــل يمحوه النهار

فقال له : أخزاك الله ! أكنتَ معنا ومطلعا علينا ؟ فقال يا أمير المؤمنين عرفت ما فى نفسك ، فأعربتُ عما فى ضميرك . فأمر له بأربعة آلاف درهم ، ولصاحبيه بمثلها.

القصاص فى القبلة

٥ وقال بعض الورّاقين :

غضِبْتِ من قبلة بالكرْهِ جُدت بها * فها أنا جئت فاقتصّيه أضعافا

لم يأمُرِ الله إلا بالقصـــاص فلا * تستجْوِرى ما رآه الله إنصافا !

بين الرشيد ومارده

عتبت ماردة على هارون الرشيد ، فكانت تظهر له الكراهة وتضمر المحبة ، فقال فيها :

١٠ تبدى صُدوداً وتخفى تحته صلةً * فالنفسُ راضيةٌ والطّرْفُ غضبانُ

يامَن وضعتُ له خدّى فذَلّلهُ * وليس فوقى سوى الرحْمٰنِ سُلطانُ

حديث الحسن بن هانئ مع الأسود

أبو بكر الورّاق قال : قال الحسن بن هانئ : حججتُ مع الفضل بن الربيع ، حتى إذا كنا ببلاد فزارة ـ وذلك إبّان الربيع ـ نزلنا منزلا بإزاء ماء لبنى تميم ، ١٥ ذا روض أريض ، ونبتٍ غريض ، تخضع لبهجته الزرابى المبثوثة ، والنمارق المصفوفة ، فقرّت بنضرتها العيون ، وارتاحت إلى حسنها القلوب ، وانفرجت لبهائها الصدور ، فلم نلبث أن أقبلت السماء فانشق غمامها ، وتدانى من الأرض رُكامُها ، حتى إذا كانت كما قال أوس بن حجر حيث يقول : [1]

دانٍ مُسِفٌّ فويقَ الأرضِ هَيدبُهُ * يَكاد يَدفعه مَن قام بالراح

٢٠ همت بِرذاذ ، ثم بِطش ، ثم برش ، ثم بوابل ، ثم أقلعت وقد غادرت الغدران مترعة تندفق ، والقيعان تتألق ، رياض مونقة ، ونوافح من ريحها عبقة فسرّحتُ طرفى رائعا منها فى أحسن منظر ، ونشقت من رباها أطيب من المسك الأذفر .

(١) ينسب هذا البيت لعبيد بن الأبرص

قال : فلما انتهينا إلى أوائلها ، إذا نحن بخباء على بابه جارية مشرقة ، ترنو بطرف مريض الجفون ، وسنان النظر ، أشعرتْ حماليقه فترةَ وملئت سحرا ، فقلت لزميلى : استنطقها . قال : وكيف السبيل إلى ذلك ؟ قلت : استسقها . فاستسقاها ، فقالت : نعمْ ونُعْمَى عيْن ، وإن نزلتم ففى الرحب والسعة !

ثم مضت تتهادى كأنها خوط بان ، أو قضيب خيزران ، فراعنى ما رأيت منها ؛ ثم أتت بالماء فشربت منه ، وصببت باقيَه على يدى . ٥

ثم قلت : وصاحبى أيضاً عطشان ! فأخذتِ الإناء فذهبت ، فقلت لصاحبى : من الذى يقول :

إذا بارك اللهُ فى ملْبس * فلا بارك اللهُ فى البُرقع

يُريك عيونَ الدُّمَى غِرّةً * ويكشفُ عن منظرٍ أشنع ١٠

قال : وسمعتْ كلامى ، فأتت وقد نزعت البرقع ولبست خماراً أسود ، وهى تقول :

ألا حىِّ ربعىْ معشرٍ قد أراهما * أقاما ، فما أن يعرفا مُبْتغاهما

هما آستَسقَيا ماء على غير ظمأةٍ * ليستْمتعا باللّحظ ممن سقاهما

فشبّهت كلامها بعقد درّ وَهَى فانتثر ، بنغمة عذبة رقيقة رخيمة ، لو خوطب بها صمّ الصلاب لانبجست ، مع وجه يُظلم من نوره ضياء العقول ، وتتلف من روعته مُهج النفوس ، وتخف فى محاسنه رزانة الحليم ، ويحار فى بهائه طرْف البصير ؛ فرقت وجلت ، واستبطرت وأكملت ، فلو جُنّ إنسان من الحُسن جُننت ؛ فلم أتمالك أن خررتُ ساجداً فأطلتُ من غير تسبيح . ١٥

فقالت : ارفع رأسك غير مأجور ؛ لا تذمّ بعدها برقعا ، فلربما انكشف عما يصرف السكرى ، ويحلّ القوى ، ويُطيل الجوى ، من غير بلوغ إرادة ، ولا دَرك طَلِبة ، ولا قضاء وطَر ؛ ليس إلا للحَين المجلوب ، والقدَر المكتوب ، والأمل المكذوب ! ٢٠

فبقيت والله معقولَ اللسان عن الجواب ، حيران لا أهتدى لطريق ، فالتفتَ إلىّ صاحبي فقال : ما هذا الجهد بوجه برقتْ لك منه بارقة لا تدرى ما تحته ؟ أما سمعت قول ذى الرمّة :

على وجه ميّ مسْحة من ملاحةٍ * وتحت الثياب العارُ لو كان باديا !

٥ فقالت : أمّا ما ذهبتَ إليه فلا أبالك ، والله لأنا بقول الشاعر :

مُنعّمة حوْراء يجرى وِشاحُها * على كشْحٍ مُرتجّ الروادف أهضَمِ

لهـا أثرٌ صافٍ وعين مريضـة * وأحسن إيماءٍ وأحسن مِعصم

خزاعيّة الأطراف سعديّة الحَشا * فزاريّة العينيْن طائيّـة الفم

... أشبه من قولك الآخر ، ثم رفعت ثيابها حتى بلغتْ بها نحرها .

١٠ وجاوزت منْكبيها ، فإذا قضيب فضة قد أُشرب ماء الذهب ، يهتز مثل كثيب نقا ، وصدر كالوذيلة عليه كالرمانتين ، وخصر لو رُمت عقده لانعقد ، منطوى الاندماج ، على كفل رجراج ، وسرْة مستديرة ، يقصر فهمى عن بلوغ نعتها ، من تحتها أرنب جاثم ، جبهته أسد خادر ، وفخذان مدملجان ، وساقان خَدَلّجان يخرسان الخلاخيل ، وقدمان كأنهما لسانان .

١٥ ثم قالت : أعاراً ترى لا أبالك ؟

قلت : لا والله ، ولكن سبب القدَر المُتاح ، ومقرّبى من الموت الذباح ، يضيق على الضريح ، ويتركنى جسداً بغير روح !

فخرجتْ عجوز من الخباء فقالت له : آمض لشأنك ، فإن قتيلها مطلول لا يودَى ، وأسير مكبول لا يُفدى !

٢٠ فقالت لها : دعيه ، فإنّ له مثل قول غيلان :

وإن لم يكن إلا تعلّل ساعةٍ * قليلا فإنى نافعٌ لى قليلها

فولّت العجوز وهى تقول :

وما نلتَ منها غيرَ أنك ناكحٌ * بعينيك عينيها وأيْرُك خائبُ

فنحن كذلك حتى ضرب الطبل للرحيل ، فانصرفتُ بكمد قاتل ، وكرب خابل ، وأنا أقول :

ياحسْرتا ممـا يُجنّ فؤادى * أزِفَ الرحيل بعَبْرتى وبعادى

فلمـا قضينا حجنا وانصرفنا راجعين ، مررنا بذلك المنزل وقد تضاعف حُسنه ، وتمتْ بهجته ؛ فقلت لصاحبى : آمض بنا إلى صاحبتنا ! ٥

فلما أشرفنا على الخيام ، وصعدْنا ربوة ونزلنا وهدة ، إذا هى تتهادى بين خمس ما تصلح أن تكون خادما لأدناهن ، وهن يجنين من نوْر ذلك الزهر .

فلمـا رأيننا وقفنا وقلنا : السلام عليكنّ . فقالت من بينهنّ : وعليك السلام ، ألست صاحبى ؟ قلت : بلى ! قلن : وتعرفينه ؟ قالت : نعم ! وقصت عليهنّ القصة ما خرمت حرفا . ١٠

قلن لهـا : ويحك ! مازودتيه شيئا يتعلل به ! قالت : بلى زودته لحداً ضامرا ، وموتا حاضرا !

فانبرت لها أنضرهنّ خدا ، وأرشقهنّ قدا ، وأسحرهنّ طرفا ، وأبرعهنّ شكلا ؛ فقالت : والله ما أحسنت بدءا ، ولا أجملت عودا ، ولقد أسأت فى الرد ، ولم تكافئيه على الود ؛ فمـا عليك لو أسعفتيه بطلبته ، وأنصفتيه فى مودته ، وإنّ المكان لخال ، وإن معك من لا ينم عليك ؟ ١٥

فقالت : أما والله لا أفعل من ذلك شيئاً أو تشركينى فى حلوه ومره !

قالت لها : تلك إذاً قسمة ضِيزى . تعشقين أنت وأناك أنا !

قالت أخرى منهن : قد أطلتن الخطاب فى غير أدب ، فسَلن الرجل عن نيته ، وقصده وبغيته ، فلعله لغير ما أتتن فيه قصَد . ٢٠

فقلن : حيّاك الله وأنعم بك عينا ! ممن تكون ؟ وممن أنت ؟ وما تعانى ؟ وإلام قصدت ؟

فقلت : أمّا الاسم فالحسن بن هانئ ، من اليمن ، ثم من سعد العشيرة ؛

وخير شعراء السلطان الأعظم ، ومن يُدنى مجلسه ؛ ويُتّقى لسانه ، ويُرهب جانبه ؛ وأمّا قصدى فتبريد غلة ، وإطفاء لوعة قد أحرقت الكبد وأذابتها !

قالت : لقد أضفتَ إلى حُسن المنظر كرم المخبر ، وأرجو أن يُبلغك الله أمنيتك ، وتنال بغيتك !

٥ ثم أقبلت عليهنّ فقالت : ما واحدة منكنّ غير ملتمسة مرغّبة ؛ فتعالين نشترك فيه ونتقارع عليه ، فمن واقعتها القرعة منا كانت هى البادئة ! فاقترعن فوقعت القرعة على المليحة التى قامت بأمرى ...

فعلّق إزارٌ على باب الغار ، وأُدخلتُ فيه وأبطأتْ علىّ ؛ وجعلت أتشوف لدخول إحداهن علىّ ، إذ دخل علىّ أسود كأنه سارية ، وبيده شىء كالهراوة

١٠ قد أنعظ بمثل رأس الحنيذ ! قلت : ما تريد ؟ قال : أنيكك ! ثم صحت بصاحبى وكان متأنّياً مع الجوارى ؛ فوالله ما تخلصت منه حتى خرجنا من الغار ، وإذا هن يتضاحكن ويتهادين إلى الخيمات !

فقلت لصاحبى : من أين أقبل الأسود ؟ قال : كان يرعى غنما إلى جانب الغار ، فدعونه فوسوسن إليه شيئاً فدخل عليك . فقلت : أتراه كان يفعل بى

١٥ شيئا ؟ فقال : أتراك خلصت منه ! فانصرفت وأنا أخزى الناس .

قال إسماعيل : فقلت : ناكك والله الأسود ! فقال : مالك أبعدك الله ! فوالله لقد كتمت هذا الحديث مخافة هذا التأويل ، حتى ضاق به صدرى فرأيتك موضعاً له ؛ فبحق عليك إن أذعته ! قال إسماعيل : فما فهت به حتى مات .

خبر ذى الرمة

٢٠ قال أبو صالح الفزارى : ذكرنا ذا الرُّمّة ، فقال عصمة بن عبد الملك ـ شيخ منا قد بلغ عشرين ومائة سنة ـ : إياى فاسألوا عنه ؛ كان من أظرف الناس ، آدم ، خفيف العارضين ، حسن الضحك ، حلو المنطق ، وإذا أنشد

جَشّ صوته ، وإذا راجعك لم تسأم حديثه وكلامه .

وكان له إخوة يقولون الشعر ، منهم مسعود ، وهشام ، وأوفى [1] ، وكانوا يقولون القصيدة فيزيد عليها الأبيات فتذهب له .

فجمعني وإياه مُرْتَبَع ، فأتاني يوما ، فقال لى : هيا : [يا عصمة] ؛ إنّ مية مِنقرية ، وبنو منقر أخبث حيّ ، وأقفى للأثر ، فهل عندك ناقة نزدار عليها مية ؟ قلت : والله إنّ عندى الجؤذر . قال : علىّ بها .

فركبنا جميعاً وخرجنا حتى أشرفنا على بيوت الحىّ ، وإذا ببيت مية ناحية ، والقوم خُلوف ، والنساء فى الرحال ، فعرفن ذا الرمّة فتقوّض النساء إلى مية ؛ وجئنا ثم أنخنا ، ثم دنونا ، فسلمنا وقعدنا نتحدث ؛ فإذا هى جارية أملود ، واردة الشعر ، بيضاء تغمرها صفرة ، وعليها ثوب أصفر ، وطاق أخضر ؛ فقلن : أنشدنا يا ذا الرمّة ؛ فقال : أنشدهن يا عصمة . فأنشدتهن :

نظرتُ إلى أظعان مىّ كأنها * ذُرا النخل أو أثلٌ تَميل ذوائبُهْ
فأعربتِ العينان والصدر كاتم * بمُغرورِقٍ نمّت عليه سواكبُهْ
بُكا وامقٍ خاف الفراق ولم تُجَلْ * جَوائلها أسراره ومَعايبـــه

فقالت ظريفة منهن : لكن الآن فلتجُل . قال : فنظرت إليها مية متكرهة ، ثم مضيت فى القصيدة ، حتى انتهيت إلى قوله :

إذا سرحتْ من حُبّ مىّ سوارحٌ * على القلب آبتْه جميعاً عوازبُه

فقالت [لها] الظريفة : قتلته قاتلك الله ! قالت مية : ما أصحه وهنيئا له ! فتنفس ذو الرمّة تنفساً ظننت معه أنّ فؤاده قد انصدع ؛ ومضيت فيها حتى انتهيت إلى قوله :

وقد حلفتْ بالله ميّة ما الذى * أقول لها إلا الذى أنا كاذبُهْ
إذاً فرمانى الله من حيث لا أرى * ولا زالَ فى أرضى عدوٌّ أحاربُه

(1) الذى فى الأغانى أن إخوته : مسعود ، وجرفاس ، وهشام ، وأن أوفى ابن عمه .

فالتفتت إليه [مَيّةُ] فقالت : خَفْ عواقبَ الله ! ومضيتُ فى القصيدة حتى انتهيت إلى قوله :

إذا راجعتْكَ القولَ مَيّةُ أو بَدَا * لك الوجهُ منها أو نَضا الثَّوْبَ سالبُهْ

فيالكَ من خـــدٍّ أسِيلٍ ومَنطِقٍ * رَخيمٍ ومِن خَلْقٍ تَعَلَّلَ جادِبُهْ

٥ فقالت الظريفة : أما هذه فقد راجعتْك ، وقد بدا لك الوجهُ منها ، فمن لك بأن ينضو الدرعَ سالبُه ؟ فالتفتت ميةُ إليها فقالت : قاتلكِ الله ، ما أنكرَ ما تجيئين به !

فتحدثْنَ ساعة ، ثم قالت الظريفة للنساء : إن لهذين لشأنا ، فقمن بنا [عنهما . فقامت ، وقُمن معها] وقمتُ معهن ؛ فجلست فى بيت أراهما منه ، فما رأيته برح من مقعده ولا قعدته ؛ فسمعتها قالت له : كذبتَ والله ! ولا أدرى ما قال لها .

١٠ فلبثت قليلا ثم جاءنى ومعه قارورة فيها دهن ومعه قلائد ، فقال : هذا دهن طيب أُتحفنا به ، وهذه قلائد للجؤذر ؛ ولا والله ما أقلدهن بعيرا أبدا ! وشد بهن ذوائب سيفه ، وانصرفنا ؛ فكنا نختلف إليها حتى انقضى الربيع ودعا الناسَ المصيف ؛ فأتانى فقال : هَيَا عصمة ، رحلتْ ولم يبق إلا الآثار والرسوم من الديار ! وأنشدنى :

١٥ ألا يا آسْلَمِى يا دارَمىّ على البِلى * ولا زال مُنْهَلًّا بجرعائِك القَطْرُ

المأمون ويحيى ابن أكثم

خرج المأمون فى يوم عيد وقد ركب الجند أمامه ، ومعه يحي بن أكثم يضاحكه ويحادثه ، إذ نظر إلى غلام من الجند فى غاية الفراهة ، عليه ثوب حرير أخضر ، وثوب موشّى مزرَّر بالذهب ، فالتفت إلى يحي بن أكثم فقال له : يا يحيى ، ما تقول فى هذه البضاعة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إن هذا لقبيحٌ من إمام مثلك

٢٠ مع فقيه مثلى ! قال : فمن الذى يقول :

قاضٍ يرى الحدَّ فى الزّناء ولا * يَرى على من يلوط من باسِ

فقال : دعبل الذى يقول :

ولا أرى الجور ينقضى وعلى الـ * ـأمة والٍ لآل عبـــاس

قال : يُنفى إلى السند ، وإنما داعبناك . ثم أنشأ المأمون يقول :

أيها الراكبُ ثَوبا ه ه حريرٌ وحـــديدُ
جئت للعبد وفى وجـ ه ـهك للأعين عيـد
أنت جنديٌّ ولـكنْ ه فيك للحسن جنود

الفضل والأمين

٥ الفضل بن الربيع قال : قعد المخلوع للناس يوما وعليه طيلسان أزرق ، وتحته لبد أبيض ، فوقَّع فى ثمانمائة قصة ، فوالله لقد أصاب فما أخطأ ، وأسرع فما أبطأ ؛ ثم قال لى : يافضل ، أتراني لا أُحسِن التدبير والسياسة ، ولكنى وجدتُ شمّ الآس ، وشرْب الكاس ، واستلقاه من غير نُعاس ، أشهى إلىّ من ذلك !

أبو عيسى وأبو نواس

١٠ قال ابن قتيبة : خرج أبو عيسى جبريل بن أبى عيسى إلى متنزه له بالقفْص ، ومعه الحسن بن هانئ ، فى آخر شعبان ؛ فلما كان اليوم الذى أوفى به الشهر ثلاثين يوما ، قيل له : إن هـذا يوم شك ، وبعض أهل العلم يصومه . فقال : لا عليك ، ليس الشك حجة على اليقين ، حدثنا أبو جعفر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته . ثم قال لابن أبى عيسى :

١٥ لو شئتَ لم نبرحْ منْ القُفْص ه نشربُها حمــراء كالحُصّ
نسرِق هـذا اليومَ من شهرنا ه واللهُ قد يعفو عن اللّصّ !

أبو نواس فى مجلس شراب

وذكروا أن أبا عيسى خرج إلى القفص متنزها ومعه الحسن بن هانئ ، فحمله وخلع عليه ، فأقام فيها أسبوعا ، ثم قال له : بحياتى صف مجلسنا والأيام كلها . فقال فى ذلك :

٢٠ يا طِيبنا بقصورِ القُفْصِ مُشرِفةً ه بها آلدّساكِرُ والأنهارُ تَطَّرِدُ
لمّا أخذنا بها الصّهْباء صافيةً ه كأنّها النارُ وسْطَ الكأسِ تتقِدُ
جاءتْكَ من بيتِ خمّارٍ بطِينتِها ه صَفراءُ مثلَ شُعاعِ الشمسِ تَرْتعِدُ
وقام كالبدْرِ مشدوداً قَراطِقُهُ ه ظبيٌ يكادُ من التّهْييفِ ينعقد

فصبَّها من فمِ الإبريقِ ، فانبعثتْ * مثلَ اللِّسانِ جرى وآستمسَكَ الجسد
فلم نزلْ فى صباحِ السبتِ نأخذُها * والليلُ يأخذها حتى بَدَا الأحد
واستشرقتْ غُرّةُ الإثنيْن واضحةً * والجَدْىُ معترض والطّالِع الأسد
وفى الثلاثاء أعمَلْنا المَطِىَّ بها * صَهْباء ما قَرعَتْها بالمِزاجِ يد
٥ والأربعاء صفا فيه النَّعيمُ لنا * والكأسُ تضحكُ فى حافاتِها الزَّبَد
ثمَّ الخميسُ وصَلْناه بليلتِه * وتمَّ فيه لنا بالجمعةِ العدد
يا حُسنَنا وبحارُ القَصْف تَغْمُرُنا * فى لجَّةِ الليلِ والأوْتارُ تجتلِدُ
فى مجلسٍ حولَهُ الأشجارُ مُحْدِقةٌ * وفى جوانبِه الأطيارُ تَغترِد
لا نَستخِف بساقِينا لِعِزّته * ولا يرُدُّ عليه حُكمَه أحد
١٠ عند الهُمامِ أبِى عيسى الذى كَمُلتْ * أخلاقه ، فهى كالأوراقِ تُنتقَد

أبو عيشونة الخياط

أبو جعفر البغدادى قال : حدثنا أبو محمد الدمشقى قال : مررت ذات ليلة أيام فتنة المستعين ، والقمر يزهر بباب الشام ، فإذا أنا بشيخ غليظ أصلع نشوان ، قد توشح فى إزار أحمر ، ومال على شقه الأيمن ، وفى يده خوصة يشمها ويقول :

١٥ عشرون ألفَ فتًى ما منهمُ أحدٌ * إلَّا كألفِ فتًى مِقدامةٍ بَطَلِ
أضحتْ مَزاودُهُمْ مملوءةً نَشَباً * ففرَّغوها وأوكَوْها على الأمل

فقلت له : أحسنت ، لله أنت ! فقال : أتحب رقيقة ؟ فقلت : ما أحوجنى إليها . فقال :

إنما هَيَّجَ البلا * يومَ عَضَّ السَّفَرْجَلا
٢٠ وعلا الوردُ وجْنَتَيْ * ـهِ فأبدى التَّخجُّلا
يَفضَحُ البدرَ فى الكما * لِ إذا البدرُ أكْملا
ولقد قام لَحْظُ عيْـ * ـنِي على القلبِ بالقِلَى

قلت له : أبو مَن أعزك الله ؟ قال : أبو عيشونة الخياط ، شهدت حروب

ابن زبيدة كلها ، وجاريت الفتيان فى غاية كل مَيْدان ، واعترفَ لى كلُّ فاتك ، وأذعن لى كل شاطر ، ونزلتُ تلك الدارَ عشرين سنة ـ وأومأ إلى سجن بغداد ـ ثم تنفس الصعداء ، وقال : أنا الذى أقول :

لى فؤادٌ مُستهامُ ، وجُفونٌ لا تنـامُ
ودُموعٌ آخِرَالدّهـ ـرِ لعينَيَّ سِجـامُ
وحبيبٌ كلّما خا ـ طبْتُه قال سلامُ
فإذا ما قلتُ زرْنِى ، قال لى: ذاك حرام!

ثم بكى ، فلمـا أفاق قلت : ما يُبكيك ؟ قال : وكيف لا أبكى ولى حبيب بالبصرة عَلِقْتُه وهو ابن سبع عشرة سنة ، ثم غبتُ عنه ثلاثاً وثلاثين سنة ، فلما عيل صبرى خرجتُ إلى البصرة فطفت فى شوارعها حتى رأيتُه ، فما رأيت وجهاً أحسنَ منظراً ولا أزهى منه . ثم أنشأ يقول :

مُرَدّةٌ فى كَبِـده ، مُعذّبٌ فى سُهدِهْ
خلا به السُّقمُ ، فما ، أسرعَهُ فى جسدِه
برحمـه لِمـا بدَا ، من ضُرِّهِ ذو حسدِه

ثم ودعنى ومضيت .

جارية فى الطواف

وحدث أبو الفضل قال : إنى بالطواف أمام الحجر ، إذ سمعت حنيناً يخرج من بين الأستار ، وإذا بقائل يقول :

عفا الله عمّنْ يَحفظ الوُدّ جُهدَهُ ، ولا كان عفوُ اللهِ للنّاقضِ العهدِ
وضعْتُ على الأستارِ خدّى ذَليلةً ، ليجمعَنى مع منْ وضعتُ له خدّى

قال : فرفعتُ الأستار ، فإذا جارية منفردة ، كأنهـا شمسٌ تجلت عنها غمامة ؛ فقلت : ياهذه ، لو سألتِ اللهَ الجنة مع هـذا التضرع والبكاء ما حرَمَكِ إياها ! قال : فسترَتْ وجهَها وقالت : سبحان من خلق فسوى ، ولم يهتك العلانيةَ والنجوى ؛ أما والله إنى لفقيرة إلى رحمـةِ ربى ، وقد سألته أكبر

الأمرين عندى ، رجاء فضله ، واتكالا على عفوه ! ثم ولت عنى ، فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم .

مسلم بن عبد الله وزبان

حدث مسلم بن عبد الله بن مسلم بن جندب قال : خرجت أنا وزبّان السواق إلى العقيق ، فلقينا نسوة نازلات من العقيق ، لهن جمال وشارة ، وفيهن جارية حُسّانة العينين ، فلما رآها زبان قال لى : يابن الكرام ، دَمُ أبيك والله فى ثيابها فلا تطلب أثراً بعد عين ! وأنشد قول [أبيه] أبى مسلم بن جندب :

ألا يا عبادَ اللهِ ، هـذا أخوكمُ * قتيلٌ ، فهل منكم له اليومَ ثائر ؟

خذوا بدمِي إن متُّ كلَّ مليحةٍ * مريضةِ جَفنِ العيْنِ والطرْفُ ساحرُ

قال : فقالت لى الجارية : أنت ابن جُندب ؟ قلت : نعم . قالت : فاغتنم نفسك واحتسب أباك ؛ فإن قتيلنا لا يُودَى وأسيرنا لا يُفدَى .

عبد الله بن مسلم

الزبير بن بكار عن عبد الله بن مسلم بن جندب قال : قلت :

تعالوْا أعينونى على الليْل إنه * على كل عيْنٍ لا تنام طويل

قال : فطرقنى عيسى بن طلحة ؛ قال : إنى سمعت قولك لجئت أُعينُك ! فقلت : يرحمك الله ، أغفلت الإجابة حتى أتى الله بالفرج .

مى صاحبة ذى الرمة

أبو المهلهل الخزاعى قال : ارتحلت إلى الدهناء ، فسألت عن مىّ صاحبة ذى الرمة ، فدفعتُ إلى خيمة فيها عجوز هيفاء ، فسلمت عليها وقلت : أين منزل مىّ ؟ فقالت : ها أنا مىّ . فقلت : عجباً من ذى الرمة وكثرة قوله فيك ! قالت : لا تعجب ، فإنى سأقوم بعذره . ثم قالت : فلانة . فخرجت من الخيمة جارية ناهد عليها برقع ؛ فقالت لها : أسفِرى . فلما أسفرت تحيرت لما رأيت من حسنها وجمالها . فقالت : علقنى ذو الرمة وأنا فى سن هذه ، وكلُّ جديدٍ إلى بِلى . قلت : عذرتُه والله ! واستنشدتُها من شعره ، فأنشدتْنى .

ما يكتب على العصائب وغيرها

أبو الحسن قال : دخلت على هارون الرشيد وعلى رأسه جَوار كالتماثيل ، فرأيت عصابة منظمة بالدر والياقوت مكتوباً عليها بصفائح الذهب :

ظلمْتَنى فى الحبِّ ياظالم * والله فيما بيننا حاكم

قال : ورأيت فى عصابة أخرى : ٥

مالى رميْتُ فلم تُصبْك سِهامى * ورميْتَنى فأصبتنى يارامى ؟

قال : ورأيت على أخرى :

* وضْعُ الخدِّ للهوى عزٌّ *

قال : ورأيت فى صدر أخرى هلالا مكتوباً عليه :

أفلتُ من حُور الجِنانِ * وخُلِقتُ فتنةَ من يَرانى ١٠

قال إسحاق بن إبراهيم : دخلت على الأمين محمد ابن زبيدة ، وعلى رأسه وصائف فى قراطق مفروجة ، بيد وصيفةٍ منهن مِروحةٌ مكتوب عليها :

بِىَ طاب العيشُ فى الصيْـــف ، وبى طاب السُّرورُ
ممسكٍى يَنفى أذى الحـــرِّ إذا آشتدّ الحَرور
النَّدى والجودُ فى وجـــه أمين الله نور ١٥
مـــلكٌ أســلَمه الشِّبْـــهُ وأخـــلاه النَّظـــير

وفى عصابة :

ألاَ باللهِ قولوا يا رجال * أشمسٌ فى العصابة أم هلالُ

وفى أخرى :

أتهْوَوْنَ الحياةَ بلا جُنون * فكفُّوا عن مُلاحظة العيونِ ٢٠

وكتبت وردُ جارية الماهانى على عصابتها ، وكانت تجيد الغناء مع فصاحتها وبراعتها :

تمتْ وتم الحُسْن فى وجهها * فكلُّ شىءٍ ما سواها مُحالْ

الناس فى الشهر هلالٌ ولى * فى وجهها فى كلِّ يوم هلالْ

وكتبت فى عصابتها بيتين من شعر الحسن بن هانئ ، وهما :

يا رامياً ليس يدرى ما الذى فعلا * عليك عقلى ، فإنّ السهمَ قد قتَلا

أجرَيتَه فى مجارى الرُّوح من بدنى * فالنفْسُ فى تعَب والقلب قد شُغلا

٥ قال على بن الجهم : خرجت علينا عالج جارية خالصة ، كأنها خوط بان وهى تميس فى رقة ، وعلى طرّتها مكتوب بالغالية ، وكانت من مُجّان أهل بغداد مع علمها بالغناء :

ياهلالا من القصور تجلّى * صام طرْفى لمُقلتيْك وصلّى

لست أدرى أطال ليلى أم لا * كيف يدرى بذاك من يتقلّى

١٠ لو تفرّغت لاستِطالة ليلى * ولرَعْى النجوم كنت مُخِلّا

قال : وخرجت إلينا مَنال وعليها درع خام ، على جانبه الأيمن مكتوب :

كتب الطرْفُ فى فؤادى كتابا * هو بالشوْقِ والهوى مختوم

وعلى الأيسر مكتوب :

كان طرْفى على فؤادى بلاءً * إنّ طرْفى على فؤادى مَشُومُ

١٥ قال : وكان على عصابة ظبى ، جارية سعيد الفارسى ، مكتوب بالذهب :

العيْنُ قارئةٌ لما كتبت * فى وجْنتىّ أناملُ الشجَنِ

قال : وحدثنى الحسن بن وهب قال : كتبت شعب على قلنسوة جاريتها شكل :

لم ألق ذا شجَن يبوحُ بحبّه * إلا حسِبْتُك ذلك المحبوبا

حذراً عليك،وإننى بك واثقٌ * ألّا ينالَ سوايَ منك نصيبا

٢٠ وكتب شفيع ، خادم المتوكل ، على عاتق قبائه الأيمن :

بدرٌ على غصن نضير * تُرِقُ الترائبِ بالعبير

وعلى عاتقه الأيسر :

خطّتْ صحيفةُ وجهِه * فى صفحة القمر المنير

وكتبت وصيف ، جارية الطائى ، على عصابتها :

فما زال يشكو الحبَّ حتى حسِبْتُه * تنفّس فى أحشائه وتكلما

فأبكى لديه رحمةً لبُكائه * إذا ما بكى دمعاً بكيْتُ له دمَا

وكان على عصابة مزاج ، وهى من مواجن أهل بغداد وفُتّاكها :

٥ قالوا عليك دُروعُ الصبر قلت لهم * هيهات إنّ سبيل الصبرِ قد ضاقا

ما يرجع الطرْفُ عنها حين يُبصرها * حتى يعود إليها الطرف مُشتاقا

وكتبت عنان جارية الناطفى على عصابتها :

الكفرُ والسِّحر فى عينى إذا نظرتْ * فاغْرُب بعيْنيْك يا مغرور عن عينى

فإنّ لى سيف لحْظٍ لست أغمدُه * من صنعةِ الله لا من صنعة القَيْنِ

١٠ وكتبت حدائق فى كفها بالحناء :

ليس حُسْنُ الخِضابِ زيّن كفّى * حُسْن كفّى زيْنٌ لكلِّ خِضابِ

قال : وخرجت علينا جارية حمدان ، وقد تقلدت سيفاً محلى ، وعلى رأسها قلنسوة مكتوب عليها :

تأمّل حُسْنَ جاريةٍ * يَحارُ بوَصفِها البصَر

١٥ مُذكّرة مؤنثةٍ * فهى أُنثى وهى ذكر

وعلى حمائل سيفها مكتوب بالذهب :

لم يكْفِه سيفٌ بعينَيه * يقتُل من شاء بخديه

حتى تَردّى مُرْهَفاً صارما * فكيف أبقَى بين سيفيْهِ

فلو تراه لابساً درعَه * يخطرُ فيها بين حسّيْه

٢٠ علِمتُ أنّ السيف من طرْفه * أقتَلُ من سيفٍ بكفيْه

وكتبت واجد على منطقة جاريتها منصف الكوفية :

تشكّى من غمزةِ العيْنِ إذا ما مِشْتُ تنحلّ

وفؤادي رَقّ حتى * كاد من صدريَ ينسلّ
بعضُ مابي يَصْدع القلـــبَ . فما ظنُّك بالكل

ومن قولي فيما كتبت على كأس مذهبة :

اشرب على منظرٍ أنيقِ * وامزُج بريقِ الحبيبِ ريق
٥ واحلل وشاح الكعابِ رفقاً * واحذرْ على خصْرها الدقيقِ
وقل لمن لامَ في التّصابي * إليك خلِّ عن الطريق

وقف صريع الغواني بباب محمد بن منصور فاستسقى ، فأمر وصيفاً له فأخرج إليه خمراً في كأس مذهبة ، فلما نظر إليها في راحته قال : صريع الغواني

ذهبٌ في ذهبٍ را * حَ بها غصنُ لُجَيْنِ
١٠ فأتت قُرّةَ عيْني * مِن يديْ قُرةِ عيْنِ
قمر يحمل شمساً * مرحباً بالقمريْن
لا جَرَى بيني ولا بيـــنهُما طائرُ بيْن
وبقينا ما بقِينا * أبداً مُتفِقَيْن
في غَبوقٍ وصَبوحٍ * لم نَبعْ نقداً بديْن

١٥ محمد بن إسحاق قال : حدثني أحمد بن عبد الله قال : رأيت على مروحة مكتوباً :

الحمد لله وحدَهْ * وللخليفةِ بعدَهْ
وللمحبِّ إذا ما * حبيبُه بات عنده

وقال : ورأيت في مجلس سريراً مكتوباً عليه بالذهب :

أشهى وأعذبُ من راحٍ ومن وَرْدٍ * إلفانِ قد وَضعا خدًّا على خدّ
٢٠ وضمّ أحدهما أحشاء صاحبِه * حتى كأنهما للقرب في عِقْد
هذا يبوح بما يلقاه من حَزَنٍ * وذاك يُظهِر ما يخفى من الوَجْد

وفي عصابة أخرى :

وإن يَحجُبوها بالنهار فمَنْ لهم * بأن يَحجُبوا بالليل عني خيالها

قال أبو عبيدة : ورأيت [جارية] على جبينها مكتوبا :

كَتَبَتْ فى جبينهـــا * بعبـــير على قَمَرْ

فى سُطور ثلاثةٍ : * لعنَ اللهُ مَن غَدَرْ

وتناولْتُ كفَّها * ثم قلت اسمعى الخبَرْ

كلُّ شىء سوى الخيا * نةِ فى الحبِّ يُغْتفر

قال الأصمعى : رأيت على باب الرشيد وصائفَ على عصابة واحدة منهن مكتوبا :

نحنُ حورٌ نَواعِمٌ * من أراضٍ مقدَّسهْ

أحسنَ الله رزقَنا * ليس فينا مُنحسه

فاتق الله يافـــتى * لا تَدَعْنى مُوسوَسه

الكرمانى والمأمون

وقال أبو جعفر الكرمانى يوما للمأمون : أتأذن لى فى دعابة ؟ قال : هاتها ويحك ، فما العيش إلا فيها ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إنك ظلمتنى وظلمت غسان ابن عباد . قال : وكيف ذلك ويلك ؟ قال : رفعت غسان فوق قدره ، ووضعْتنى دون قدرى ، إلا أنك لغسان أشدُّ ظلما . قال : وكيف ؟ قال : لأنك أقمته مقام هر ، وأقمتنى مقام رَخَمه . فاستظرف ذلك منه ورفع درجته . ٥

بين عطاء وعبد الملك

أبو زيد قال : كان عطاء بن أبى رباح مع ابن الزبير ، وكان أملح الناس جوابا فلما قتل ابن الزبير أمّنه عبد الملك بن مروان ، فقدم عليه فسأل الإذن ، فقال عبد الملك : لا أريده يُضحكنى ، قد أمّنته فلينصرف .

قال أصحابه : فنحن نتقدم إليه ألا يفعل . فأذن له عبد الملك ، فدخل وسلم عليه وبايعه ، ثم ولّى ، فلم يصبر عبد الملك أن صاح به : يا عطاء ، أما وجدت أمُّك اسما إلا عطاء ؟ قال : قد والله استنكرتُ من ذلك ما استنكرتَه يا أمير المؤمنين لو كانت سمتنى باسم المباركة صلوات الله عليها مريم ! فضحك عبد الملك ، وقال : اخرج . ٢٠

هارون ولاعب شطرنج

لعب رجل بين يدى هارون بالشطرنج ، فلما رآه قد استجاد لعبَه وفاوضه

أيرِ ذا يُنعِظُ للنَّيـ ـكِ وذا رِخْوُ العِنان
لو بهـذا عفَّ هذا لاستراح الثَّقَلان

لبشار على لسان حمار

محمد بن الحجاج البزّاز ـ وكان راوية بشار ـ قال : قال بشار ذات يوم ، وهو يعبث ، وكان مات له حمار قبل ذلك ، قال : رأيت حمارى البارحةَ فى النوم ، فقلت له : ويلك ! مالك مُتَّ ؟ قال : إنك ركبتنى يوم كذا وكذا ، فمررنا على باب الأصبهانى ، فرأيت أتانا عند بابه ، فعشقتها فمت ! وأنشد :

سيّدى خُذْ لى أمامًا من أتانِ الأصبهانى
إنّ بالبابِ أتاناً فضَلتْ كلَّ أتانِ
تيَّمتْنى يومَ رُحْنا بثناياها الحِسان
وبغُنْــجٍ ودَلالٍ سلَّ جسمى وبَرَانى
ولها خـدٌّ أسيلٌ مثلُ خدِّ الشَّيْفَران
فبها متُّ ولو عِشـ ـتُ إذاً طال هَوانى !

فقال له رجل من القوم : يا أبا معاذ ، ما الشيفران ؟ قال : هو شىء يتحدث به الحمير . فإذا لقيت حماراً فاسأله .

لأعرابى

وقيل لأعرابى وهو واقف على ركيّة مالحة : كيف هذا الماء ؟ قال : يخطئ القلب ، ويصيب الاست .

نادرة شارب

وأُخذ رجلٌ شرب ، فأُتى به الوالى فقال : استنكهوه . فقالوا : إن نكهته لا تُبين عنه . قال : فقيّئوه . فقال الشارب : فإن لم أقئ شراباً فمن يضمن لى عَشائى ؟

بين أعرابيين

رافق أعرابى أعرابيا فى سفر فقال : أنا والله أشتهى كَشْكِيّة . ومدّ بها صوته فضرط ، فقال له صاحبه : ما نَفَخَتْك يا بن عمّ !

الأحدب الآدر

أبو الخطاب قال : كان عندنا رجل أحدب فسقط فى بئر فذهبت حدبتُه وصار آدَر ، فدخلوا ليهنئوه ، فقال : الذى جاء شرٌّ من الذى ذهب .

قيل لأشعب : لو أنك حفظت الحديث حِفظَك هذه النوادر لكان أولى بك . قال : قد فعلت : قالوا له : فما حفظت من الحديث ؟ قال : حدثنى نافع عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من كان فيه خصلتان كُتب عند الله خالصا مخلصا » . قالوا إن هذا حديث حسن ؛ فما هاتان الخصلتان ؟ قال : نسى نافع واحدة ؛ ونسيت أنا الأخرى ! ٥

وقال أشعب : رأيت رؤيا نصفها حق ونصفها باطل . قالوا كيف ذلك ؟ قال : رأيتنى أحمل بدرة ، فمن شدة ثقلها علىّ كنت أسلح فى ثيابى ؛ ثم انتبهت ، فإذا أنا بالسلح ولا بدرة !

ساوم أشعب رجلا بقوس ، فقال : أقلُّ ثمنها دينار . قال أشعب : والله لو أنك إذا رميت بها طائرا فى السماء وقع مشويا بين رغيفين ، ما اشتريتها منك بدينار أبدا ! ١٠

وقيل لأشعب : خففت صلاتك . قال : لأنها صلاة لا يخالطها رياء !

وضرب الحجاج أعرابيا سبعمائة سوط ، وهو يقول عند كل سوط : شكرا لك يارب ! فلقيه أشعب فقال : أتدرى لم ضربك الحجاج سبعمائة سوط ؟ قال : ما أدرى . قال : لكثرة شكرك ؛ الله تعالى يقول ﴿ لئن شكرْتم لأزيدنّكمْ ﴾ فقال : ١٥

يارِبِّ لا شكرَ فلا تَزدنى * أسأتُ فى شكرك فاعفُ عنى

باعِد ثوابَ الشاكرينَ منى

وسأل رجلٌ أشعبَ أن يُسلفه ويؤخّره، فقال هاتان حاجتان ، فإذا قضيت لك إحداهما فقد أنصفتُ . قال الرجل : رضيت . قال : فأنا أؤخرك ما شئت ولا أسلفك ! ٢٠

أبو حاتم عن الأصمعى عن أبى القعقاع قال : رأيت أشعب فى السوق يبيع قطيفة ويقول للمشترى : أريد أن أبرأ إليك من عيب . قال : وماذاك ؟ قال :

يحترق تحتها من دفن فيها .

قال أشعب : من بال ولم يضرط كتب من الكاظمين الغيظ .

وقيل لأشعب : هل خُلق خلقٌ أطمعُ منك ؟ قال : نعم ، أمّى ، فإنى كنت إذا جئتها بفائدة قد أعطيتها قالت : ما جئت به ؟ فأتهجى لها الشيء حرفا حرفا ! ولقد أهدى لنا مرة غلام ، فقالت : ما أهدى لنا ؟ قلت : « غين » ؛ قالت : ثم ماذا ؟ قلت : « لام » ، قالت : ثم ماذا ؟ قلت : « ألف » ، قالت : ثم ماذا ؟ قلت : « ميم » ؛ فأغمى عليها وجعلت تضرط ، ولو أجملت لها الحروف لماتت فرحا !

وقيل له : ما بلغ من طمعك ؟ قال : لم أنظر إلى اثنين يتساران إلا حسبت أنهما يأمران لى بشيء !

ونظر أشعب إلى شيخ قبيح الوجه ، فقال : ألم ينهكم سليمان بن داود عن أن تخرجوا بالنهار !

ومر أشعب على رجل نجار يعمل طبقا ، فقال له : زد فيه طوقا واحدا تتفضل به علىّ ! قال : وما يدخل عليك ؟ قال : لعل يوماً يُهدى إلىّ فيه شيء !

قال الأصمعى ، أخبرنى هارون بن زكريا عن أشعب قال : أدركت الناس يقولون قتل عثمان .

قال الأصمعى : وعاش أشعب إلى زمان المهدى ورأيته .

نوادر أبى محمد الأعمش

دخل رجل على الأعمش يسأله عن مسألة ، فردّ عليه فلم يسمع ؛ فقال له : زدنى فى السماع . قال : ماذلك لك ولا كرامة . قال : فبينى وبينك رجل من المسلمين قال : فخرجا إلى الطريق ، فمر بهما شريك القاضى ؛ فقال [الأعمش] : إنى حدثت هذا بحديث فلم يسمع ، فسألنى أن أزيده فى السماع لأنه ثقيل السمع ، وزعم أن ذلك واجب له ، فأبيت . قال له شريك : عليك أن تزيده ، لأنك تقدر أن تزيد فى صوتك ؛ ولا يقدر أن يزيد فى سمعه !

أتت ليلة الشك من رمضان ، فكثر الناس عند الأعمش يسألونه عن الصوم فضجر ، ثم بعث إلى بيته فجيء إليه برمانة ، فشقها ووضعها بين يديه ، فكان إذا نظر إلى رجل قد أقبل يريد أن يسأله ، تناول حبة فأكلها ، فيكفى الرجلَ السؤال ونفسَه الرد !

قال رقبة بن مصقلة : سَفِهَ علينا الأعمش يوما ، فقالت امرأته من وراء ستر : احملوا عنه ، فوالله ما يمنعه من الحج منذ ثلاثين سنة إلا مخافة أن يلطم كريَّهُ أو يشتُم رفيقه .

طلبت بنت الأعمش من الأعمش حاجة ، فجبها بالرد . فقالت : والله ما أعجب منك ، ولكنى أعجب من قوم زوجوك !

ودخل رقبة بن مصقلة على الأعمش ، فقال : والله إنا لنأتيك فما تنفعنا ، ونتخلف عنك فما تضُرنا ، وإن الوقوف إليك لذلّ ، وإن تركك لحسرة ؛ تُسأَل الحكمة فكأنما تُسعَط الخردل . وما أشبهك إلا بالصماخيقون ، فإنه كريه الشربة نافع للمعدة ! فرفع الأعمش رأسه وقال : من هذا المتكلم ؟ فقيل له : رقبة بن مصقلة فنكس رأسه .

وقال رجل من تلاميذ الأعمش : صنعت للأعمش طعاما ثم دعوته ، فمضى معى وأنا أقوده ، حتى سقطت رجله فى حفرة يعملها الصبيان للكرة ، فقال : ماهذا ؟ قلت حفرة يعملها الصبيان للكرة . قال : لا . ولكنك حفرتها لتقع رجلى فيها ! والله لا أكلتُ عندك يومى هذا طعاما ! قال : فحملت الطعام إليه ، ثم صنعت له بعد ذلك طعاماً ودعوته إليه ، فقال : ادخل بنا الحمام قبل ذلك . فأدخلته الحمام ، فلما جئت لأصُبّ الماء الحارّ على رأسه ، قال : مادعاك إلى هذا أردت أن تسلخ قفاى ! والله لا أكلتُ عندك يومى هذا طعاماً ! قال : فحملت الطعام إليه !

وكثر الشعرُ على الأعمش ، فقلت له : لم لا تأخذ من شَعرك ؟ قال : لا أجد

حجّاما يسكت حتى يفرغ . قلنا له : فإنا نأتيك بحجام ونتقدم إليه أن يسكت حتى يفرغ . قال : فافعلوا .

قال : فأتيناه بحجام وأعذرنا إليه ألا يتكلم حتى ينقضى أمره فبدأ الحجام بحلقه ، فلما أمعن فى حلقه سأله عن مسألة ، فنفض ثيابه وقام بنصف رأسه محلوقا حتى دخل بيته ، ثم جئناه بغيره ، فقال : لا والله لا أخرج إليه حتى تُحلفوه ! فحلفناه ألّا يسأله عن شيء ؛ فخرج إليه .

نوادر محمد بن مطروح الأعرج

ولمحمد بن مطروح الأعرج من التبرم والملح والضجر والترفّع ما هو أحسن من هذا وأوقع .

قال له رجل يوما : ما تقول يرحمك الله فى رجل مات يوم الجمعة ، أيعذب عذاب القبر ؟ قال : يعذّب يوم السبت !

وقال له آخر : أنجد فى بعض الحديث أنّ جهنم تخرب ؟ قال : ما أشقاك إن اتكلت على خرابها !

واستسقى بالناس يوما فأسرع بالصلاة قبل أن يتوافى الناس ؛ فلما انصرف تلقاه بعض الوزراء فقال له : أسرعت أبا عبد الله . قال : ليس علينا أن ننتظر حتى تشربوا وتأكلوا !

وكانت لقومس الكاتب منه منزلة وجوار ، وكان يتحفه ويتفقده بما أمكنه من الهدايا ، وكانت صلاته معه فى الجامع ، والأعرج صاحب الصلاة ، فإذا حضرت الصلاة ولم يحضر قومس ، قال لبعض القَوَمة : أنت يا شيطان ، كلّم هؤلاء الكلاب لا يقيمون الصلاة حتى يأتى ذلك الخنزير .

فكان برُّه فى حبس الصلاة عليه برًّا العقوق خير منه .

وكان يجلس إليه خصى لزرياب ، قد حج وتنسك ولزم الجامع ، فيتحدث

فى مجلسه بأخبار زرياب ، ويقول : كان أبو الحسن رحمه الله يقول كذا وكذا . فقال له الأعرج : من أبو الحسن هذا ؟ قال : زرياب . قال : بلغنى أنه كان أخرق الناس لاستِ خَصِىّ !

وسأله مرة وقال له : ما تقول فى الكبش الأعرج ، أيجوز فى الأضحية ؟ قال : نعم ، والخصىُّ أيضاً مثلك ! ٥

نوادر شتى

وسمع أبو يعقوب الخريمىُّ منصورَ بن عمار صاحب المجالس ، يقول فى دعائه : اللهم اغفر لأعظمنا ذنبا ، وأقسانا قلبا ، وأقربنا بالخطيئة عهدا ، وأشدنا على الدنيا حرصا ! فقال له : امرأتى طالق إن كنت دعوت إلا لإبليس !

١٠ الأصمعى قال : حدثنا بعض شيوخنا عن ابن طاوس قال : أقبلت إلى عبد الله بن الحسن ، فأدخلنى بيتاً قد نُجِّد بالرهاوى والميسانى ، وكل فِرْشة شريفة ؛ قال : فبسطت نطعاً وجلست عليه ، وابناه محمد وإبراهيم صبيّان يلعبان ، فلما نظرا إلىّ قال أحدهما لصاحبه : « ميم » . فقال الآخر : « جيم » . فقلت أنا : « نون ، واو ، نون » فاستغربا ضحكا ، وخرجا إلى أبيهما .

١٥ أبو زيد قال : سكر حائك من الزُّط ، فحلف بالطلاق ليغنّيه أبو على الأشرس ، فمضى معه جماعة إلى أبى على ، فأخبروه ، وقالوا : سكر فابتُلى ، وحلف بالطلاق لتغنّينّه ، فأقبل على الحائك فقال : « يا مُرد سَبْز ، يا مُرْد خُش ، يا مُرْد تَرْ ، إياك أن تعود ! » .

قال أبو زيد : تفسيره : ياسمينٌ أخضر ، ياسمين طيب ، ياسمين رطب .

٢٠ وكان شيخ من البخلاء يأتى ابن المقفع ، فألح عليه يسأله الغداء عنده ، وفى كل ذلك يقول له : أترى أنك ترانى أتكلف لك شيئا ؟ لا والله ، لا أقدم لك إلا ما عندى ! فأجابه يوما ، فلما أتاه إذا ليس عنده ولا فى منزله إلا كسرة يابسة

وملح جريش ؛ ووقف سائل بالباب ، فقال له : بورك فيك ! فألحّ عليه بالسؤال ، فقال له : لئن خرجتُ إليك لأدُقّن ساقيك ! فقال ابن المقفع للسائل : أنت والله لو علمتَ من صدق وعيده ما علمتُ من صدق موعوده ، لم تراده كلمة ولا وقفت طرفةَ عين !

٥ مرّ برقبة بن مصقلة رجل زاهد غليظ الرقبة ، فقال : هذا رجل زاهد والعلامات فيه بخلاف ذلك . فقال له رجل : أكلّمه بذلك أصلحك الله ! لئلا يكون غيبة ؟ قال : كلّمه حتى يكون نميمة !

قال شريك بن عبد الله القاضى : سبعٌ من العجائب : عمياء منتقبة ، وسوداء مختضبة ، وخصىّ له امرأة . ومخنث يؤمّ قوما ، وشيعىّ أشعرىّ ، ونخعىّ
١٠ مُرْجى ، وعربىّ أشقر . ثم قال شريك : من المحال عربىٌّ أشقر .

قالوا : كانت فى أبى عمرو وضرار بن عمرو ثلاثة من المحال : كان كوفيا معتزلا ، وكان من بنى عبد الله بن غطفان ويرى رأى الشعوبية ، ومحال أن يكون عربى شعوبيا ، ومات وهو ابن سبعين سنة . . .

وقيل لشريح القاضى : أيهما أطيب : اللوزينق أو الجوزينق ؟ فقال :
١٥ لا أحكم على غائب !

وسأل رجل عمر بن قيس عن الحصاة من حصى المسجد يجدها الإنسان فى ثوبه أو خفه أو جبهته ؛ فقال له : آرم بها . فقال الرجل : زعموا أنها تصيح حتى تُرَدّ إلى المسجد . قال : دعها تصيح حتى ينشقّ حلقها ! قال الرجل : أوَ لها حلق ؟ قال : فن أين تصيح ؟

٢٠ وسئل عامر الشعبى عن المسجد الخراب أيُجامَع فيه ؟ قال : نعم ويُخرأ فيه ؟

الأصمعى قال : وَلِىَ رجل قضاء الأهواز ، فأبطأت عليه أرزاقه وليس عنده ما يُضحّى به ولا ما يُنفق ؛ فشكا ذلك إلى امرأته ، وأخبرها ما هو فيه من الضيق ، وأنه لا يقدر على أُضحِية ؛ فقالت له : لا تغتم ، فإنّ عندى ديكا عظيما

قد سمّنته ، فإذا كان يوم الأضحى ذبحناه . فبلغ جيرانه الخبر ، فأهدوا له ثلاثين كبشاً وهو فى المصلى لا يعلم ؛ فلما صار إلى منزله ورأى ما فيه من الأضاحى ، قال لامرأته : من أين هذا؟ قالت : أهدى لنا فلان ، وفلان ، وفلان . . . حتى سمت له جماعة . فقال لها : ياهذه ، تحفّظى بديكنا هذا ، فلهو أكرم على الله من إسحاق بن إبراهيم ؛ إنه فدى ذلك بكبش واحد ، وفدى ديكنا هذا بثلاثين كبشا !

نوادر أبى دلامة

خرج أبو دلامة مع المهدى فى مَصادٍ لهم ، فعنّ لهم ظبى ، فرماه المهدى فأصابه ، ورمى علىُّ بن سليمان فأخطأ وأصاب الكلبَ ؛ فضحك المهدى وقال لأبى دلامة : قل . فقال :

قد رَمى المهدىُّ ظبْياً ٭ شـــكّ بالسهم فؤادَهْ
وعلىُّ بن ســـليما ٭ ن رَمى كلْباً فصاده
فهنيئـــا لهما كـ ٭ ـلّ امرئٍ يأكل زاده !

وكتب أبو دلامة إلى عيسى بن موسى ، وهو والى الكوفة رقعة فيها هذه الأبيات :

إذا جئت الأميرَ فقلْ سلام ٭ عليك ورحمة الله الرحيم
وأمّا بعـــد ذاك فلى غريمٌ ٭ من الأعراب قُبِّحَ من غريم
لزومٌ ما علِمت بباب دارى ٭ لزومَ الكلب أصحابَ الرقيم
له مائةٌ علىّ ونصفُ أُخرى ٭ ونصفُ النصف فى صكٍّ قديم
دراهمُ ما انتفعتُ بها ولكنْ ٭ حبوْتُ بهـا شيوخَ بنى تميم

ودخل أبو دلامة على المهدى وعنده محمدُ بن الجهم وزيره ، وكان المهدىّ يستثقله ؛ فقال لأبى دلامة : والله لا تبرح مكانك حتى تهجو أحد الثلاثة !

فهمّ أبو دلامة بهجاء ابن الجهم ، ثم خاف شرّه ، فرأى أن هجاء نفسه أقل ضرراً عليه ، فقال :

ألا أبلِـغْ لديك أبا دُلامَهْ * فليس من الكِرامِ ولا كَرامهْ

إذا لبس العِمامةَ كان قِرْداً * وخنزيراً إذا وضع العِمامه

وإن لبِس العمامةَ كان فيها * كَثَوْرٍ لا تفارقُه الكِمامه[1]

وعرض أبو دلامة ليزيد بن مزيد ، وهو قادم من الريّ ، فأخذ بعنان فرسه وأنشد :

إنّى نَذَرْتُ لئِنْ رأيتُك سالِماً * بِقُرى العِراقِ وأنت ذو وفْرِ

لَتُصَلِّيَنَّ على النبىّ مُحمّـدٍ * ولَتَمْلأنّ دَراهِماً حِجرى !

فقال له : أما الصلاة على محمد فصلى الله على محمد ، وأما الدراهم فإلى أن أرجع إن شاء الله . فقال له : لا تفرّق بينهما ، لا فرّق الله بينك وبين محمد فى الجنة ! فاقترضها من أصحابه وصبّها فى حجره حتى أثقلته .

ودخل أبو دلامة على المهدى فأسمعه مديحاً ، فأعجبه وقال له : سل حاجتك ! قال : كلب صيد أصطاد به . قال : قد أمرنا لك بكلب تصطاد به . قال : وغلام يقود الكلب . قال : قد أمرنا لك بغلام . قال : وخادم تطبخ لنا الصيد . قال : وأمرنا لك بخادم . قال : ودار نأوِى إليها . قال : وأمرنا لك بدار . قال : بقى الآن المعاش . قال : قد أقطعناك ألف جريب عامرة وألف جريب غامرة . قال : وما الغامرة ؟ قال : التى لا تعمَر . قال : فأنا أُقطع أمير المؤمنين خمسين ألفاً من فيافى بنى أسد ! قال : فإنّا نجعلها عامرة كلها . قال : فيأذن أمير المؤمنين

---

(١) لم يرد هـذا البيت فيما روى صاحبا الأغانى ونهاية الأرب ؛ وزادا على البيتين الأولين :

جمعت دَمامة وجمعت لؤما * كذاك اللؤمُ تتبعه الدّمامه

فإن تكُ قد أصبت نعيمَ دنيا * فلا تفرح فقد دنت القيامه !

فى تقبيل يده . قال : أما هـذه فدعها ، قال : ما منعتَنى شيئاً أيسر على أمّ عيالى فقداً منه !

المضحكات

خاطب يزكيه وسيط

أبو الحسن المدائنى قال : خطب رجلٌ من بنى كلاب امرأةً ، فقالت أمها : دعنى حتى أسألَ عنك . فانصرف الرجلُ فسأل عن أكرم الحىّ عليها ؛ فدُلَّ على شيخ منهم كان يُحسنُ التوسط فى الأمر ، فأتاه يسأله أن يُحسن عليه الثناء ، وانتسب له فعرفه ؛ ثم إن العجوزَ غدت عليه فسألته عن الرجل ، فقال : أنا أعرف الناس به . قالت : فكيف لسانُه ؟ قال : مِدْرَهُ قومه وخطيبهم ! قالت : فكيف شجاعتُه ؟ قال : منيع الجار حامِي الذمار ! قالت : فكيف سماحتُه ؟ قال : ثِمال قومه وربيعهم ! وأقبل الفتى ، فقال الشيخ : ما أحسن والله ما أقبل ! ما انثنى ولا انحنى . ودنا الفتى فسلّم ، فقال : ما أحسن والله ما سلّم ! ما جَار ولا خار[1] . ثم جلس ، فقال : ما أحسن والله ما جلس ! ما دنا ولا نأى . وذهب الفتى ليتحرك فضرط ، فقال الشيخ : ما أحسن والله ما ضرط ! ما أطنّها ولا أغنّها ، ولا بَرْبَرها ولا قرْقَرَها . ونهض الفتى خجلا ، فقال : ما أحسن والله ما نهض ! [ما انفتل ولا انخزل . وأسرع الفتى ، فقال : ما أحسن والله ما خطا] ! ما ازورّ ولا اقطوطى فقالت العجوز : حسبك ياهذا ! وجّه إليه من يردُّه ، فوالله لو سلح فى ثيابه لزوّجناه !

خاطب من أهل المجون

وخطب رجل امرأة ، فجعل يخطبها ويُنعظ ، فضرب رأس ذَكره بيده وقال : مَهْ ! إليك يساق الحديث !

لأبى تمام فى غلام وحمار

أبو سويد قال : كان لحبيب بن أوس حمارٌ حصان ، وغلام مؤنّث ، فإذا نزل أخذ الحمار ينهق والغلام يَمْجُن فى كلامه ؛ فقلنا له : إنما أنت فضيحة ، فهل قلت فيهما شيئا ؟ قال :

لى حمارٌ وغلامٌ ۝ وهما مختلفان

---

(١) فى بعض الأصول : « ما فار ولا ثار » .

الكلام قال : ولِّنى نهربوق . قال : بل أوليك نصفه ؛ اكتبوا عهده على بوق .
قال : فولِّنى على أرمينية . قال : أخشى أن يبطئ علىَّ خبرك . قال : فغيِّرها .
قال : لا أريد أن أبعدك عن نفسى .

سعد بن الرابية وزياد

اختصم إلى زياد بنو راسب وبنو طفاوة فى غلام آدعوه ، وأقاموا جميعا
٥ البينة عند زياد ؛ فأشكل على زياد أمره ، فقال سعد الرابية من بنى عمرو بن يربوع
أصلح الله الأمير ، قد تبين لى فى هذا الغلام القضاء ؛ ولقد شهدَت البينة لبنى
راسب والطفاوة ، فولنى الحكم بينهما . قال : وما عندك فى ذلك ؟ قال : أرى
أن يُلقَى فى النهر ، فإن رسب فهو لبنى راسب ، وإن طفا فهو لبنى الطفاوة ،
فأخذ زياد نعليه وقام وقد غلبه الضحك ، ثم أرسل إليه : إنى أنهاك عن المزاح
١٠ فى مجلسى . قال : أصلح الله الأمير ، حضرنى أمرٌ خِفْت أن أنساه . فضحك زياد
وقال : لا تعودنّ .

أفصح أهل البصرة وأجلهم

أبو زيد قال : لم يكن بالبصرة أفصح لسانا ولا أظهرُ جمالا من الحسن ابن أبى
الحسن البصرى ، وزرعةَ بن أبى حمزة الهلالى .

المتوكل وعبادة المخنث

قال : وأخبرنى الوليد بن عبيد البحترى الشاعر قال : كنا عند المتوكل يوما
١٥ وبين يديه عُبادة المخنث ، فأمر به فأُلقى فى بعض البرك فى الشتاء ، فابتل وكاد يموت
بردا ؛ قال : ثم أُخرج من البركة وكسى ، وجُعل فى ناحية من المجلس ، فقال له :
يا عبادة ، كيف أنت ؟ وما حالك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، جئت من الآخرة !
فقال له : كيف تركت أخى الواثق ؟ قال : لم أَجُزْ بجهنم ! فضحك المتوكل
وأمر له بصلة .

٢٠ نوادر أشعب

قال أشعب : فىّ وفى أبى الزناد عَجب ؛ كنت أنا وهو فى كفالة عائشة بنت
عثمان ، فما زال يعلو وأسفل حتى بلغنا غايتَنا هذه !

أعور عمي

أبو حاتم قال : رُمى رجل أعور بنشابة ، فأصابت عينه الصحيحة ، فقال : أمسينا وأمسى الملك لله .

الجماز

وقال رجل للجماز : ولدت امرأتى لستة أشهر . فقال : لقد كان إناؤها ضاريا .

سفط كسرى

قالوا : أُتى الحجاج بسفَط قد أصيب فى بعض خزائن كسرى ، مقفل ؛ فأمر بالقفل فكسر ، فإذا فيه سفط آخر مقفل ؛ فقال الحجاج : من يشترى منى هذا السفط بما فيه ؟ فتزايد فيه أصحابه ، حتى بلغ خمسة آلاف دينار ، فأخذه الحجاج ونظر فيه فقال : ماعسى أن يكون فيه إلا حماقة من حماقات العَجَم ! ثم أنفذ البيع وعزم على المشترى أن يفتحه ويريه مافيه ؛ ففتحه بين يديه ، فإذا فيه رقعة مكتوب فيها : من أراد أن تطول لحيته فليمشطها من أسفل .

شبهة أعمى

الزبير بن بكار قال : جاءت امرأة إلى ابن الزبير تستعدى على زوجها وتزعم أنه يصيب جاريتها ؛ فأمر به فأُحضر ، فسأله عما ادعت ، فقال : هى سوداء وجاريتها سوداء ، وفى بصرى ضعف ، ويضرب الليل برواقه ، فأنا آخذ مَن دنا منى .

لأعرابى

قال : وخطب رجل خطبة نكاح وأعرابى حاضر ، فقال : الحمد لله ، أحمده وأستعينه وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . حى على الصلاة ، حى على الفلاح . فقال الأعرابى : لا تُقم الصلاة ، فإنى على غير وضوء .

أعميان فى الحمام

وقال : سمعت أبا موسى عيسى الضَّمرىّ يقول : دخلت الحمام فإذا بأعمى قد ركب أعمى ؛ فقال له : ما هذا ؟ قال : ظلمات بعضها فوق بعض .

لعيسى بن موسى

قال العوام بن حوشب : قال لى عيسى بن موسى : من أرضعتْك ؟ قلت : ما أرضعنى إلا أمى . قال : قد علمت أن ذلك الوجه القبيح لا يصبر عليه سوى أمّك .

ناسك مبغض

وكان رجل مَقيت قد تنسّك وتشبه بالحسن البصرى ، فشهد جنازة ، فوقف

على القبر وإلى جانبه رجل مليح ، فضحك ، فقال له الناسك : ما أعددت لهذه الحفرة يا فلان ؟ قال : قذفك فيها الساعة .

ضراط فصيح

ودخل أعرابي الحمام فضرط ، فقال نبطيٌّ كان في الحمام : سُبحان الله . فقال له الأعرابي : يابن اللخناء ، ضرطتي أفصح من تسبيحك .

٥ وقيل لأعرابي : مالك لا تجاهد ؟ قال : والله إني أبغض الموت على فراشي ، فكيف أسعى إليه ركضاً .

شهادة أعرابي

واستُشهد أعرابيٌّ على رجل وامرأة زَنيا ، فقيل له : أرأيته داخلا وخارجا كالمِرْود في المكحلة ؟ فقال : والله لو كنت جلدة استها ما رأيت هذا .

على رأس لقيط

وُجد منبوذ بضفّة العراق وعند رأسه مائة دينار ، ورقعة مكتوب فيها : ١٠ أنا ابن الشقي وابن الشقية ، وابن القدح والرطليّة ، وابن البغي والبغيّة ، من كفَلني فله هذه المئة .

السندي بن شاهك والحجام

السندي بن شاهك قال : بعث إليَّ المأمون بريدا وأنا بخراسان ، فطويت المراحل حتى أتيت باب أمير المؤمنين وقد هاج بي الدم ، فوجدته نائما ، فأعلمت الحاجب بقصتي وقدمت إليه عذري وما هاج بي من الدم ، وانصرفت إلى منزلي ١٥ فقلت : أحضروا إلى الحجّام . قالوا : هو محموم . قلت : فهاتوا حجاما غيره ولا يكون فضوليا . فأتوني به ، فما هو إلا أن دارت يده على وجهي حتى قال : جُعلت فداك ! هذا وجه لا أعرفه ، فمن أنت ؟ قلت : السندي بن شاهك . قال : ومن أين قدمت ، فإني أرى أثر السفر عليك ؟ قلت : من خراسان . قال : وأيُّ شيء أقدمك ؟ قلت : وُجه إليّ أمير المؤمنين بريدا ... ولكن إذا فرغت ٢٠ فسأخبرك بالقصة على وجهها . قال : وتعرّفني بالمنازل والسكك التي جئت عليها ؟ قلت : نعم .

قال : فما هو إلا أن فرغ حتى دخل رسول أمير المؤمنين ومعه كركي ، فقال : إن أمير المؤمنين يقرئك السلام وهو يعذرك فيما هاج بك من الدم ، وقد أمرك بالتخلف في منزلك إلى أن تغدو عليه إن شاء الله ، ويقول : ما أُهديَ

إلينا اليوم غير هذا الكركى ، فشأنك به . قال : فالتفت السندى إلى جلسائه فقال : ما يصنع بهذا الكركى ؟ فقال الحجام : يُطبخ سكباجا . قال السندى : يُصنع كما قال . وحلف على الحجام ألّا يبرح ؛ فحضر الغذاء فتغدّينا وهو ينظر ، ثم قُدّم الشراب ، فلما دارت الأقداح قلت : يعلّق الحجام من العقبين ! ثم قلت : جُعلت فداك ! سألتنى عن المنازل والسكك التى قدمت عليها وأنا مشغول فى ذلك الوقت ؛ وأنا أقصها عليك [الآن] فاستمع : خرجت من خراسان وقت كذا ، فنزلت كذا ... ياغلام ، اضرب ! فضربه عشرة أسواط ؛ ثم قلت : وخرجت منه إلى مكان كذا ... ياغلام ، أوجع ! فضربه عشرة أسواط أخرى ؛ ولم يزل يضربه لكل سكة عشرة ، حتى انتهى إلى سبعين سوطا فالتفت إلىّ الحجام وقال : ياسيدى ، سألتك بالله ، إلى أين تريد أنْ تبلغ ؟ قلت : إلى بغداد . قال : لست تبلغ حتى تقتلنى . قلت : فأتركك على ألّا تعود ؟ قال : والله لا أعود أبدا . قال : فتركته ، وأمرت له بسبعين درهما ؛ فلما دخلت على المأمون أخبرته الخبر ؛ قال : وددت أنك بلغت به إلى أن تأتى على نفسه .

فتوى أبى ضمضم

أتت جاريةٌ أبا ضمضم فقالت : إن هذا قبّلنى . فقال قبّليه ، فإنّ الله يقول : ﴿ والجُروحَ قِصاصٌ ﴾ .

وارتفع رجلان إلى أبى ضمضم ، فقال أحدهما : أبقاك الله ، إن هذا قتل ابنى . قال : هل لابنك أم ؟ قال : نعم . قال : ادفعها إليه حتى يولدها لك ولدا مثل ولدك ، ويربّيه حتى يبلغ مثل ولدك ، ويبرأ به إليك .

حيطة أعمى

وكان بالمدينة أعمى يكنى أبا عبد الله ، أتى يوما يغتسل من عين ، فدخل بثيابه ؛ فقيل له : بلّت ثيابك . قال : تبتلّ علىّ أحبُّ إلىّ من أن تجف على غيرى .

طمع الناسك

وفى كتاب الهند أن ناسكا كان له سمنٌ فى جرّة معلقة على سريره ، ففكر يوما وهو مضطجع على سريره وبيده عكاز ؛ فقال : أبيع الجرة بعشرة دراهم ، فأشترى بها خمس أعنز ، فأدهن فى كل سنة مرتين ؛ حتى تبلغ ثمانين وأبيعهن ،

فأبتاع بكل عشر بقرة ، ثم ينمى المـال بيدى ، فأبتاع العبيد والإماء ، ويولد لى ولد فآخذ به فى الأدب ، فإن عصانى ضربته بهذه العصا . وأشار بالعصا فأصاب الجرة ، فانكسرت وانصبّ السمن على وجهه ورأسه .

شهادة الحمير

الزبير قال : حدثنا بكار بن رباح قال : كان بمكة رجل يجمع بين الرجال والنساء ويحمل لهم الشراب ، فشُكِىَ إلى عامل مكة ، فنفاه إلى عرفات ، فبنى بها منزلا وأرسل إلى إخوانه فقال : ما منعكم أن تعاودوا ما كنتم فيه ؟ قالوا : وأين بك وأنت فى عرفات ؟ قال : حمارٌ بدرهم وقد صرتم على الأمن والنزهة . ففعلوا فكانوا يركبون إليه حتى فسدت أحداث مكة ؛ فأعادوا شكايته إلى والى مكة ، فأرسل إليه فأُتى به ، فقال : ياعدو الله ! طردتك فصرت تفسد فى المشعر الحرام قال : يكذبون علىّ أصلح الله الأمير . فقالوا : أصلحك الله ، الدليل على صحة ما نقول أن تأمر بجمع حمير مكة فترسل بهـا أمناء إلى عرفات فيرسلوها ، فإن تهتدِ إلى منزله دون المنازل كعادتها فنحن غير مبطلين . فقال الوالى : إن فى هذا لدليلا وشاهدا عدلا . فأمر بحمير من حُمُر مكة التى للكراء فأرسلت ، فصارت إلى منزله كما هى بغير دليل ، فأعلمه بذلك أمناؤه ، فقال : ما بعد هـذا شىء ؛ جردوه ! فلما نظر إلى السياط قال : لا بد أصلحك الله من ضربى ؟ قال : نعم ياعدو الله . قال : والله ما فى ذلك شىء هو أشد علىّ من أن يشمت بنـا أهل العراق ويضحكون منا ويقولون : أهل مكة يجيزون شهادة الحمير ! قال : فضحك الوالى وخلّى سبيله .

هنّأ رجلٌ رجلا فى أعرابية . فقال : باليمن والبركة ، وشدة الحركة ، والظفر فى المعركة .

وصف حمار

الهيثم بن عدى قال : بينا أنا بكُناسة الكوفة . إذا برجل مكفوف البصر قد وقف على نخاس يسوق الدواب ، فقال له : أبغنى حمارا لا بالصغير المحتقر ، ولا بالكبير المشتهر ، إذا خلا له الطريق تدفق ، وإذا كثر الزحام ترفق ، وإن أقللت علفه صبر ، وإن أكثرته شكر ، وإذا ركبته هام ، وإن ركبه غيرى نام .

قال له النخاس : يا عبد الله اصبر ، فإذا مَسخ الله القاضى حمارا أصبتَ حاجتك إن شاء الله !

وصف فرس

قال : ودخل رجل السوق فى شراء فرس ، فقال له النخاس : صفه لى . فقال : أُريدُه حسنَ القميص ، جيّد الفصوص ، وثيق العصب ، نقى القصب ، يشير بأُذنيه ويتشوف برأسه ، ويخطر بيده ، ويَدْحُو برجليه ، كأنه موج فى لجة ، أو سيل فى حَدور ، أو منحطّ من جبل ! فقال له النخاس : نعم ، كذلك كان صلوات الله عليه ! قال : إنما أصف لك فرسا . قال : ما حسبتُك إلا فى وصف نبيّ منذ اليوم !

هجاء أبى نخيلة لليمن

قال ودخل ابن نخيلة اليمن ، فلم ير بها أحداً حسنا ، ورأى نفسه — وكان قبيحا — أحسن من بها فقال :

لم أر غيرى حسناً * مُنْذُ دخلتُ اليمنا

ففى حـــر أمّ بلدةٍ * أحسنُ ما فيها أنا !

كناس الكوفة

محمد بن إسحاق قال : قال سفيان بن عيينة : دخلت الكوفة فى يوم فيه رذاذ من مطر ، فإذا أنا بكنّاس فتح كنيفا ووقف على رأس البئر وهو يقول :

بَلد طيّبٌ ويومٌ مطيرٌ * هذه روضة وهذا غَدير

ثم قال لصاحبه : انزل فيها . فأبى عليه ؛ فنزل وهو يقول :

لم يُطيقوا أن يَنزلوا ونزلنا * وأخو الحربِ من أطاق النّزولا

كناس آخر

الأصمعى قال : بينا أنا سائر بالفيفاء ، إذ سمعت صوتا يقول :

جنّبُونى ديارَ هِند وسُعدى * ليس مثلى يحُلُّ دار الهوانِ

قال : فالتفتّ يَمْنة وشِمالا ، فإذا الصوت خارج من حشّ ؛ فأقبلت حتى وقفت عليه ، فإذا بكناس وبيده فأس ؛ فقلت : يا سبحان الله ! أنت تكنس عذرة وتقول :

* ليس مثلى يحل دار الهوان *

فأنّى ذلك ؟ وأىّ هوان أكثر مما أنت فيه ؟ قال : فرفع رأسه إلىّ وقال :

لا تلمْنى فإننى نشوانُ * أنا فى الملكِ ماسقتْنى الدّنانُ

فقلت : ما هو إلا كقول الآخر :

* من قرّ عينا بعيْشِه نفعَهْ *

لعلى بن الجهم

ولعلى بن الجهم:

أعظمُ ذَنْبِى عنـــدكم وُدّى * فليْت هـــذا ذَنْبُكم عِندى

يا حسْرَتا أُهلكُ وجْدا بمن * لا يَعرِفُ الشكوى من الوَجْدِ

خبر الجعدين

حماد الراوية قال : أتيت مكة ، فجلست فى حلقةُ منها فيها عمر بن أبى ربيعة القرشى ، وإذا هم يتذاكرون العُذريين وعشقهم وصبابتهم ، فقال عمر بن أبى ربيعة ، أحدّثكم عن بعض ذلك :

كان لى خليلٌ من عُذرة ، [يقال له الجعد بن مهجع ؛ و] يكنى أبا مسهر وكان مشتهرا بأحاديث النساء ، يُشبّب بهن وينشد فيهن ، على أنه كان لا عاهر الخلوة ، ولا حديث السلوة ؛ وكان يوافى الموسم فى كل سنة ، فإذا أبطأ ترجمت له الأخبار ، واستُوقفتْ له السُّفّارة .

وإنه غاب عنى ذات سنة خبره ، حتى قدم وفد عذرة ، فأتيت القوم أنشدُ صاحبى ، فإذا رجلٌ يتنفس الصعداء ؛ فقال : عن أبى مسهر تسأل ؟ قلت : نعم . قال : هيهات هيهات ! أصبح والله أبو مسهر لا حيًّا يُرجى ، ولا ميتا ينسى ، ولكنه كما قال الشاعر :

لعمرُكَ ما هذا الغرامُ بتارِكى * صحيحا ولا أقضِى به فأموتُ

فقلت : وما الذى به ؟ قال : مثل الذى بك من أنهما كُكما فى الضلال ، وجرّكما أذيال الخسران ، كأنكما لم تسمعا بجنة ولا نار ! قلت : ما أنت منه يابن أخى ؟ قال : أخوه . قلت : والله [ما يمنعك أن تسلك مَسلكه الذى سلك إلا] أنك

وأعاك كالوشي والبجاد ، لا يرقعك ولا ترقعه ! ثم انطلقت وأنا أقول :

أرائحةٌ حُجّاجُ عُذْرةَ رَوْحَةً * ولما يَرُحْ في القومِ جعدُ بن مِهجع
خليلان نَشكو ما نُلاقي من الهوى * ومهما يقُل أسمَعْ وإن قلتُ يسمَعِ
ألا ليت شعري أيَّ خَطْبٍ أصابهُ * فلي زفراتٌ هِجْنَ ما بينَ أضلُعي
فلا يُبعِدَنْك الله خِلا فإنني * سألقى كما لاقيتَ في الحبِّ مصرعي ٥

قال : فلما حججت ووقفت بعرفات ، إذا به قد أقبل ، وقد تغير لونه وساءت هيئته ، وما عرفته إلا بناقته ؛ فأقبل [فأدنى ناقته من ناقتي] حتى خالف بين أعناقهما ، ثم اعتنقني وجعل يبكي ، فقلت له : ما الذي دهاك ؟ قال : بَرِح الخفاء وكشف الغطاء ثم أنشد يقول :

لئن كانت عُديلةُ ذات مَطْلٍ * لقد علمت بأنّ الحبَّ داء ١٠
[ألم تنظر إلى تغيير جسمي * وأنّي لا يفارقني البُكاء]
وإنكَ لو تكلفت الذي بي * لزالَ السِّترُ وانكشف الغِطاء
وإن معاشري ورجالَ قومي * حُتوفهم الصّبابة واللقاء
إذا العُذْريُّ مات بحتْفِ أنف * فذاكَ العبدُ تبكيه الرِّشاء

فقلت : يا أبا مسهر ، إنها ساعة عظيمة ، تَضرب فيها أكبادُ الإبل من شرق ١٥ الأرض وغربها ، فلو دعوتَ الله كنت قمِنا أن تظفَرَ بحاجتك ، وتنصَرَ على عدوك فجعل يدعو ، حتى إذا مالت الشمس للغروب ، وهم الناس أن يُفيضوا سمعتُه يُهَيْنِم بشيء ، فأصغيت مستمعا ، فجعل يقول :

يارَبِّ كلِّ غدْوةٍ وروحَهْ * من مُحْرِم يشكو الضُّحا ولَوْحَه
أنت حسيبُ الخلقِ يوم الدوحهْ ٢٠

فقلت له وما يوم الدوحة ؟ قال : سأخبرك إن شاء الله ، ولو لم تَسَلْني . فيممنا نحو المزدلفة ، فأقبل عليّ وقال : إني رجل ذو مال كثير ، من نَعم وشاء ، وإني خشيت على مالي عامَ أول التلف ، فأتيت أخوالي كلبا ، فأوسعوا لي عن صدر

المجلس وسقونى جمة البئر ، وكنت منهم فى خير أخوال ؛ ثم إنى عزمت على مواقعة إبلى بماء لهم يقال له الحوادث [1] ؛ فركبت يوما فرسى ، وعلقت معى شرابا أهداه إلى بعض الكلبيين ، فانطلقت ؛ حتى إذا كنت بين الحى ومرعى النعم ، رفعت لى دوحةٌ عظيمة ، فقلت : لو نزلت تحت هذه الشجرة ثم ترّوحت

٥ مبرداً ! ففعلت ، فشددت فرسى ببعض أغصانها ، ثم جلست تحتها ، فإذا بغبار [قد] سطع من ناحية الحى ، ثم تبينت ، فبدت لى شخوص ثلاثة ، فإذا فارس يطرد مسحلا وأتانا ، فلما قرُب منى إذا عليه درع أصفر وعمامة خز سوداء ؛ فما لبث أن لحق المسحل فطعنه فصرعه ، ثم ثنى طعنة للأتان ، وأقبل وهو يقول :

١٠ نطعنُهُم سُلْكى ومخلوجةً * كرك لأْمَيْنِ على نابِلِ

فقلت له : إنك قد تعبت وأتعبْت ، فلو نزلت ، فثنى رجله ونزل وشدّ فرسه ببعض أغصان الشجرة ؛ ثم أقبل حتى جلس ، فجعل يحدثنى حديثاً ذكرت به قول الشاعر :

وإنّ حديثا منكِ لو تبذلينَه * جنىَ النحلِ فى ألبانِ عوذٍ مطافلِ

١٥ فبينا هو كذلك ، إذ نكت بالسوط على ثنيتيه ، فما ملكت نفسى أن قبضت على السوط وقلت : مَه ! فقال : ولم ؟ قلت : إنى خائفٌ أن تكسرها ؛ إنهما رقيقتان عذبتان . قال : فرفع عقيرته وجعل يقول :

إذا قبّل الإنسانُ آخرَ يَشتهى * ثناياهُ لم يأثم وكان له أجرُ

وقال : ما هـذا الذى جعلت فى سرجك ؟ قلت : شرابٌ أهداه إلىّ بعضُ

٢٠ أهلك . فهل لك فيه ؟ قال : ما نكرهه إذا كُره . فأتيتُه به ، فوضعتُه بينى وبينه ، فلما شرب منه شيئا نظرت إلى عينيه كأنهما عينا مهاة قد أضلت ولدّها ؛

(١) فى الأصل : عزمت على مرافقة أهل ماء لهم يقال له الحوادث وفى الأمالى : يقال له الحوذان ، وفى مصارع العشاق : يقال له الخرزات

ثم رفع عقيرته يتغنى :

إنَّ العيونَ التى فى طَرْفِها مرضٌ * قتَلْننا ثمَّ لم يُحْيِين قتــلانَا

يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حتى لاحَراك به * وهُنَّ أضعفُ خلقِ اللهِ إنسانا

ثم قمت لِأُصْلِحَ من أمر فرسى ، فرجعت وقد حسر العمامة عن رأسه ؛ وإذا غلامٌ كأنَّ وجهَه دينار هرقلى ، فقلت : سبحانك اللهم ! ما أعظمَ قدرتك ! قال : فكيف ؟ قلت : ذلك مما راعنى من نورك ، وبهرنى من جمالك ! قال : وما الذى يروعك من زرق العيون وحبيس التراب [1] ، ثم لا تدرى أيَنعَمُ بعدَك أم يَبْأَسُ ؟ قلت : لا يصنع الله بك إلا خيراً .

ثم قام إلى فرسه ، فلما أقبل برقت لى بارقة من تحت الدرع ، فإذا ثديٌ كأنه حُقٌّ عاج ، قلت : نشدتك الله ، آمرأةٌ أنت ؟ قالت : إى والله ، وتكرهُ العُهْر ، وتحب الغَزَل ! قلت : وأنا والله كذلك ! فجلست والله تحدثنى ما أُنكِرُ من أمرها شيئاً ، حتى مالت على الدوحة سكرى ؛ فاستحسنت والله يا ابن أبى ربيعة الغدر ، وزُيّن فى عينى ؛ ثم إن الله عصمنى ؛ فما لبثتْ أن انتبهت مذعورة ، فلاثت عمامتها برأسها ، وأخذت الرمح ، وجالت فى متن فرسها ؛ فقلت : مصيتِ ولم تزوّدينى منك زاداً ! فأعطتنى بنانها فشممت والله منها كالنبات الممطور زُهر الثلج ؛ ثم قلت : أين الموعد ؟ قالت : إن لى إخوة شُرْساً وأبا غيوراً ، والله لأن أسرّك أحبُّ إلىّ من أن أضرّك ! ثم مضت فكان والله آخرَ العهد بها إلى يومى هذا ، وهى التى بلّغتنى هذا المبلغ وأحلّتنى هذا المحل !

قال : فدخلتنى له رِقّة ؛ فلما انقضى الموسم شددتُ على ناقتى وشدّ على ناقته ، وحملت غلاماً لى على بعير ، وحملت عليه قبة حمراء من أَدَم كانت لأبى ربيعة ،

---

(١) فى بعض الأصول : « من رزق الدواب ونبش التراب » . وفى الأغانى « من جيش التراب وأكيل الدواب » . وفى مصارع العشاق : « من زرق الدواب وحبيس التراب » .

وأخذت معى ألف دينار ، ومطْرَفَ خَزّ ؛ ثم خرجنا حتى أتينا بلاد كلب ، فإذا الشيخ فى نادى الحىّ ، فسلمتُ عليه ، فقال : وعليك السلام ، من أنت ؟ فقلت : عمرُ بنُ أبى ربيعة بن المغيرة المخزومى . قال : المعروف غير المنكور ، فما الذى جاء بك ؟ قلت : جئتك خاطباً ، قال : أنت الكفء لا يُرغَب عن وصله ، والرجل الذى لا يُرَدّ عن حاجته . قال : قلت : إن لم آتك لنفسى وإن كنتَ فى موضع الرغبة ، ولكننى أتيتكم لابن أختكم العُذرى . قال : والله إنه لكفء الحَسب ، كريمُ النسب ؛ غير أن بناتى لم يعرفن هذا الحى من قريش .

قال : فعرف الجزع من ذلك فى وجهى ؛ فقال : أما إنى أصنع فى ذلك ما لم أصنعْه قطُّ لغيرك : أُخيِّرُها فى نفسها ، فهى وما اختارت . فقلت : خيِّرْها . فأرسل إليها : إن من الأمر كذا وكذا ، فالرأىُ رأيُك .

فقالت : ما كنت لأستبدّ برأيٍ دون رأى القرشى ، خيارى ما اختار . قال : قد ردّتِ الأمرَ إليك . فحمدت الله وصليت على النبى صلى الله عليه وسلم ، وقلت : قد زوجتُها العذرىّ [الجعد بن] مهجع . وأصدقتُها عنه الألف دينار ، وجعلت تكرمتَها العبد والبعيرَ والقبّة ، وكسوتُ الشيخ المِطْرَف ، فسُرّ به ، وسألته أن يبنى بها من ليلته ، فأجابنى إلى ذلك ؛ فضربت القبة فى وسط الحىّ ، وأهديت إليه ليلا ، وبت عند الشيخ فى خير مبيت ، فلما أصبحت غدوت فقمت بباب القبة ، فخرج إلىّ وقد تبين الجذل فيه ، فقلت : كيف كنت بعدى أبا مُسْهِر ؟ قال : أبدت لى كثيراً مما كانت تخفيه يوم رأيتُها . فقلت : أقِمْ عند أهلك بارك الله لك ! ثم انطلقت إلى أهلى وأنا أقول :

كَفيت الفتى العُذرِىّ ما كان نابَهُ * ومِثلِى لِأثقالِ النَّوائبِ يَحمِلُ
أمَا استحسَنتْ منّى المكارمُ والعُلا * إذا صَرّحتْ أنّى أقول وأفعل

زواج المأمون ببوران

حدث أبو محمد الشعبي الورّاق — وكان عند باب خراسان عند باب الجسر الأول — عن حماد بن إسحاق عن أبيه إسحاق بن إبراهيم بن ميمون الموصلي، قال[1] :

بينا أنا ذات يوم عند المأمون وقد خلا وجهه وطابت نفسه، إذ قال لي : يا إسحاق، هذا يوم خلوة وطيب . فقلت : طيّب الله عيش أمير المؤمنين، ودام سرورُه وفرحه ! فقال : يا غلمان، خذوا علينا الباب وأحضروا الشراب . قال : ثم أخذ بيدي وأدخلني في مجلس غير المجالس التي كنا فيها، وإذا قد نُصبت الموائد، وأُصلح ما كان يَحتاج إليه الحال، حتى كأنه شيء قد كان تقدّم فيه ؛ قال : فأكلنا وأخذنا في الشراب، فأقبلت السّتيراتُ من كل ناحية بضروب من الغناء وصنوف من اللهو ؛ فلم نزل على ذلك إلى آخر النهار .

فلما غربت الشمس قال لي : يا إسحق، خير أيام الفتى أيام الطرب ! قلت : هو والله ذاك يا أمير المؤمنين . قال : فإني فكّرت في شيء فهل لك فيه ؟ قلت : لا أتأخر عن رأى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ! قال : لعلنا نباكر الصبوح في غدوتنا هذه، وقد عزمت على دخلة إلى الحرم . فكن بمكانك ولا تَرِمْ، فإني أوافيك عن قريب . قلت : السمع والطاعة . ثم نهض إلى دار السلام، فما عُرف له خبر إلى أن ذهب من الليل عامّتُه .

قال إسحاق : وكان المأمون من أشغف خلق الله بالنساء، وأشدّهم ميلا إليهن واستهتاراً بهنّ، وعلمت أن النبيذ قد غلب عليه، وأنهن قد أنسَينَه أمرى وما كان تقدم إلىّ ووعدنى من رجوعه، فقلت في نفسي : هو في لذته وأنا ههنا

(١) انظر « ألف ليلة وليلة » . الليلة التاسعة والسبعين بعد المائتين، إلى الليلة الثانية والثمانين .

فى غير شىء ، وفىّ بقية ، وعندى صبية كنت قد اشتريتها ، ونفسى متطلعة إلى افتضاضها . فقمت مسرعا عند ذكرها ، فقال الخدم : على أىّ شىء عزمت وإلى أين تريد ؟ قلت : أريد الانصراف . قالوا : فإن طلبك أمير المؤمنين ؟ قلت : هو فى سروره قد شغله الطربُ ولذةُ ما هو فيه عن طلبى ، وقد كان بينى وبينه موعدٌ قد جاز وقته ، ولا وجهَ لجلوسى .

قال : وكنت مقدَّمَ الأمر فى دار المأمون ، مقبولَ القول فيه ، لا أعارَضُ فى شىء ، إذا أومأتُ إليه ؛ فخرجت مبادِرا إلى باب الدار ، فلقينى غلمان الدار وأصحاب النوبة ، فقالوا : إن غلمانك قد انصرفوا ، وكانوا قد جاءوك بدابة ، فلما علموا بمبيتك انصرفوا . فقلت : لا ضير ، أنا أتمشى إلى البيت وحدى . قالوا : نحضِرُك دابةً من دواب النوبة ؟ قلت : لا حاجة لى فى ذلك . قالوا : فنمضى بين يديك بمشعل ؟ قلت : لا ، ولا أريد أيضا .

وأقبلت نحو البيت ، حتى إذا صرت ببعض الطريق أحسست بحرقة البول ، فعدلت إلى بعض الأزقة ، لئلا يجوز أحدٌ من العوام فيرانى أبول على الطريق ؛ فبُلت ، حتى إذا قمت إلى المسح ببعض الحيطان ، إذا بشىء معلق من تلك الدار إلى الزقاق ، فما تمالكت أن تمسّحت ، ثم دنوت إلى ذلك الشىء لأعرف ما هو ، فإذا بزنبيل كبير معلق بأربعة مقابض ، مُلبس ديباجا ، وفيه أربعة أحُبل إبرَيسم ، فلما نظرت إليه وتبينته قلت : والله إن لهذا لسببا ، وإن له لأمرا . فأقمت ساعة أتروى فى أمرى وأفكر فيه ، حتى إذا طال ذلك بى قلت : والله لأتجاسرنّ ولأجلسنّ فيه كائنا ما كان . . .

ثم لففت رأسى بردائى وجلست فى جوف الزنبيل ، فلما أحس من كان على ظهر الحائط بثقله ، جذبوا الزنبيل إليهم حتى انتهوا إلى رأس الحائط ، فإذا بأربع جوار ، فقلن : انزل بالرحب والسعة ، أصديقٌ أم جديد ؟ فقلت : لا ، بل جديد ! فقلن : يا جارية ، هاتى الشمعة . فابتدرت إحداهن إلى طست فيه شمعة ، وأقبلت بين يدىّ ، حتى نزلت إلى دار نظيفة ، فيها من الحسن والظَّرفْ

ما جرت له ، ثم أدخلتنى إلى مجالس مفروشة ، ومناصّ مرصوصة ، [فيها من] صُنوف الفرش مالم أر مثله إلا فى دار الخليفة .

فجلست فى أدنى مجلس من تلك المجالس ، فما شعرت بعد ذلك إلا بضجة وجلبة ، وستور قد رفعت فى ناحية من نواحى الدار ، وإذا بوصائف يتسابقن فى أيدى بعضهن الشمع ، وبعضهن المجامر يبخرن فيها العود والند ؛ وبينهن جارية كأنها تمثال عاج ، تتهادى بينهن كالبدر الطالع ، بقدٍ يزرى على الغصون ؛ فما تمالكت عند رؤيتها أن نهضت ، فقالت : مرحبا بك من زائرٍ أتى وليست تلك عادته . وجلست ، ورفعت مجلسى عن الموضع الذى كنت فيه ، فقالت . كيف كان ذا والله لى ولك ، ولا علم كان وقع إلىّ ؛ فما السبب ؟ قال : قلت : انصرفت من عند بعض إخوانى ، وظننت أنى على وقت ، فخرجت فى وقت ضيق ، وأخذنى البول فأخذت إلى هذا الطريق ، فعدلت إلى هذا الزقاق ، فوجدت زنبيلا معلقا ، فحملنى النبيذ فجلست فيه ، فإن كان خطأ فالنبيذ أكسبنيه ، وإن كان صوابا فالله ألهمنيه قالت : لاضير إن شاء الله ، وأرجو أن تحمد عواقب أمرك ؛ فما صناعتك ؟ قلت : بزّاز . قالت : وأين مولدك ؟ قلت : بغداد . قالت : ومن أىّ الناس أنت ؟ قلت : من أماثلهم وأوساطهم . قالت : حيّاك الله وقرب دارك ! . . . قالت : فهل رويت من الأشعار شيئا ؟ قلت : شيئا يسيرا . قالت : فذاكرنا بشىء مما حفظت قلت : جعلت فداك . إن للداخل دهشة ، وفىّ انقباض ؛ ولكن تبتدئين بشىء من ذلك ، فالشىء يأتى بالمذاكرة . قالت : لعمرى لقد صدقت ، فهل تحفظ لفلان قصيدته التى يقول فيها كذا وكذا . . . ؟

ثم أنشدتنى لجماعة من الشعراء ، القدماء والمحدثين ، من أحسن أشعارهم ، وأجود أقاويلهم ، وأنا مستمع أنظر من أى أحوالها أعجب ، من ضبطها ، أم من حسن لفظها ، أم من حسن أدبها ، أم من حسن [روايتها و] جودة ضبطها للغريب ، أم من اقتدارها على النحو ومعرفة أوزان الشعر ؟ ثم قالت : أرجو أن يكون ذهب عنك بعض ما كان من الحصر والانقباض والحشمة . فقلت :

إن شاء الله لقد كان ذلك . قالت : فإن رأيت أن تنشدنا من بعض ماتحفظ فافعل .

قال : فاندفعت أنشد لجماعة من الشعراء ، فاستحسنت نشيدى وأقبلت تسألنى عن أشياء فى شعرى كالمختبرة لى ، وأنا أجيبها بما أعرف فى ذلك ، وهى مصغية إلىّ ، ومستحسنة لما آتى به ؛ حتى أتيت على ما فيه مَقْنع ؛ قالت : والله ماقصّرت ولاتوهمت فى عوام التجار وأبناء السوقة مثل ما معك ؛ فكيف معرفتك بالأخبار وأيام الناس ؟ قلت : قد نظرت أيضاً فى شىء من ذلك . فقالت : يا جارية أحضرينا ما عندك . فما غابت عنا حينا حتى قدمت إلينا مائدة لطيفة ، قد جمع عليها غرائب الطعام السرى ؛ فقالت : إن الممالحة أول الرضاع ، فتقدمت ، فأقبلت أعذِّر بعض التعذير ، وهى معى تقطع وتضع بين يدىّ ، وأنا أغتنم ما أرى من ظرفها وحسن أدبها ، حتى رُفعت المائدة .

وأُحضرت آنية النبيذ ، فوضعت بين يدىّ صينية وقنّينة وقدح ومغسل ، وبين يديها مثل ذلك ، وفى وسط المجلس من صنوف الرياحين وغرائب الفواكه مالم أره اجتمع لأحد إلا لولىّ عهد أو سلطان ، وقد عبّئ أحسن تعبئة ، وهُيِّئ أحسن تهيئة . قال إسحاق : فتثاقلت عن الشراب لتكون هى المبتدئة ، فقالت : مالى أراك متوقفاً عن الشراب ؟ قلت : انتظاراً لك ، جُعلت فداك ! فسكبت قدحا آخر فشربت .

ثم قالت : هذا أوان المذاكرة ، فإن المذاكرة بالأخبار وذكر أيام الناس مما يطرب . قلت : لعمرى إن هذا لمن أوقاته . فاندفعت ، فقلت : بلغنى أنه كذا وكذا ... وكان رجل من الملوك يقال له فلان بن فلان ... وكان من قصته كذا وكذا ... ، حتى مررت بعدة أخبار حِسان من أخبار الملوك ، وما لا يُتحدث به إلا عند ملك أو خليفة ؛ فسُرّت بذلك سرورا شديدا ، ثم قالت : والله لقد حدّثتنى بأحاديث حِسان ، ولقد كثر تعجبى من أن يكون أحد من التجار يحفظ مثل هذا ، وإنما هذا من أحاديث الملوك ، وما لا يُتحدث به إلا عند ملك أو خليفة . فقلت : جعلت فداك ، كان لى جار ينادم بعض الملوك ، وكان حسن المعرفة

كثير الحفظ ؛ فكان ربما تعطل عن نوبته التي كان يذهب فيها إلى دار صاحبه؛ لشغل يمنعه من ذلك ، أو لأمر يقطع ، فأمضى إليه ، وأعزم عليه ، وأصيّره إلى منزلي ؛ فربما أخبرني من هذه الأحاديث شيئا ، إلى أن صرت من خاصة أخدانه وممن كان لا يفارقه ؛ فما سمعت مني فمنه أخذته ، وعنه استفدته . فقالت : يجب أن يكون هذا كذا . ولعمرى لقد حفظت فأحسنت الحفظ ، وما هذا إلا لقريحة جيدة وطبع كريم . قال إسحاق : وأخذنا في الشراب والمذاكرة : أبتدئ الحديث ، فإذا فرغت ابتدأتْ هي في آخَر ، حتى قطعنا بذلك عامة الليل ، والند وفائق البخور يُجدَّد ، وأنا في حالة لو توهمها المأمون أو تأملها لاستطار سروراً وفرحا .

ثم قالت لي : يا فلان — وكنت قد غيرت عليها اسمي وكنيتي — والله إني لأراك كاملا ، وإنك في الرجال لفاضل ، وإنك لوضيء الوجه ، مليح الشكل ، بارع الأدب ؛ ومابقي عليك إلا شيء واحد حتى تكون قد بَرّزْت وبَرَعْت . فقلت : وماهو ياسيدتي ، دفع الله الأسواء عنك ؟ قالت : لوكنت تحرك بعض الملاهي ، أو تترنم ببعض الأشعار . فقلت : والله [إني كنت] قديما أشتهيه ، وطالما كلِفت به وحرَصْت عليه ، فلم أرزَقه ولا يعلق بي شيء منه ؛ فلما طال عنائي به ، وكلما تقدمت في طلبه كنت منه أبعد وعنه أذهب ، تركته وأعرضت عنه ، وإن في قلبي من ذلك لحرقة ، وإني لمستهتَر به مائل إليه ، وما أكره أن أسمع في مجلسي هذا من جيّده شيئا ؛ لتكمل ليلتي ويطيب عيشي ! قالت : كأنك قد عرّضت بنا . قلت : لا والله ماهو تعريض ، وما هو إلا تصريح ؛ وأنت بدأت بالفضل ، وأنت أولى مَن أتمّ ما بدأ به . فقالت : ياجارية ، عود . فأحضرتْ عودا ، فأخذته ، فما هو إلا أن جسّته حتى ظننت أن الدار قد سارت بي وبمن فيها ، واندفعت تغني ، مع صحة أداء وجودة صوت . فقلت : والله لقد جمع الله لكِ خِلال الفضل ، وحباكِ بالكمال الرائع ، والعقل الزائد ، والأخلاق المرضية ، والأفعال السَّنية . فقالت : أماتعرف لمن هذا الصوت ومن غنّى به ؟ قلت : لا والله . قالت : الغناء لإسحاق ، والشعر لفلان ، وكان سببه كذا وكذا ... فقلت : هذا والله أحسن من الغناء .

فلم تزل تلك حالها فى كل صوت تغنيه ، ومع ذلك تشرب وأشرب ؛ حتى إذا كان عند انشقاق الفجر ، جاءت عجوز كأنها داية لها ، فقالت : أى بُنية ، إن الوقت قد حضر ، فإذا شئت فانهضى . فلما سمعت مقالها نهضت ؛ فقالت : عزمت ؟ قلت : إى والله . فقالت : مُصاحبا للسلامة ، [عزّمت] عليك لتسترنّ ماكنا فيه ، فإن المجالس بالأمانة . فقلت جعلت فداك ، أفأحتاج إلى وصية فى ذلك ؟ ٥

فودعتها وودعتنى ، وقالت : ياجارية ، بين يديه . فأُتى بى باب فى ناحية الدار ففُتح لى وأُخرجت منه إلى طريق مختصرة ، وبادرت البيت ، فصليت ووضعت رأسى ، فما انتهت إلا ورُسُل الخليفة على الباب ؛ فقمت فركبت فسرت إليه ، فلما مثلت بين يديه قال لى : ياإسحاق ، جفوناك بما كنا ضمنّاه لك ، وتشاغلنا عنك . فقلت : ياسيدى ، ليس شىء آثر عندى وأسرّ إلى قلبى من سرور يدخل على أمير المؤمنين ١٠ فإذا كمل سروره وطاب عيشه فعيشنا يَطيب وسرورنا يتصل بسروره . ثم قال : ماكانت حالتك ؟ قلت : ياسيدى كنت اشتريت من السوق صبية ، وكنت متعلق القلب بها ، فلما تشاغل أمير المؤمنين عنى ، وقد كانت فىّ بقية طالبتنى نفسى بها ، فضيت مسرعا وأحضرتها ، وأحضرت نبيذا فسقيتها وشربت معها ، وغلب علىّ السكر فقُطعت عما أردت ، وذهب بى النوم إلى أن أصبحت . فقال لى : ماأكثر ١٥ مايتهيأ على الناس من هذا . فهل لك فى مثل ماكنا فيه أمس ؟ فقلت : ياأمير المؤمنين وهل أحدٌ يمتنع من ذلك ؟ قال : فإذا شئت [فانهض بنا] فنهض ونهضت ، فصرنا إلى المجلس الذى كنا فيه بالأمس ، على مثل حالنا وأفضل ، حتى إذا كان ذلك الوقت وثب قائما ، ثم قال ياإسحاق ، لاتَرِم ، فإنى أجيئك ، وقد عزمت على الصبحة . فما هو إلا أن فارقنى حتى تصور لى ماكنت فيه ، فإذا هو شىء لا يصبر عنه إلا جاهل ٢٠ فنهضت . فقال لى الغلمان : الله الله . وإنه أنكر علينا تخليتك وطالبنا بك ، وقال : لِمَ تركتموه ؟ ولا نحسبك إلا تحب الإيقاع بنا . فقلت : والله لا نال أحدكم بسببى مكروهٌ أبدا . ولكن أبادر بحاجتى ، والله لاكان لى حبس ولاتريُّث ، وأمير المؤمنين أطال الله بقاءه إذا دخل أبطأ ، وأنا مُوافيكم قبل خروجه إن شاء الله .

قال : فمضيت ، فما شعرت إلا وأنا فى الزقاق ، فوافيت الزنبيل على ما كان عليه فأقعدت فيه وأُصعدْت ، وصرت إلى الموضع [الذى كنت فيه البارحة]، فلم ألبث إلا هنيهة وإذا بها قد طلعت ، فقالت : ضيفُنا ؟ قلت : إى والله . قالت : أو قد عاودْت ؟ قلت : نعم ، وأظنُّ أنى قد أثقلت . فقالت : مادحُ نفسه يقرئك السلام فقلت : هفوة ، فمُنّى بالصفح ، قالت : قد فعلنا فلا تَعُد ، قلت : إن شاء الله . ٥

ثم جلست ، وأخذنا فيما كنا فيه من المذاكرة والإنشاد والشرب ، ولم نزل على تلك الحال وأفضل ، وقد أنِست وانبسطت بعض الانبساط ، وهى مع ذلك لاتزال تقول : لو كنت على ماأنت عليه أحكمت من تلك الصنعة شيئا ، لقد تناهيت وبرعت . فأقول : والله لقد حرصت على ذلك وجهدت فيه فما رُزقتُه ولا قدرت عليه . ثم قلت : جعلت فداك ، لاتخلينا مما كان من فضلك البارحة . فأخذت فى ١٠ الأغانى ، وكلما مر صوت طيب قالت : أتدرى لمن هذا ؟ فأقول : لا ! فتقول : لإسحاق ! فأقول : وإسحاق هكذا فى الحذق ! فتقول . بخٍ إسحاق فى هذا البيت بديع الصوت ، وعميق الغناء . فأقول : سبحان الله ! لقد أعطى إسحاق هـذا مالم يعطه أحد ! فتقول : لو سمعت هذا منه لـكنت أشدّ استحسانا له وكلفا به .

حتى إذا كان ذلك الوقت وجاءت العجوز ، نهضت وودعتها ، وبادرت جارية ١٥ ففتحت الباب فخرجت منه .

وبادرت المنزل فتوضأت للصلاة وصليت الصبح ، ووضعت رأسى فنمت ، فما انتبهت إلا ورُسُلُ أمير المؤمنين يطلبوننى ؛ فركبت إلى الدار فما هو إلا أن مثلت بين يديه فقال لى : يا إسحاق ، أبيت إلا مكافأة لنا ومعاملة بمثل ما عاملناك . قلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، ما إلى ذلك ذهبت ، ولا إليه ٢٠ قصدْت ، ولـكننى ظننت أن أمير المؤمنين تشاغل عنى بلذته وأغفل أمرى ، وجاء الشيطان فأذكرنى أمر الجارية ، فبادرت ، فقال : وكان من أمرك ماذا ؟ قلت : قضيت الحاجة وفرغت [مِن] الأمر . فقال : قد انقضى ماكان بقلبك منها وواحدة بواحدة والبادى أظلم . فقلت : أنا يا أمير المؤمنين ألوَم وأظلم ، والمعذرة إليك

فقال : لا تثريب عليك ، هل لك فى مثل حالنا الأول ؟ قلت : إى والله ! قال : فانهض بنا . فقمنا حتى صرنا إلى الموضع الذى كنا فيه ، فأخذنا فى لذتنا ؛ حتى إذا كان الوقتُ قال لى : يا إسحق ما عزمت ؟ قلت لا عزم لى يا أمير المؤمنين ! قال : عزمت عليك لتجلسنّ حتى أخرج إليك لتصطبح ؛ فإنى عازم على الصبوح وقد نَغَّصْتَ علىّ منذ يومين ! قلت : إن شاء الله !

وقام ، فما هو إلا أن توارى ، حتى قمت وقعدت ، وجالت وساوسى ، وجعلت أفكر فى مجلسى معها وأفكر فيها ، وفى الخروج عن طاعة المأمون ومايخرجنى من سخطه ومَوجدته ؛ فسَهُل [علىّ] كلُّ صعب إذ فكرتُ فى أمرها ؛ فقمت مبادرا ، فاجتمع علىّ جندُ الدار فقالوا : أين تُريد ؟ فقلت الله الله ! إن لى قصة ، وأنا معلَّق القلب ببعض مَن فى منزلى ، وأحتاج إلى مطالعتهم فى بعض الأمر . فقالوا : ليس إلى تركك سبيل ! فلم أزل أرفق بهذا ، وأقبِّل رأس هذا ، ووهبت لواحد خاتمى ، ولآخر ردائى ، حتى تركونى ؛ فلما خرجت عن جملتهم لم أرتد عنها حاسرا حتى وافيت الزنبيل وصعدت السطح وصرت إلى الموضع ؛ فلما رأتنى قالت : ضيفنا ؟ قلت : نعم . قالت : جعلتَها دارَ مُقام ! قلت : جعلت فداك ، حق الضيافة ثلاثة أيام ، فإن عدت بعدها فأنت فى حِل من دمى ! قالت : والله لقد أتيتَ بحجة .

ثم جلسنا ، وأخذنا فى مثل حالنا الأول من الشرب والإنشاد ، والمذاكرة ، حتى إذا علمت أن الوقت قد قارب ، فكرتُ فى قصتى ، وأن المأمون لا يفارقنى على هـذا وأننى لا أتخلص منه إلا بشرح قصتى وأكشف له عن حالى ، وعلمت أنى إن قلت له ذلك طالبنى بمعرفة الموضع والمسير إليه ، مع ما كان غلب عليه من الميل إلى النساء ؛ فقلت لها : أتأذنين فى ذكر شىء خطر ببالى ؟ قالت : قل ما بدا لك . قلت : جعلت فداك ، إنى أراك ممن يقول بالغناء ، ويعجب به وبالأدب ؛ ولى ابن عم هو أحسن منى وجها ، وأشرف قدرا ، وأكثر أدبا ، وأعز معرفة ؛ وأنا تلميذ من تلاميذه ، وحَسنةٌ من حسناته ؛ وهو أعرف الناس

بغناء إسحق ! قالت : طفيلي ومقترح ! لم ترض أن سمحنا لك ثلاثة أيام ، حتى طلبت أن تأتى معك بآخر ؟ فقلت لها : جعلت فداك ، ذكرته لتكونى أنت المحكَّمة ، فإن أذنت وأردت ذلك وإلا فلا أذكره . فقالت . إن كان ابنُ عمك هذا على ما ذكرتَ فلا نَكرة أن نَعرفه . فقلت : هو والله أكثرُ مما وصفت ! فقالت : إن شئت فالليلة الآتية ائت به . ٥

ثم حضر الوقت فنهضت حتى وافيت منزلى ، وإذا برسل الخليفة قد هجموا على منزلى وأصحابِ الشرطة ؛ فلما بُصروا بى سُحبت على مابى بحالتى تلك ، حتى انتهوا بى إلى الدار ؛ فإذا المأمون جالس على كرسى وسط الدار ، مغتاظ حَرِد ؛ فقال : أخروجاً عن الطاعة ؟ قلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، إنه كانت لى قصة أحتاج فيها إلى الخلوة . فأومأ إلى من كان واقفا فتنحَّوا ، فلما خلونا قلت : كان ١٠ من خبرى كذا وكذا ، وفعلت وصنعت . . .

فوالله مافرغت من حديثها حتى قال : يا إسحق ، أتدرى ما تقول ؟ فقلت : إى والله ! إنى لأدرى ! فقال : ويحك ! كيف لى بمشاهدة ما شاهدتَ ؟ قلت : ما إلى ذلك سبيل ! قال : لابد أن تتلطف وتوصِّلنى إليها ؛ فهذا ما بقى لى صبر عنه ! قلت : والله إنى قد تفكرت فى قصتها وفيما قدمت عليه من عصيانك ، وعلمت ١٥ أنه لا ينجينى إلا الصدقُ وكشْف الحال ، وعلمت أنك تطالبنى به أشدّ مطالبة فقدّمْت لها ذِكرك ، ووعدتْنى فى أمرك بكذا وكذا . قال : أحسنت والله لولا ذلك لنالك منى كلُّ مكروه ! قلت : فالحمد لله الذى سَلَّمَ

ثم نهض ونهضت إلى مجلسنا ، وأخذنا فى لذتنا ، وهو مع ذلك يقول : يا إسحق ، صف لى حالها ، واشرح لى أمرها ! ٢٠

فقطعْنا يومنا فى مذاكرتها إلى أن مضى النهار ، فلما أن مضى من الليل هدْأة جعل يقول : ما جاء الوقت ! وأنا أقول بقى قليل ؛ والقلق غالب عليه ، حتى جاء الوقت ، فنهضنا ، وخرجنا من بعض أبواب القصر ؛ معنا غلام ، وهو على حمار وأنا على حمار . فلما صرنا بالقرب من منزلها نزلنا ، ثم سلمنا الحمارين للغلام ،

وقلنا له : انصرف ، فإذا كان الفجر فكن ههنا بالحمارين وأقبلنا نمشي متنكرَين وأنا أقول : يجب أن تُظهر برِّى بحضرتها وإكرامى ، وتطرحَ نخوة الخلافة وتجبُّرَ الملك ، بل كن كأنك تبع لى ! وهو يقول : نعم أو يحتاج أن توصينى ؟ ثم قال : ويحك يا إسحق ! فإن قالت لى غنِّ كيف أصنع ؟ قلت : أنا أكفيك
٥ وأدفعها عنك برفق .

فلما صرنا إلى الزقاق إذا بزنبيلين معلقين بثمان حبال ، فقعد كل منا فى واحد وجذبنا الجوارى ، وإذا نحن فى السطح ؛ وبادرن بين أيدينا حتى انتهينا إلى المجلس ، فأقبل المأمون يتأمل الفرش والدار والزّى ، ويتعجب عجباً شديداً ؛ ثم قعدت فى موضعى الذى كنت أقعد فيه ، وقعد المأمون دونى فى المرتبة ، ثم
١٠ أقبلتْ فسلمتْ ، فما تمالكَ أن بُهت من حسنها ، فقالت حيَّا اللهُ ضيفَنا ! فوالله ما أنصفتَ ابن عمك ، ألا رفعتَ مجلسه ؟ فقلت ذلك إليك ، جعلت فداءك ! فقالت [له] : ارتفع فديتُك فأنت جديد ، وهذا قد صار من أهل البيت ، ولكل جديد لذة !

فنهض المأمون حتى صار فى صدر المجلس ، ثم أقبلت عليه تذاكره وتناشده
١٥ وتمازحه ، وهو يأخذ معها فى كل فن ، ويفخمها قال ثم التفتت إلى وقالت : وفيت بوعدك وصدقت فى قولك ووجب شكرُك على صنيعك ! قال : ثم أحضر نبيذ وأخذنا فى الشراب ، وهى مع ذلك مقبلة عليه وهو مقبل عليها ، ومسرورة به ومسرور بها ؛ فقالت لى : ابن عمك هذا من أبناء التجار ؟ قلت : نعم ، فديتُك نحن لا نعرف إلا التجارة ! قالت وإنكما فيها لغريبان ! ثم قالت : موعدَك !
٢٠ فقلت : لعمرى إنه لجيب ، ولكن حتى نسمع شيئا . قالت : لك ذاك . فأخذت العود فغنت صوتا ، فشربنا عليه رطلا ؛ ثم غنت بصوت كان المأمون يقترحه علىّ ، فشربنا عليه رطلا .

فلما شرب المأمون ثلاثة أرطال ، داخله الفرح والارتياح وقال : يا إسحق

فوالله لقد رأيته ينظر إلىّ نظر الأسدِ إلى فريسته ، فنهضت وقلت : لبّيك يا أمير المؤمنين ! قال : غنّى بهذا الصوت !

فلما رأتنى قمت بين يديه وأخذتُ العود ووقفتُ بين يديه أغنيه ، علمت أنه الخليفة وأنى إسحق ؛ فنهضت فقالت : ههنا ! وأومأت إلى كِلّةٍ مضروبة ، فدخلتها ؛ ثم فرغت من ذلك الصوت وشرب رطلا ، وقال لى : ويحك يا إسحق ! انظر مَن ربُّ هـذه الدار ! فخرجت إلى تلك العجوز فسألتها عن صاحب الدار فقالت : الحسن بن سهل . قلت : ومن هذه ؟ قالت : بوران ابنته فرجعت وأعلمته

قال : ثم انصرفنا ، فقال لى : يا إسحق ، اكتم هذا الأمر ولا تنفوّه به . ومضينا إلى دار الخلافة ؛ فلما كان الصباح وحضر الحسن بن سهل على عادته ، قال له المأمون : ألك بنت ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال ما اسمها ؟ قال : بوران . قال : فإنى أخطبها إليك قال هى أمَتك يا أمير المؤمنين ، وأمرُها إليك قال فإنى قد زوجتّها على نقد ثلاثين ألف دينار : فإذا قبضت المال فاحملها إلينا .

ثم تزوجها ، وكانت أحظى نسائه عنده ، وآثرَهن لديه ؛ وكنت أستر هـذا الحديث إلى أن مات المأمون .

[قال إسحق] : فما اجتمع لأحد ما اجتمع لى فى تلك الأربعة الأيام ، إذ كنت أنصرف من مجلس أمير المؤمنين إلى مجلسها ، ووالله ما رأيت من الرجال وملوكهم وخلفائهم أحدا يفى بالمأمون ، ولا شاهدت من النساء امرأة كبُوران فى عقلها ؛ وأما معرفتها وأدبها فما أظن من يتهيّأ له أن يقف من العلوم على ما وقفت عليه ولقد سألت بعض من يتولى خدمتّها من العجائز : ماحَملها على ما أرى ؟ فقالت : إنها تفعل ذلك منذ كذا وكذا سنة ، ولقد عاشرَت الظرفاء والملاح والأدباء أكثر من أن يقع عليه إحصاء ، ولم يكن جرى بينها وبين أحد مكروه ولا خَنًا ولا كلمة قبيحة ؛ ولم يكن مذهبها فى ذلك إلا حب الأدب والمذاكرة ، ومعاشرة الظرفاء وأهل المروءة والأقدار والنُّبل والأخطار ، لا لريبة

تظهر ، ولا الحالة تُنكَر . قال : فوالله لقد تضاعف قدرُها عندى ، وعظم خطرُها في نفسي ، وعلمت شرفَ همتها وفضلَها .

فهذا خبر بوران صحيحاً على الحقيقة ، وسبب تزوُّج المأمون بها .

فتى من بنى حنيفة وجارية

٥ قال هشام بن الكلبي والهيثم بن عدى : إن ناساً من بنى حنيفة خرجوا يتنزهون إلى جبل لهم ، فرأى فتى منهم فى طريقه جارية ، فرمقها وقال لأصحابه : لا أنصرف والله حتى أرسل إليها وأخبرها بحبي لها ! فطلبوا إليه أن يكف فأبى ، وأقبل يراسل الجارية ؛ وتمكن حبها من قلبه ، فانصرف أصحابه وأقام الفتى فى ذلك الجبل ، فمضى إليها ليلة متقلداً سيفاً وهى بين أخوين لها نائمة ، فأيقظها ؛ فقالت : انصرف ١٠ لئلا ينتبه أخواى فيقتلاك ! فقال : الموت أهونُ والله مما أنا فيه ، ولكن أعطيني يدك أضعها على قلبي وأنصرف ! فأعطته يدها ، فوضعها على قلبه وانصرف ؛ فلما كانت الليلة الثانية ، أتاها وهى على مثل تلك الحال ، فأيقظها ، فقالت له مثل مقالها الأول ، فقال : لك الله إن أمكنتِنى من شفتيك أرشفهما أن أنصرف ! فأمكنته فرشفهما ثم انصرف ؛ فوقع فى قلبها من حبه مثل ١٥ ما كان به ...

وفشا خبرهما فى الحيّ ، فقال أهل الجارية : ما مُقام هذا الفاسق فى هذا الجبل ؟ امضوا بنا إليه الليلة ! فبعثت إليه الجارية : إن القوم سيأتونك الليلة ، فاحذر على نفسك ! فلما أمسى قعد على مرقاة ومعه قوسه وسهمه ، ووقع بالحيّ فى الليل مطر ، فاشتغلوا عنه ؛ فلما كان آخر الليل وانقشع السحاب وطلع القمر ، ٢٠ اشتاقته الجارية فخرجت تريده ومعها صاحبة لها من الحى كانت تثق بها ؛ فنظر الفتى إليهما فظن أنهما يطلبانه ، فرمى فما أخطأ قلب الجارية ، فوقعت ميتة ، وصاحت الأخرى ورجعت ؛ فانحدر الفتى من الجبل فإذا الجارية ميتة ،

فقال :

نَعَبَ الغُرَابُ بما كرِهْـ * ـتُ ولا إزالةَ للقدر

تبكى وأنتَ قتلتَهـا * فاصبر وإلا فانتحِرْ

ثم وجأ بمشاقصه فى أوداجه حتى مات ؛ فجاء أهل المرأة فوجدوهما ميّتين ، فدفنوهما فى قبر واحد ! ٥

باب اللغز

لثغة أبى عطاء

كانت فى أبى عطاء السندى لثغة قبيحة ، فاجتمع يوما فى مجلس بالكوفة فيه حماد الراوية ، وحماد عجرد ، وحماد بن الزبرقان ، وبكر بن مصعب ؛ فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : ما بقى شىء إلا وقد تهيأ فى مجلسنا هذا ، فلو بعثنا إلى أبى عطاء السندى ! فأرسلوا إليه ، فأقبل يقول : مَرْهَباً مرهبا ! هياكم الله ! وقد ١٠ كان قال أحدهم : من يحتال لأبى عطاء حتى يقول : جرادة ، وزُج ؟ وشيطان ! فقال حماد الراوية : أنا ! فقال : يا أبا عطاء ؛ كيف عِلمك باللغز ؟ قال : هَسَن ، يريد : حسن ، فقال له :

فما صَفْراء تُكنى أمَّ عوفٍ * كأنّ سُوَيْقتيها مِنجَلانِ

قال : زَرادة . فقال : أصبت ، ثم قال : ١٥

أتعرفُ مَسجداً لبنى تميم * فُوَيْق الميلِ دون بنى أبانِ؟

قال : فى بنى سيْتَان . فقال : أصبت ، ثم قال :

فما اسمُ حَديدة فى الرمحِ ترمى * دُوَيْن الصدْرِ ليست بالسنانِ ؟

فقال : زُزّ . فقال : أصبت .

* * * ٢٠

لغز المأمون فى خاتم

وقال المأمون يصف خاتما :

وأبيض أمّا جِسمُهُ فمُدَوّرٌ * نقىٌّ وأمّا رأسُــهُ فمعار

ولم يكتسبْ إلا ليسكُنَ وسْطَه * مؤنثةٌ لم تُكْسَ قطُّ خمار

لها أخواتٌ أربعٌ هُنّ مثلُها ☆ ولكنها الصُّغرى وهُن كِبار

لغز فى أرنب

وقال آخر فى أرنب:

لهوْتُ بِذاتِ رأس والتِياثِ ☆ كرفعِ الإصبَعَيْنِ على الثلاثِ

إذا السّبابةُ آرتفعت مع الخِنْ ☆ ـصَرِ اجتَمَعَ الثلاثُ بلا انتكاث

٥ لهوْتُ بهــا تطيرُ بلا جَناحٍ ☆ وتُنسَبُ فى الذُّكورِ وفى الإناث

لغز فى أمور شتى

وقال :

ربّ ثوْرٍ رأيتُ فى جُحْرِ نمل ☆ وقطاةٍ تحمّـــلُ الأثقالا

ونُسورٍ تمشى بغــيرِ رُءوس ☆ لا ولا ريش تحمِل الأبطالا

وعجوزٍ رأيتُ فى بطنِ كلب ☆ جُعِل الكلبُ للأميرِ جمالا

١٠ وغُــلامٍ رأيتُهُ صار كلبا ☆ ثم مِن بعدِ ذاكَ صار غزالا

وآتانٍ رأيتُ واردَةَ المـا ☆ ءِ زماناً وما تذوقُ بَلالا

وعُقابٍ تطير من غيرِ ريش ☆ وعُقابٍ مقيمَةٍ أحوالا

الثور : النمل الذى يخرج التراب من الجحر العظيم بفيه . والقطاة : موضع الردف من الفرس . والنسور : بطون الحوافر . والعجوز : السيف . وبطن ١٥ الكلب : الجلد الذى يعمل منه غمد السيف . وصار كلبا : ضم كلبا ، أخذه من صار يصور ، من قول الله : ﴿ فصُرْهُنّ إليْكَ ﴾ والآتان : الصخرة . والعقاب التى تطير من غير ريش : البكرة . والمقيمة أحوالا : اللواء .

لغز فى البيضة

وقال آخر فى البيضة :

ألا قل لأهل الرأيِ والعلمِ والأدبْ ☆ وكلّ بصيرٍ بالأمورِ أخى أرَبْ

٢٠ ألا خـــبرونى أى شىء رأيتمُ ☆ من الطير فى أرضِ الأعاجِم والعرب

قديمٌ حديثٌ قد بَدا وهو حاضرٌ ☆ يُصادُ بلا صيدٍ وإن جدّ فى الطّلَب

ويُؤكل أحيــانا طبيخاً وتارةً ☆ قلِيًا ومشويًّا إذا دُسّ فى اللهَب

وليس له لحمٌ وليس له دمٌ ☆ وليس له عظمٌ وليس له عصبْ

وليس له رجلٌ وليس له يدٌ * وليس له رأسٌ وليس له ذَنبْ
ولا هو حيٌّ لا ولا هُو ميِّتٌ * ألا خبرونى إنّ هذا هو العجَبْ

وقال غيره :

إنى رأيتُ عجوزاً بين حاجبها * ونابها حَبَشِىٌّ قائمٌ رُجلُ
له ثلاثونَ عينا بين مرفقِهِ * وبين عاتقِه فى رِجْله قَزَل
فى ظهرِه حيّةٌ حمراء قانية * فى ظهره رجلٌ فى ظهره رُجل

العجوز : الناقة . والحبشى الذى بين حاجبها ونابها : الأسود الحابس بالخطام . وقوله : له ثلاثون عينا بين عاتقه ومرفقه : مثاقيل كانت مصورة فى عضده . وقوله : فى ظهره حية حمراء قانية : كان عليه برنس فيه تصاوير بعضها داخل فى بعض .

لغز فى القلم — وقال آخر فى القلم :

فلا هو يمشى لا ولا هو مُقعدٌ * وما إن له رأس ولا كفُّ لامسِ
ولا هو حيٌّ لا ولا هو ميِّتٌ * ولكنّه شخصٌ يُرى فى المجالس
يزيدُ على سمِّ الأفاعى لعابُه * يدِبُّ دبيبا فى الدُّجى والحنادِسِ
يفرِّقُ أوصالا لصمتِ يُجِنُّهُ * وتُفرى به الأوداجُ تحت القلانِسِ
إذا ما رأته العينُ تحقِرُ شأنه * وهيهات يبدو النِّقْسُ عند الكرادِسِ

لغز آخر — وقال آخر فيه :

ضئيل الرُّواء كبير العناء * من البحرِ فى المنصب الأخضرِ
عليه كهيئةِ مَرِّ الشجا * ع فى دِعْصِ عنيسةِ أعفرِ
إذا رأسُهُ صح لم ينبعِثْ * وحاد السبيلَ ولم يبصِرِ
وإن مُدْيةٌ صدعتْ رأسَه * جرى جرْىَ صائبٍ لم يُقصِرِ
يقضى لبانته مُقبلا * ويَحْسِمه هيئة المــدبرِ
جرىءٍ بكفٍّ فى كفِّه * تسوقُ الثراء إلى المقتر

أبيات من الشعر المحدث

ماء النعيم بوجهه مُتحيِّرٌ * والصُّدغ منه كعطف للزاى

وكأنما نهكت قوى أجفانه * بالراح أو قد شيب بالإغفاء

لو باشر الماء القراح بكفِّهِ * لجرت أناملُه بنبع الماء

٥ وقال المؤمّل :

عجبتُ لمن يُطيِّبنى بمسك * وبى يتطيّب المسكُ الفَتِيتُ

خلاخيل النّساء لها وجيبٌ * ووسْواسِى وخلْخالى صموت

ولو أنّ النّساء غنينَ يوما * عن المسك الذكىّ كما غنيت

لأصبحَ كل عطّار فقيراً * قليلا ماله مايستبيت

١٠

تم الجزء الثامن من العقد الفريد وبه تم الكتاب

فهرس الجزء الثامن من العقد الفريد

صحيفة

تم فهرس الجزء الثامن من كتاب العقد الفريد